فرانسواز دونان
روچيه ليشتنبرج

المومياوات المصرية

من المـــوت الـى الخلـــود

ترجمة : ماهر جويجاتى



المومياوات المصرية

من المــوت الــى الخلــود

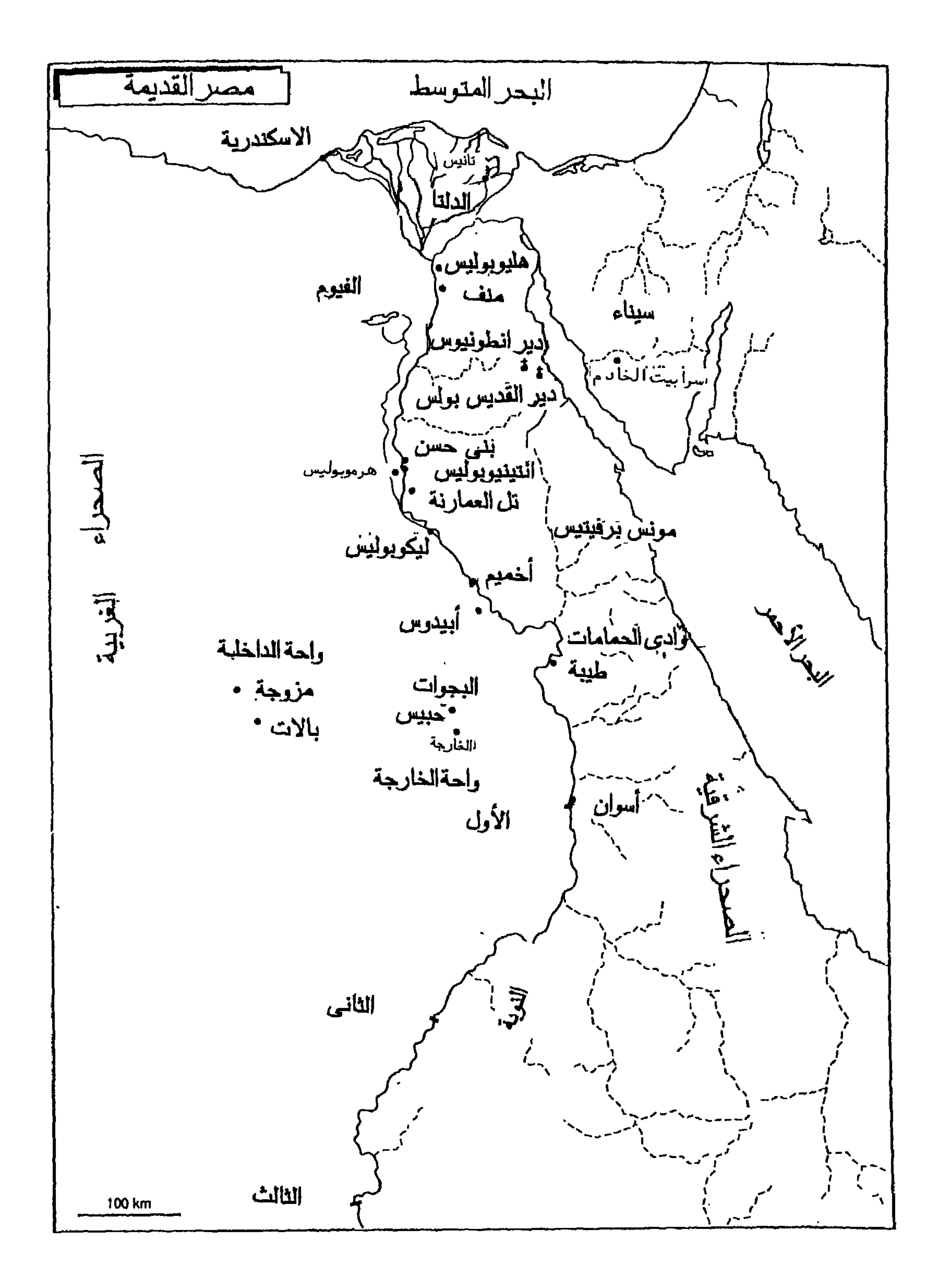
الطبعـــــة الأولـــــى
القـــاهـــــــرة ١٩٩٧

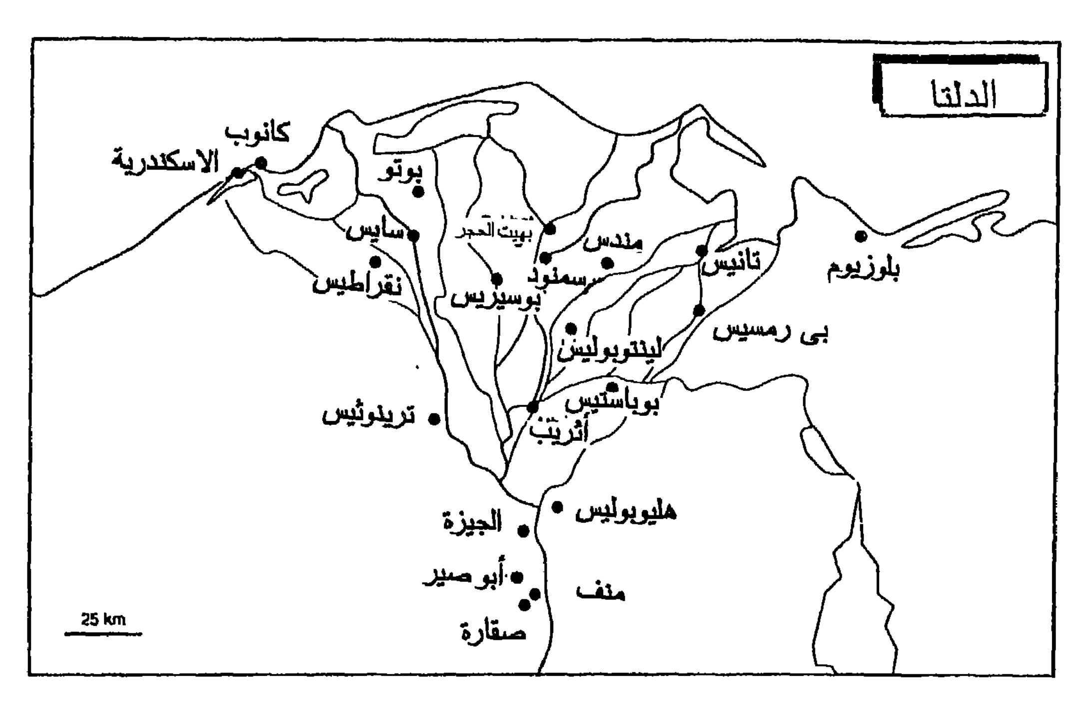


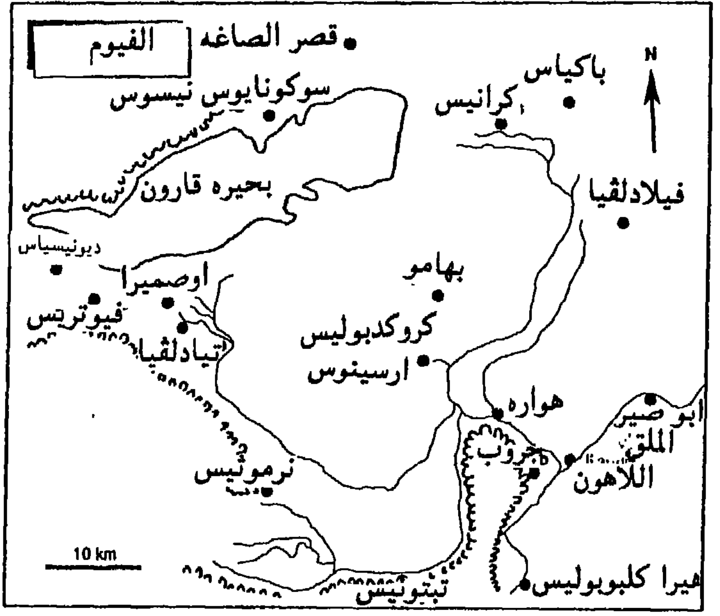
القاهـرة : ش هشـام لبيب - رقم ٤٠
مدينـة نصـر - المنطقـة الثامنـة
أسسها
الدكتـور طاهـر عبد الحكيـم ١٩٨٤
تليفون : ٢٧٣٥٠٧٤



صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
المركـــز الفـرنســـى
للثقـــافـــة والتعـــاون


مصر القديمة
البحر المتوسط
الاسكندرية
تانيس
الدلتا
هليوبوليس
الفيوم
منف
سيناء
دير انطونيوس
سرابيت الخادم
دير القديس بولس
بني حسن
هرموبوليس
انتينيوبوليس
تل العمارنة
الصحراء الغربية
مونس برفيتيس
ليكوبوليس
أخميم
أبيدوس
وادي الحمامات
البحر الأحمر
واحة الداخلة
طيبة
مزوجة
البجوات
بالالات
حبيس
الخارجة
واحة الخارجة
أسوان
الأول
الصحراء الشرقية
الثانى
النوبة
الثالث
100 km


الدلتا
كانوب
الاسكندرية
بوتو
سايس
بهبيت الحجر
مندس
نقراطيس
سمنود
تانيس
بلوزيوم
بوسيريس
بى رمسيس
ليونتوبوليس
بوباستيس
تريلوثيس
أتريب
هليوبوليس
الجيزة
أبو صير
منف
صقارة
25 km


الفيوم
قصر الصاغه
N
باكياس
سوكونايوس نيسوس
كرانيس
بحيره قارون
فيلادلفيا
ديونيسياس
اوصميرا
بهامو
فيوتريس
كروكدبوليس
تيادلفيا
ارسينوس
هواره
ابو صير الملق
جروب
اللاهون
نرموثيس
10 km
هيرا كلبوبوليس
تبتيونيس


من دندرة إلى إدفو
دندرة
قفط
نجع حمادى
وادى الحمامات
طيبة
ميدامود
الكرنك
الاقصر
أرمنت
تود
اسنا
نخن
هيراكونوبوليس
ادفو
25 km
كوم أومبو

الفصل الأول

فجر التحنيط

(١) إعمار مصر فى عصر ما قبل التاريخ

ترجع أولى المحلات البشرية فى وادى النيل الى عصور موغلة فى القدم، حيث عثر العلماء على آثار للإنسان الحى منذ العصر الحجرى القديم الأوسط (عام ١٢٠٠٠٠ ق. م تقريبا). وتزداد القرائن على وجود مواطن سكنى الإنسان فى العصر الحجرى القديم الأعلى، أى فيما بين ٤٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠ ق. م. وربما كانت هذه الجماعات البشرية قد استقرت فوق المدرجات المشرفة على النيل. وفى هذا العصر وفدت على ما يبدو عناصر من أقوام قادمة من افريقيا الشمالية مارة ببرقة والواحات. ولاشك أنها كانت تحيا حياة ترحال، رغم أن بعض المواقع قد توحى بوجود إرهاصات لحياة حضرية مستقرة. وقد خلفت لنا هذه الأقوام حصيلة هائلة من الأدوات الحجرية.

وفيما بين ١٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ ق. م، وفدت جماعات بشرية إلى الوادى لتستقر فيه، دفعها إلى ذلك، بلاشك الجفاف المتعاظم الزاحف على مناطق الصحراء الكبرى، حتى أصبحت غير صالحة لإعاشة أقوام آخذة فى الإزدياد. ومن سمات هذه الجماعات التى عثر على بقايا محلات سكنية لها، لاسيما فى حلوان وجبل السلسلة، أنها كانت تملك أدوات رفيعة المستوى. وإلى هذا العصر ترجع واحدة من أقدم الجبانات فى وادى النيل، وتقع إلى الشمال من وادى حلفا.

واعتباراً من سنة ٧٠٠٠ ق. م، يتبين بوضوح الإتجاه إلى التحضر وحياة الإستقرار. فانتقل الإنسان من حياة الصيد شبه البدوية إلى حياة كرست فى معظمها للزراعة وتربية الحيوان، الأمر الذى أصبح متاحاً بعد استئناس العديد من أنواع الحيوانات. ولكن هذه الظاهرة سارت ببطء شديد. فقد وجدت جنبا إلى جنب، أقوام سبق أن تحضرت واستقرت، وأخرى مازالت على عاداتها من الصيد والتقاط الغذاء.

أما حضارة العصر الحجرى الحديث فى الفيوم التى ترجع إلى حوالى ٥٠٠٠ ق. م فقد خلّفت لنا آثاراً كثيرة بدءاً من زراعة الحبوب وبقايا بعض الحيوانات الداجنة وسلال ونسيج من الكتان وصولاً إلى أدوات حجرية جميلة. وقد يرجع تاريخ ثقافة البدارى فى مصر الوسطى إلى نفس هذا العصر.

وتدريجياً (وفيما بين ٤٠٠٠ و ٣٢٠٠ على وجه التقريب) أخذت ثقافة تدعى ثقافة نقادة، نسبة إلى أهم مواقعها الأثرية فى صعيد مصر - أخذت تنتشر فى الوادى. ومن المتفق عليه، أن الأقوام التى طورت هذه الحضارة كانت قادمة من المناطق الصحراوية الواقعة على جانبى الوادى، عند مستوى الجندل الأول. وتم التحقق من وجود محلات سكنية هامة لها، فى الجبلين وهيراكنپوليس (الكوم الأحمر، حالياً - م.) فى الجنوب وهيلوپوليس والمعادى فى الشمال. ويمكن أن نلاحظ أوجه الشبه بين هذه الثقافة وثقافات الشرق الأدنى المجاور، لاسيما فى مواقع الشمال. إننا ندين لهذه الحضارة التى كان يعمل أهلها فى الزراعة وتربية الحيوان، ويمارسون عدداً من الصناعات الحرفية ولاسيما صناعة الفخار - إننا ندين لهم بأولى الدفنات المتطورة إلى حد ما.

(٢) الدفنات الأولى

فى العصر الحجرى الحديث، مع بداية الألف الخامس، كانت المقابر عبارة عن حفرة بسيطة محفورة فى التربة، على عمق بسيط. وقد يوضع فى الحفرة الواحدة جثة واحدة أو أكثر وتكون فى وضع مثنى وتدثر بجلد أو حصير ويتجه الرأس ناحية الجنوب والوجه ناحية الغرب. هكذا تبدو مقابر مرمدة بنى سلامة فى الدلتا. وفى وقت لاحق، كانت الدفنات فى العمرى، على مقربة من حلوان، من النمط نفسه، ولكن بعض المتوفين كانوا يرتدون حليًا من الصدف أو أحزمة من الخرز المصنوع من الإستياتيت. وفى البدارى، فى مصر الوسطى، على وجه الخصوص، اعتباراً من ٤٥٠٠ ق. م أخذت أهمية التجهيزات الجنائزية تزداد. فوزعت بعض الأشياء حول الجسد: آنية فخارية، حجر ظران مشطوفاً، بعض الحلى وأدوات الزينة (إبر وأمشاط من العاج أو العظم، صلايات لمساحيق الزينة). وبدأت تظهر فى بعض المقابر تماثيل صغيرة من الحجر والعاج أو الطين المحروق تمثل نساءً، لهن فى

الغالب ملامح جنسية ملحوظة رغم بساطة خطوطها وطابعها الزخرفى. والحفر هى أحياناً مستطيلة، وقد تكرر أحياناً استخدامها فى الدفن. كما توجد أيضاً مقابر للحيوانات، وسط مقابر البشر، ودثرت هى أيضاً بالجلود.

وفيما بعد، وفى عصر ثقافة نقادة، واعتباراً من ٤٠٠٠ ق. م، عثر على نفس النوع من التجهيزات فى المقابر، وإن وجدت معها أنواع جديدة من الخزف، وكمية ضخمة من أشياء مصنوعة من العظم أو العاج، والعديد من نماذج الصلايات رفيعة المستوى، على هيئة حيوانات تتميز إلى حد كبير ببساطة خطوطها وطابعها الزخرفى، وقد يخطر على بالنا ان وظيفتها كانت وظيفة سحرية ودينية. وقد عثر فى إحدى جبانات الجبلين (منتصف الألف الرابع) على جزء من نسيج بزخارف ملونة وكان على ما يعتقد قد استخدم فى لف شخص بعد وفاته. وتصور الزخارف راقصات ورجالاً يصطادون فرس النهر ومراكب ومجدفين... وفى مقبرة أخرى استطعنا أن نكتشف قائم سرير من الخشب على هيئة قدم حيوان له ظلف. أما تماثيل البشر الصغيرة، للنساء والرجال، فهى كثيرة. كما أخذت المشغولات النحاسية المطروقة (من حلىّ وأسنة حراب) فى الظهور.

واعتباراً من منتصف الألف الرابع، أصبحت المقابر أكثر اتساعاً، وأكثر اتقاناً، ومجهزة فى الغالب تجهيزاً فاخراً، الأمر الذى يعكس بكل تأكيد مزيداً من الرخاء. وهيمن الشكل المستطيل، وأخذ القوم يستخدمون الطوب لتكسية الحوائط الداخلية للمقابر. وأصبح الخزف موجوداً بوفرة، وقد زخرف فى الغالب بصور حيوانات ذات ملامح بسيطة وصور مراكب. وتصور تماثيل صغيرة من الطين المحروق نساء يرفعن سواعدهن، وربما كان لهن علاقة بالخصوبة أو بعودة الحياة بعد الوفاة. ومن ذلك الحين سنجد فى المقابر أشياء جميلة، لم تكن بكل تأكيد من الأشياء التى شاع استعمالها، بل كان هدفها بالأحرى إبراز علو شأن مالكها: فنذكر على سبيل المثال إناء من الحجر الصلد على هيئة ضفدعة، أو سكيناً من الظران له مقبض من عاج، نقشت عليه صور حيوانات، ويحتفظ المتحف البريطانى بكليهما. كما نشير أيضاً إلى سكين جبل العركى فى متحف اللوڤر. وقرب نهاية الألف الرابع، بدأنا نعثر على حلىّ من ذهب ومن فضة وأحجار نفيسة. ويعكس وجودها الأوضاع الإجتماعية لأصحابها وتشهد على أنشطة تجارية متطورة (فاللازورد والسبج هما من المنتجات المستوردة). وفى هذه المقابر كان الجسد يسجى، فى وضع يقلد وضع الجنين فى بطن أمه، ويدثر فى حصيرة أو قطعة نسيج ويتجه وجهات مختلفة. كما بدأت تظهر عادة استخدام توابيت من الخيزران أو الطين أو الخشب.

إن مقبرة هيراكنپوليس (الكوم الأحمر، حالياً – م.) رقم ١٠٠ التى يرجع تاريخها الى حوالى ٣٣٠٠ ق. م لتثير اهتمامنا على نحو خاص. فمساحتها كبيرة إلى حد ما، وحوائطها وأرضيتها من الطوب، وقد احتفظت بأشياء عديدة، ورسوم جدارية تصور مراكب وحيوانات متوحشة ورجالاً يتقاتلون أو يصارعون الحيوانات : إنه عالم صيد وحروب يذكرنا بزخارف الأوانى والصلايات المزدانة. شكل (١)

ومن الملاحظ، أنه منذ عصر ما قبل الأسرات والخزف والمشغولات الفاخرة تصنع خصيصاً لتوضع فى المقابر: فالفارق كبير بين نوعية الأوانى التى عثرنا عليها فى المقابر وتلك التى أتت إلينا من المناطق السكنية. ومن ناحية أخرى، نلحظ تنوع التجهيزات الجنائزية لتعبر عن تمايز طبقى متزايد. ولا تظهر الأشياء ذات الطابع السحرى الدينى إلا فى المقابر الأكثر ثراءً. وفى بعض الأحوال، وجدت عند حافة الحفرة جرار ملئت رماداً أو عظاماً متفحمة، وهو ما يفصح عن وجود شعيرة قربان من الأضاحى. وفضلاً عن ذلك، فإننا لا نعرف سوى النزر اليسير عن المعتقدات الجنائزية لأبناء هذا العصر. على أن موضوع المركب الذى كثيرا ما نلتقى به فى منتجات الخزف فى الألف الرابع، مثلما نشاهده فى زخارف مقبرة هيراكنپوليس، يمكن أن يحمل دلالة دينية، فيشير إلى رحلة المتوفى فى العالم الآخر.

وقد بقيت الأجساد أحياناً فى هذه المقابر على درجة كبيرة من الحفظ، كلما كانت تلامس الرمال بشكل مباشر. ويعتبر «چينچر»، الموجود حاليا فى المتحف البريطانى، من أكثر الأمثلة وضوحاً على ذلك. إن حجم الجسد فى وضع الإنثناء، يعادل حجمه الطبيعى تقريباً، الأمر الذى يعطيه مظهر حياة أخاذ. لقد احتفظ الجسد بشعره وأظافره، والبشرة لونها أسمر فاتح تميل إلى اللون الأحمر. وبالنسبة لنا يصل عمر هذه المومياء التلقائية الى حوالى ٥٢٠٠ سنة.

إن الأمثلة التى وصلتنا من هذا النوع من المومياوات قليلة جداً. إن سوء حفظها ليفسر الأمر، إذ يبدو ان حيوانات الصحراء قد نبشتها وأتلفتها. بيد أنه من الراجح أن خروج هذه الرفات البشرية الى النور وهى محفوظة حفظاً جيداً، بمجرد أن تغلب الناس على ما قد يثيره مثل هذا الظهور من فزع ورعب، قد حمل المصريين على التفكير فى أن حياة الفرد تستمر بعد الوفاة. وخير شاهد على ذلك أن الأشياء التى كان المتوفى يستخدمها فى المعتاد قد وجدناها بجواره فى المقبرة.

وتبرهن دفنات عصر ما قبل الأسرات التى كشف عنها «پترى» Petrie فى نقادة عن عادة تختلف كل الإختلاف. إذ يبدو الجسد وقد تقطعت أوصاله مع اختفاء الجمجمة أحياناً. وقد «رصت» العظام حسب أشكالها: العظام الطويلة، فالفقرات الخ... وهو ما يحملنا على الإعتقاد بوجود عملية إعادة دفن (تم خلالها رصّ العظام حسب أشكالها). فربما دفنت الأجساد فى مرحلة أولى حتى تحللت وتم إخراجها من القبر فى مرحلة تالية ليعاد دفن الهياكل العظمية بعد تنظيفها وفصل أجزائها. وربما كانت عبارة «تجميع العظام» التى نلتقى بها فيما بعد، بعد فترة طويلة، فى «متون الأهرام»، هى إشارة إلى هذه الممارسة. ووفقاً لفرضية أخرى، ربما كان الأمر، يتعلق بإعادة دفن رفات بشرية، نبشها اللصوص وسطوا عليها. وفى الواقع يذهب البعض إلى أن سرقة المقابر فى وادى النيل قد بدأت منذ وقت مبكر جداً... إلا أنه قد حدث فى حالة واحدة على الأقل، سجلها «وليم فلندرز پترى» W. F. Petrie (المقبرة T5 فى نقادة) أن لوحظ أن العظام قد احتفظت بآثار عضّ، الأمر الذى رأى فيه البعض دليلاً على وجود عادة أكل لحوم البشر كعادة شعائرية.وفى واقع الأمر مازالت هذه النوعية من الدفنات تثير لنا مشكلة، وإن ظلت ظاهرة نادرة جداً، وليس فى وسعنا أن نقدم تفسيراً شافياً، فى غياب أى اكتشاف جديد.

(٣) العادات الجنائزية فى العصر العتيق

المقابر وأثاثها

إن الرغبة فى حماية أجساد الموتى من أعمال السلب والعبث بها، وربما أيضاً محاولة تجنب ظهورها من جديد، قد دفع القوم إلى تشييد المقابر علاوة على حمايتها. وبدأنا نلاحظ قرب نهاية عصر ما قبل الأسرات ان الأجسام كانت توارى فى توابيت من الخشب أو الطين المحروق، وانتشرت عادة تغطية الحفرات بقطع من الخشب أو أغصان الشجر. وكان يخصص قسم مستقل داخل المقبرة لتخزين القرابين. واعتباراً من الألف الثالث، كفت المقبرة عن كونها مجرد حفرة، وباتت تضم بناءً سفلياً، من ناحية، وبناء علوياً، من ناحية أخرى، يبدأ من غطاء بسيط من الخشب إلى بناء مشيد من الطوب اللبن، سرعان ما سيتخذ هيئة المصطبة. ان هذا النمط من المقابر الذى أطلق عليه فى اللغات الأجنبية الاسم

العربى الدال على الأريكة، يتخذ شكلاً مستطيلاً، متوازى السطوح، جوانبه طويلة وتميل الى هذا الحد أو ذاك. وسوف ينتشر هذا النمط من المقابر خلال الدولة القديمة على وجه الخصوص.

ومنذ مطلع الأسرة الأولى، أخذت المقابر «الثرية» تشيد بكاملها بالطوب وقد تصل إلى أبعاد ضخمة، نذكر منها على سبيل المثال المقابر الملكية فى سقارة وأبيدوس. وهكذا، فإن مقبرة «واجى» فى سقارة، كانت تبلغ أبعادها حوالى ٥٠ متراً فى ١٥، وكانت تبدو بمثابة كتلة ضخمة من الطوب، جوانبها على هيئة «واجهة القصر». وكان سلم موصد بكتلة حجرية يفضى إلى حجرة الدفن، التى حفرت إلى حد ما على عمق كبير. وكانت هذه الحجرة محاطة بعدد من الغرف، وهى «المخازن» المخصصة للتجهيزات الجنائزية، لاسيما الآنية الحجرية والخزفية، التى يعثر عليها فى المعتاد بكميات كبيرة فى هذا النوع من المقابر. وفى إحدى الدفنات الملكية فى سقارة من الأسرة الثانية، تم الكشف عن وجبة جنائزية كاملة على مقربة من التابوت. وكانت تشتمل على خبز وسمك وطيور وقطع لحم عجل وفاكهة وفطائر ونبيذ.

وتحاط الدفنات الملكية بدفنات الأشراف، والحرفيين والخدم. وتتقيد مقابر الأشراف من الناحية المبدئية بنفس تخطيط الدفنات الملكية ولكن بمقياس أكثر تواضعاً. إنها تضم فى المعتاد حجرة دفن، تحيط بها من كل جانب، حجرتان للمخازن. إن مصطبة نجع الدير رقم ١٥٣٢، لخير شاهد على ذلك.

وتتكون دفنات الخدم فى المعتاد من حفرة ضيقة مستطيلة لها سقف من خشب، مغطى ببناء علوى من الرمل المخلوط بشقف من الحجر، وكل ذلك مغطى بمدماك محدب من الطوب. وكان يوضع بجوار التابوت أشياء لها فى الغالب طابع مهنى. وعلى ذلك، كانت المقابر الموزعة حول مقبرة الملكة «ميرنيت» فى سقارة تضم أدوات من النحاس والظران وأوعية طلاء ونماذج مراكب وسكاكين القصابين، وكلها أشياء تعكس أنشطة شاغل المقبرة.

أما المقابر الأكثر فقراً فكانت مجرد حفرة بيضاوية محفورة فى الرمل ومغطاة ببعض الأغصان أو الحصر، ثم تهال عليها الرمال التى استخرجت من الحفرة على شكل أكمة. وقد عثر حتى فى هذه المقابر الفقيرة على بعض الأوانى الفخارية أو الأدوات الموزعة حول الجسد.

الموتى ودثارهم

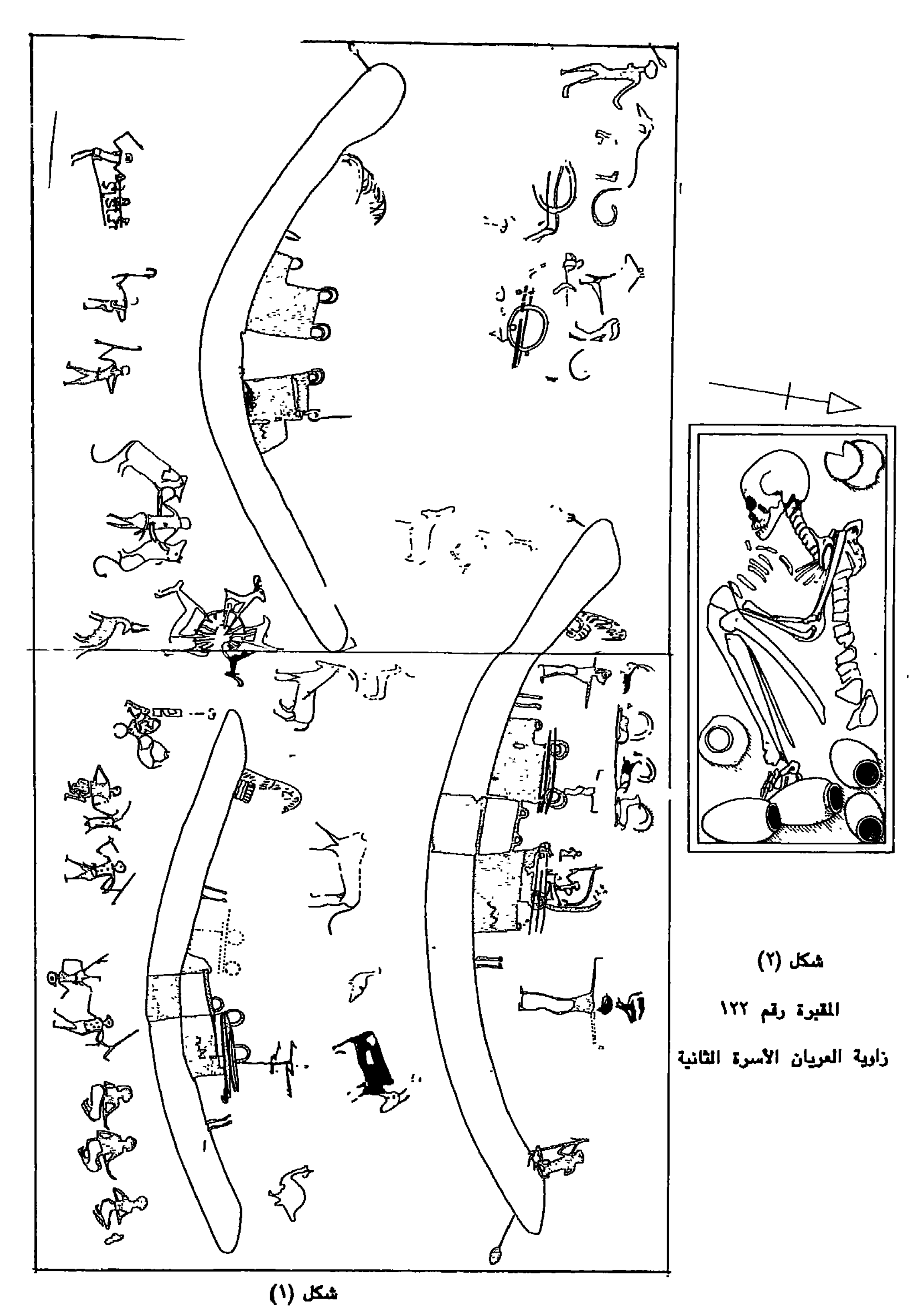
فى مقابر الأثرياء (أكانوا ملوكاً أم أشرافاً) كانت الأجساد المسجاة فى التوابيت ملفوفة بكل عناية باللفائف. ولم يتبق لنا منها شىء، عدا بعض الإستثناءات القليلة: ومع ذلك فقد عثر فى سقارة على بعض النماذج التى ترجع إلى الأسرة الثانية. كانت اللفائف الكتانية التى تحيط بها قد تشبعت بالراتنج فظلت بعد أن جفت محتفظة بشكل الجسد. ويبدو أن الوجه والأعضاء التناسلية قد أعيرت إهتماماً خاصاً. وأقدم الأمثلة على هذا، هو الساعد الذى عثر عليه فى مقبرة الملك «جر» فى أبيدوس (الأسرة الأولى) والذى لم يحتفظ إلا بالعظام والكتاف والأساور. وتدفعنا بعض التوابيت إلى الظن بأن المصريين منذ ذلك الوقت كانوا يأخذون بوضع الجسد ممداً وإن ظل وضع الإنثناء هو الغالب.

إن الدفنات الفقيرة وهى أقل عرضة لأعمال السلب والنهب، قد احتفظت فى المقابل بأعداد كبيرة من الأجساد فى وضع الإنثناء، ومستلقية على الجانب الأيسر. ولم نعثر على جسد واحد من الأجساد التى دفنت فى هذا النوع من المقابر سالماً، كما هو الحال بالنسبة لأفراد عصر ما قبل الأسرات : فقد عثر على هياكل عظمية فحسب.

وعلى ذلك، فإن الرغبة فى حماية الأجساد من حيوانات الصحراء أو من اللصوص والسلابين قد دفع أقوام هذا العصر الى ابتكار هياكل على قدر من التعقيد أحياناً، كان القاسم المشترك الذى يجمع بينها هو الإبتعاد عن ملامسة رمال الصحراء الماصة للرطوبة، الأمر الذى ساعد على تعفن الجسد وتحلله. وإذ أرادوا حماية الجسد من كلاب الصحراء فقد تركوه فريسة لديدان الجيفة... ومن الواضح ان مصريى هذه العصور لم يدركوا خاصية الرمال الخيرة، إذا أحاطت بجسد المتوفى. وليس فى الأمر ما يثير دهشتنا فى هذه البلاد التى خاض فيها الإنسان على مرّ الأيام صراعاً مريراً مع الرمال (فكيف يمكن إذن اعتبار أن ما يشكل خطراً دائماً هو الطيف الأمين؟). [شكل (٢)

مشكلة التحنيط

إن وجود المومياوات التلقائية قد دفع المصريون منذ وقت مبكر جداً إلى التفكير فى إمكانية الحفاظ على الجسد. وسوف نشاهد إذن كيف نشأت بالتدريج أساليب تقنية متنوعة غايتها ضمان سلامة الجسد، وتبلورت هذه المساعى ببطء شديد، وجرى العديد من المحاولات المتعثرة التى كللت بنتائج متفاوتة. إن الرغبة فى البقاء على سلامة الجسد



شكل (٢)

المقبرة رقم ١٢٢

زاوية العريان الأسرة الثانية

شكل (١)

زخارف مرسومة . المقبرة رقم ١٠٠ هيركنبوليس*(الكوم الأحمر)

بأساليب صناعية رافقتها زيادة فى كمية الأشياء التى وضعت فى المقبرة حول المتوفى، وهو ما يعكس على ما يظن الإعتقاد فى استمرار الحياة بعد الوفاة.

إننا نعرف الآن أن المكونات الأساسية للتحنيط وهى كلمة لا نعرف على كل حال مقابلها اللغوى عند قدماء المصريين، كانت على النحو التالى:

- استخراج الأحشاء الداخلية.
- لف الجثمان باللفائف.
- استخدام الأدهان والراتنج.
- «حمام» النطرون.

هذه القائمة وإن لم تكن قائمة مستفيضة، فهى لا تتقيد بترتيب زمنى صارم، فتاريخ تنفيذ بعض العمليات لم يتحدد بشكل قاطع، وتبعاً لطريقة التحنيط التى يقع الإختيار عليها، ففى الإمكان الإستغناء عن بعض المراحل، وإن كانت معروفة. الأمر الذى يفسر التفاوت فى حفظ الأجساد، مع مراعاة ضخامة تأثير العوامل الخارجية بالطبع.

وبمرور الزمن وتدريجياً، توصل المصريون إلى إتقان مكونات التحنيط، أكثر فأكثر، وجرى استخدامها على امتداد مئات السنين حتى وصلت إلى أوجها بحلول الدولة الحديثة. ومن الناحية العملية احتاج الأمر إلى ألفى سنة.

الفصل الثانى

التحنيط فى الدولة القديمة

تكشف الدولة القديمة بجلاء عن وجود سلطة مركزية قوية. والنظام هو نظام يأخذ بالملكية المطلقة ذات الأصول الإلهية. الملك هو الملك وفى فلكه يدور كل شىء، وبصفته هذه، فإن كل جميل ليس بالشىء الكثير عليه. إن أهرام الجيزة الضخمة التى شيدت إبان الأسرة الرابعة لخير دليل على ذلك. وهكذا، فإن المقابر الملكية هى التى توفر لنا أساساً كل ما نعرفه عن العقائد والمعتقدات الجنائزية.

(١) تطور الأساليب التقنية

حتى نهاية الأسرة الثالثة، لم تفض الرغبة فى الحفاظ علٰى الجسد سالماً إلى نتائج مقنعة رغم أنها كانت رغبة صادقة. إن الأسلوب الوحيد المستخدم كان يعتمد على لف المتوفى بأقمشة مشبعة بالراتنج، وبفضل ذلك، فإن أكثر ما وصل إلينا هو بعض القوالب المجوفة للاجساد التى عولجت على هذا النحو. وإذا استثنينا قدماً عثر عليها فى هرم «چسر»، وتعود إلى مومياء الملك، فلم تصلنا من هذا العصر أية جثة ملكية.

ومع مطلع الأسرة الرابعة، نخطو خطوة كبرى: فمن المؤكد أن الملكة «حتپ - حرس»، زوجة «سنفرو» ووالدة «خوفو»، قد تم استخراج أحشاء بطنها. وبالفعل فقد اكتشف «ريزنر» Reisner ، عام ١٩٢٥، على مقربة من هرم خوفو، فى حجرة صغيرة فى قاع بئر، على جزء من الأثاث الجنائزى الخاص بالملكة وكان يضم فيما يضم صندوقاً من الألبستر يتكون من أربعة عيون بها بقايا الأحشاء ملفوفة فى نسيج كتانى. وكان كل ذلك مغموراً فى محلول نطرون، ويسمح لنا هذا الإكتشاف أن نؤكد أن المصريين كانوا يعرفون أهمية استئصال الأحشاء الباطنية ضماناً لفاعلية عملية التحنيط وتجنب تحلل الجسد. كانت هذه القواعد العملية وقفاً على الملوك وعظماء البلد. والحالة هذه، لم تصلنا مومياء واحدة لملوك الدولة القديمة، فقد سلبت دفناتهم سلباً فادحاً على امتداد التاريخ. إن العثور على بعض

بقايا الهيكل العظمى للملك «چدكارع - إسيسى»، فى هرمه بسقارة، وهى تحمل بعض آثار التحنيط، ليمثل مع ذلك الإستثناء الوحيد.

وفى المقابل، فإن مثال الأمير «رع نفر» الذى عثر على رفاته فى مصطبته فى ميدوم يقدم لنا مثالاً طيباً عن التحنيط فى هذا العصر. كان الجسد قد تم لفه بأقمشة مشبعة بالراتنج، فشكلت على هذا النحو ما يشبه القالب. وهكذا أعيد الوجه إلى ما كان عليه وكأنه حفر غائر. ومن ناحية أخرى، فقد تم استخراج أحشاء البطن التى لفت فى نسيج ووضعت فى كوة صغيرة نقرت فى إحدى حوائط حجرة الدفن. وقد عثر على مثل هذه الكوات فى العديد من مقابر جبانة ميدوم، ولكنها كانت قد أفرغت فى معظم الأحوال من محتوياتها (وفى الأسرة الرابعة كان فى الإمكان أن تحل حفرة نقرت فى أرضية الحجرة محل هذه الكوة). وفى الحجرة الجنائزية للهرم الناقص فى زاوية العريان، فى وسعنا أن نشاهد فجوة حفرت فى الصخر، خصصت للصندوق الكانوپى.

إن إستخراج الأحشاء سيصبح من الممارسات الشائعة جداً خلال الأسرتين الخامسة والسادسة، وإن لم تكن ثابتة، كما تشهد على ذلك مومياء امرأة من الأسرة السادسة عثر عليها فى إحدى مقابر الجيزة: فرغم أنها قد دثرت باللفائف بإتقان وارتدت فوق اللفائف ثوباً من الكتان، إلا أنه لم يتم استخراج أحشاء بطنها، إذ وجدت بقايا الأحشاء فى مكانها داخل الجسد. وفى الغالب لم يبق سالماً من الأجساد سوى الهيكل العظمى، لانها لم تعالج «بحمام النطرون». وفى المقابل كانت تقنية الحشو معروفة: فالتجويف الباطنى لـ «رع نفر» كان مملوءاً بأقمشة مشبعة بالراتنج. وقد عثر فى ميدوم على حالة إستثنائية تماماً لعملية تفريغ الجمجمة، تمت على كل حال من خلال الثقب القذالى، وهو دليل إضافى على الأهمية التى أولاها المصريون لاستخراج الأحشاء بشكل عام تجنباً لحدوث التحلل. ومع ذلك، فإن تفريغ الجمجمة لم يصبح ممارسة مؤكدة بشكل دائم إلا اعتباراً من الدولة الحديثة.

ويوجد نموذج كامل للتحنيط فى الدولة القديمة يخص مومياء من الأسرة الخامسة، وقد عثر عليها فى مقبرة عائلية بسقارة : إنها مومياء رجل فى حالة جيدة جداً من الحفظ وقد وضعت فى تابوت من الخشب فى قاع بئر. إن الأقمشة التى دثرت بها كانت مغطاة بالجص وقد اتقنت صناعته بحيث يصور تقاطيع الجسد. وقد لونت ملامح الوجه والشارب، كما أضيفت لحية مستعارة من القماش. لقد ظل القيام بإعداد قالب بالجص من قالب آخر، معمولاً به أيضاً فى الجيزة، عند نهاية الأسرة الخامسة وطوال الأسرة السادسة بأسرها، تارة للجسد بأكمله وتارة أخرى للرأس فقط. ومنذ الآن تظهر أهمية المحافظة على الرأس.

ويظهر نموذج يحتفظ به متحف بوسطن أن صب الجص كان يتم على ما يفترض على الجسد بعد وضعه فى التابوت لأن الواجهة الأمامية من الجسد وجانبيه وحدها هى التى يغطيها الجص. وبوجه عام، فإن الجسد يدثر بالكامل فى الأكفان واللفائف، ومع ذلك هناك تقنية أخرى للف الجسد باللفائف وتعنى بلف الأعضاء عضواً عضواً. وقد عثر على بعض الأمثلة فى الجبلين وسقارة. فأحد شاغلى «مقبرة المجهولين» بالجبلين، كان قد لف باللفائف بعناية تامة، وكان كل عضو من أعضائه على حدة، ورسمت ملامح الوجه على القماش باللون الأسود. كان مسجىً فى تابوت خشبى على جانبه الأيسر واضعاً رأسه على مسند رأس. وقرب نهاية الدولة القديمة، ظهرت الأقنعة الجنائزية المصنوعة من الطين الذى المخلوط بالقش، وتبرز ملامح الوجه لمسات باللونين الأسود والأبيض.

ومنذ بداية الأسرة الرابعة تغير وضع الجسد فى المقبرة. فسرعان ما تم العدول عن الوضع «المثنى»، فى أكثر المقابر ثراءً، وإن ظل معمولاً به كقاعدة عامة فى المقابر الأكثر فقراً : ومن المحتمل جداً أن هذا الوضع كان لا يتفق مع المعالجات التى تجرى على الجسد، وفى مقدمتها استخراج أحشاء البطن. ويبدو المتوفى فى أغلب الأحوال فى وضع ممدود وقد استقرت أطرافه العليا على امتداد الجسد ووضعت اليدان على الناحية الخارجية من الفخذين. وفى ترابط مع الوضع الممتد للجسد اتخذ التابوت شكل صندوق من خشب ضيق وطويل. وفى الغالب، يوضع هذا التابوت فى تابوت آخر من حجر، لو كان صاحبه من الأثرياء. ويظهر هذا الثراء أيضاً فى المادة المستخدمة: جرانيت أسوان أم الحجر الجيرى الأبيض المجلوب من طره. كما يظهر فى الزخارف الخارجية، التى تكون فى الغالب من النمط المعروف «بواجهة القصر». ومن ناحية أخرى، ففى دفنات الفقراء، يظل الجسد فى وضع إنثناء، وربما يوضع بكل بساطة فى جرة من الطين المحروق.

(٢) العمارة الجنائزية

فى ظل الدولة القديمة، تطورت العمارة الجنائزية تطوراً ملحوظاً لتصل إلى مستوى من الضخامة مع المجموعات الهرمية الملكية، ومثالها الأول، وهو هرم «چسر» المدرج، يرجع إلى الأسرة الثالثة. وبدءاً من أبى رواش شمالاً وحتى ميدوم جنوباً، تتوزع أهرامات الملوك من الأسرة الثالثة وحتى الأسرة السادسة. لقد توصل المصريون إلى ابتكار تقنيات البناء

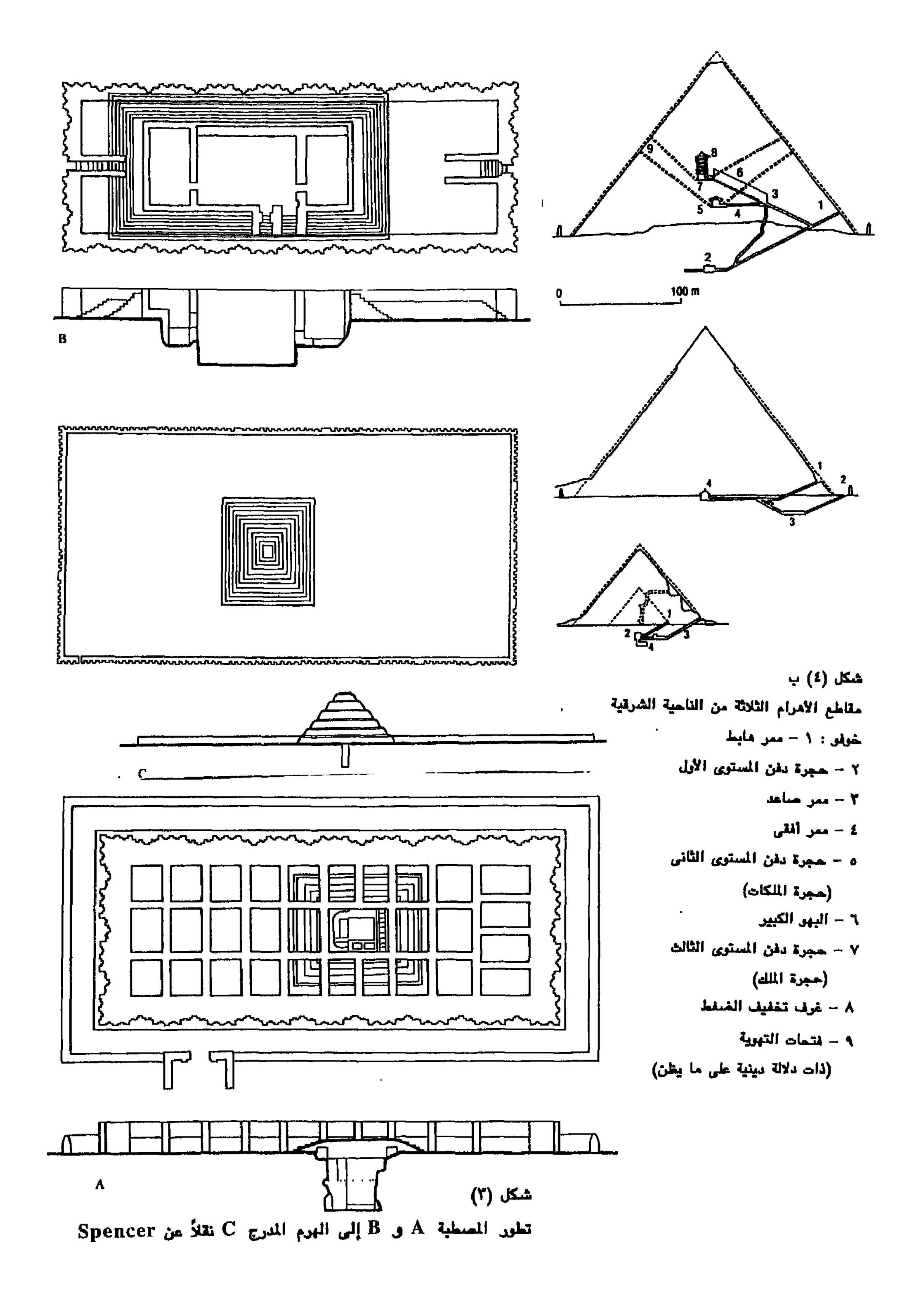
الحجرى (من المتفق عليه أن هرم «چسر» هو أول بناء فى العالم شُيد من الحجر)، كما أنهم امتلكوا ناصيت قطع أحجار فى صلابة الجرانيت أو البازلت. إن الأهرامات هى آثار معمارية معقدة، ومازالت أضخمها، تبدو حتى الآن مآثر تقنية حقيقية. ورغم مختلف النظريات التى تم اقتراحها، فلم تتوصل أى منها إلى تفسير مرض يشمل جميع أطوار تشييدها. ويكشف تنسيقها الداخلى عن إهتمام بالغ لحماية حجرة الدفن (وسوف يزداد هذا الإهتمام من أسرة إلى أخرى ليبلغ أقصاه فى ظل الدولة الوسطى). فوقع الإختيار على مواد صلبة (الجرانيت فى المقام الأول)، لتشييد الممرات الداخلية وحجرة الدفن، فيصعب على اللصوص إختراقها. كما وضعت المتاريس قبل حجرة الدفن مباشرة. ولا نشاهد أية زخارف داخلية فى أهرام الأسرة الرابعة، فى حين احتفظ هرم «چسر» بزخارف مصنوعة من قوالب صغيرة من القاشانى الأزرق، كما عثر على نقوش جدارية تصور الملك عند قيامه بشعيرة الركض احتفالاً بعيد «سد» فى «المقبرة الجنوبية» وسراديب الهرم ذاته. ومن ناحية أخرى، كانت حوائط الحجرات الجنائزية لأهرام الأسرتين الخامسة والسادسة مغطاة بالكامل بنصوص دينية على جانب كبير من الأهمية: إنها متون الأهرام.
شكل (٣)

إن الهرم هو العنصر الذى يلفت النظر أكثر من غيره من العناصر التى تكون المجموعة الجنائزية التى تضم أيضاً، بوجه عام، معبدين، معبد أدنى (معبد الوادى) ومعبد أعلى (المعبد الجنائزى) يربط بينهما طريق صاعد. وكان هذان المعبدان يستخدمان أثناء الشعائر الجنائزية والطقوس التى تقام من أجل الفرعون المتوفى. ولم يحفظ لنا الدهر سوى القليل من بقايا هذه المبانى، إذا استثنينا معبد الوادى للملك «خعفرع» الذى احتفظ بالجانب الأكبر من كسوته الجدارية وأعمدته المصنوعة من الجرانيت الوردى. ومع ذلك علينا أن نضع على حدة المجموعتين «الهرميتين» للملكين «چسر» و «سخم خت» اللتين تتكونان من سور ضخم يضم فى حرمه كل المبانى. وفيما يخص مجموعة «چسر» يجدر ملاحظة التكوينات المتميزة جداً الخاصة بالإحتفال بعيد «حب سد». إنها مبان لها وظيفة رمزية وسحرية بحتة، ومهمتها أن تضمن للفرعون المتوفى أن يظل يحتفل الى الأبد بهذا العيد. ومن ثم فالهياكل التى أقيمت على جانبى الفناء ليست سوى هياكل وهمية لا يستطيع المرء أن يدخل اليها، حيث أننا نعرف – حق المعرفة أن شعيرة الـ «حب سد» كانت تفرض على الفرعون «زيارة» كل واحد منها، وقد عثر على مقربة من العديد من الأهرامات إما على مراكب من حجر كتلك التى شيدت على امتداد طريق «أوناس» الصاعد، أو على

مراكب حقيقية. ويعتبر مركبا «خوفو» أفضل الأمثلة عليها. وتعيد هذه المراكب الى الأذهان الرحلة التى كان على الملك أن يقوم بها على متن مركب الشمس. وإن ظن البعض أن المراكب المصنوعة من الخشب ربما استخدمت أثناء رحلة الموكب الجنائزى.

وانتشرت المصطبة الحجرية فى أوساط الطبقة الحاكمة مع زيادة نظامها الخارجى والداخلى تعقيداً. وكقاعدة عامة أصبح وجود الهيكل ضرورياً، فكان خارج المصطبة فى بداية الأمر، ثم صار جزءاً منها، ويتصل بالخارج عن طريق ممر ضيق، خصص للشعائر الجنائزية. وأول الهياكل التى رأت النور كانت فى طرخان وترجع الى الأسرة الأولى. هذا الهيكل الذى قد تلحق به حجرات كمخازن للأثاث الجنائزى، يضم دائماً قاعة للقرابين بها الباب الوهمى الذى يسمح للمتوفى، معتمداً على السحر، بالخروج من المقبرة. وتصور مقبرة «مريروكا» فى سقارة المتوفى واقفاً، يهم بالخروج من الباب الوهمى، وتعد الزخارف الداخلية آية فى الإتقان، بصورها المنقوشة الملونة والمدونات بالخط الهيروغليفى. وتطور التماثيل الجنائزية. وتوجد فى حجرة خاصة تعرف إصطلاحاً بالسرداب (حيث تقبع بعيداً عن متناول اليد وإن كان فى الإمكان مشاهدتها من خلال فتحة صغيرة، الأمر الذى يمكن ملاحظته فى مجموعة «چسر» أو أيضاً فى مصطبة «تى»). أما حجرة الدفن فمكانها أسفل المصطبة وعلى وجه التحديد أسفل هياكل القرابين. ويمكن الوصول اليها فى المعتاد من خلال بئر قد تفضى إلى قمة المصطبة أو أيضاً إلى إحدى الحجرات الداخلية. وأحياناً، كما فى مصطبة «تى» يبدأ أحدور من الفناء المحاط بالأعمدة ليصل إلى حجرة الدفن، وتصطف المصاطب فى نظام صارم حول هرم الملك الذى يحيط به المقربون له وخدمه، حتى فى العالم الآخر. وتشكل هذه المجموعات فى الجيزة وسقارة، مدناً حقيقية للموتى. شكل (٥)

يضم أثاث المقابر، لهذا العصر، لوازم القرابين ومستلزمات الحياة اليومية التى قد تصل الى درجة كبيرة من الدقة، نذكر على سبيل المثال مقبرة «حتپ حرس». لقد وجدت مستلزمات المقبرة واثاثها ناقصة، بعد أن سلبت المقبرة الأولى ونهبت (فلم يتم العصور على جسد «حتپ حرس») فاعيد على ما يبدو دفن ما تبقى. وإذا كانت الملكة قد استخدمت بعض هذه الأشياء خلال حياتها، فمن الراجح ان معظمها قد صنع خصيصاً ليوضع فى المقبرة: أوانى من ذهب، ومن نحاس، ومن الألبستر، سكاكين ونصالاً وأدوات زينة من ذهب، ولاسيما السرير والمحفة وتبرز جميعها مستوى الإتقان الرفيع الذى بلغه حرفيو الدولة القديمة. وقد تم العثور فى «مقبرة المجهولين» فى الجبلين على أثاث متنوع جداً،



شكل (٤) ب

مقاطع الاهرام الثلاثة من الناحية الشرقية

خوفو : ١ – ممر هابط

٢ – حجرة دفن المستوى الأول

٣ – ممر صاعد

٤ – ممر أفقى

٥ – حجرة دفن المستوى الثانى (حجرة الملكات)

٦ – البهو الكبير

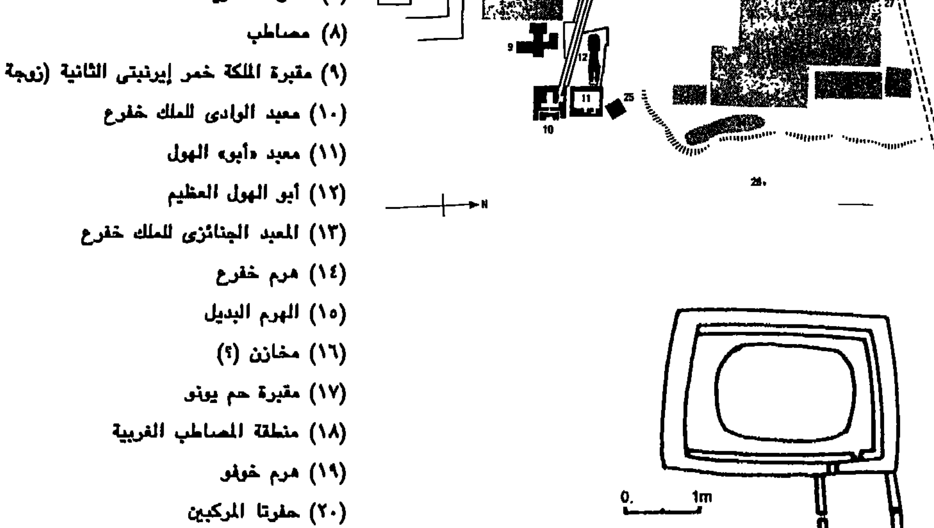
٧ – حجرة دفن المستوى الثالث (حجرة الملك)

٨ – غرف تخفيف الضغط

٩ – فتحات التهوية (ذات دلالة دينية على ما يظن)

شكل (٣)

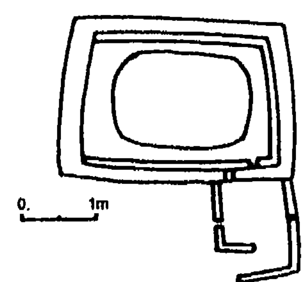
تطور المصطبة A و B إلى الهرم المدرج C نقلاً عن Spencer



شكل (٤) أ

خريطة لموقع الجيزة

(١) هرم منكاورع
(٢) أهرام الملكات
(٣) مقابر صخرية
(٤) المعبد الجنائزى للملك منكاورع
(٥) معبد الوادى للملك منكاورع
(٦) مقبرة الملكة خنتكاوس
(٧) مغاره صخرية
(٨) مصاطب
(٩) مقبرة الملكة خمر إيرنبتى الثانية (زوجة خفرع
(١٠) معبد الوادى للملك خفرع
(١١) معبد «أبو» الهول
(١٢) أبو الهول العظيم
(١٣) المعبد الجنائزى للملك خفرع
(١٤) هرم خفرع
(١٥) الهرم البديل
(١٦) مخازن (؟)
(١٧) مقبرة حم يونو
(١٨) منطقة المصاطب الغربية
(١٩) هرم خوفو
(٢٠) حفرتا المركبين
(٢١) مصاطب
(٢٢) أهرام الملكة
(٢٣) منطقة المصاطب الشرقية
(٢٤) مقابر صخرية
(٢٥) معبد الدولة الحديثة بلاك حور إم آخت
(٢٦) قرية نزلة السمان الحديثة.
(٢٧) مقبرة «حوتپ حرسى».



شكل (٥)

مقبرة طرخان (الأسرة الأولى)

يستجيب بشكل واضح لما قد يحتاجه المتوفى فى العالم الآخر: أوانى من الخزف للطعام، صناديق تحتوى أقمشة، نعال ونصال أدوات من البرونز، ونماذج مراكب من خشب.

وتظل مقابر الفقراء فى غاية البساطة، فهى فى الواقع حفرة محفورة فى الأرض، فى أغلب الأحوال، لها غطاء من الطوب، فى بعض الأحيان. وحول مصاطب «الأثرياء» نجد العديد من الدفنات من هذا النوع. إنها لا تختلف إختلافاً جوهرياً عن مقابر ما قبل الاسرات، وبسبب تكلفتها الزهيدة، سوف تستمر حتى العصر الرومانى. ويمكن ملاحظة وجود دفنات ذات مستوى متوسط بين دفنات الأشراف وأفقر الدفنات، وهى الموجودة فى جبانة العمال الذين شيدوا أهرام الجيزة. لقد عثر حديثاً على هذه الجبانة، فوق الهضبة. وبعض مقابرها متطورة نسبياً وقد شيدت على ما يبدو بما تبقى من المواد التى استخدمت فى الأهرام وتحاكى نموذج دفنات الأشراف. هنا أيضاً، يظهر التمايز الطبقى، إذ عثر على مقابر متواضعة أحياناً خلف مقبرة أكثر تطوراً (هل هى لرئيس فريق العمال ورجاله؟)

(٣) المعتقدات الجنائزية

فى ظل الدولة القديمة، ولأول مرة، تظهر نصوص تقدم لنا عرضاً تفصيلياً لمعتقدات المصريين حول مصير الأموات، ومن الأهمية بمكان ان نقرر أن هذه النصوص، المدونة فى المقابر الملكية، لا تخص سوى الملك. وبالفعل فإن «متون الأهرام» هى مجموعة تعاويذ سحرية وترانيم وابتهالات هدفها الأساسى مساعدة الملك المتوفى على الوصول الى أماكن حياته الجديدة. وبعض التعويذات هى تعويذات قرابين كانت تتلى بلاشك أثناء مراسم الدفن. كما يشير بعضها الآخر إلى بعض الشعائر. ونذكر على سبيل المثال:

«فمه مفتوح من أجل الملك. أنفه مفتوح من أجل الملك. أذناه مفتوحتان من أجل الملك». (نقلاً عن الترجمة الفرنسية : متون الأهرام Pyr 712 a - b, J.Griffiths)

«لقد فتح «حورس» فمك».

(نقلا عن الترجمة الفرنسية : متون الأهرام Pyr. 644C, J.G Griffiths)

تدل هذه التعويذات، على أن أداء شعيرة فتح الفم، على شخص الملك على الأقل، كان معمولاً به منذ ذلك العصر. ومن خلال هذه الشعيرة كان الكاهن يعيد إلى المتوفى القدرة على استخدام حواسه.

وبعد الوفاة، كان من المفروض أن يحق الملك بمركب الشمس ليرافق الإله «رع» في سيرته السماوية ويقيم إلى جوار الآلهة وأسلافه من ملوك مصر. ويصبح هو نفسه إلهاً بكل معنى الكلمة. ويندرج هذا التصور لصيرورة الملك في إطار لاهوت هليوپوليس الشمسي، بعد أن صار من الأهمية بمكان اعتباراً من الاسرة الخامسة. واستناداً الى تقليد يبرز أيضاً من هذه المتون، يتوحد الملك مع «أوزيريس»، الإله الذى مات و «بعث حياً»، وإن كان لا يتناقض والتقليد الهليوپوليتانى كما يشهد على ذلك النص التالى الذى نقش فى مقبرة «پيپى»:

*«إنك تصعد إلى جوار أمك «نوت»، إنها تُمسك بساعدك، إنها تدلك على الطريق نحو الأفق، محل إقامة «رع». عندئذ تفتح من أجلك السماء، وتنفتح من أجلك أبواب النسيم العليل. وتلتقى بـ «رع» واقفاً. إنه يحبك ويمسك يدك، ويقودك الى المقرين الإلهيين فى السماء. ثم يعهد اليك بعرش أوزيريس».**

(متون الأهرام نقلاً عن Pyr. 752 et sq,trad.Cl.Lalouette)

ولكن التقليد الأوزيرى لن يبلغ أوج قوته إلا بحلول الدولة الحديثة. إن هذه المتون، إذ كانت نصوصاً متطورة جداً، تعود بالتأكيد إلى عصر سابق على الدولة القديمة، إلى حد كبير، وإن كنا لا نعرف أصولها. وهناك نص يؤكد بوضوح أن الموت ليس هو الموت، لأن الملك سيعود إلى الحياة فى العالم الآخر:

«إنه («أوزيريس») يحيا، إن هذا الملك يحيا.

«إنه لم يمت، إن هذا الملك لم يمت.

«إنه لم يقض نحبه، إن هذا الملك لم يقض نحبه.

«أنه لا يتألم، إن هذا الملك لا يتألم».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية: متون الأهرام Pyr 167-b-d,cité par. J.G. Grif-fiths)

---

* نقلاً عن الترجمة العربية: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة.
المجلد الأول. الترجمة العربية: ماهر جويجاتى. مراجعة د. طاهر عبدالحكيم.
دار الفكر ١٩٩٦. ص ٢٠٨ (المترجم)

«أيها الملك، إنك لم ترحل ميتاً، لقد رحلت حياً».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية: متون الأهرام Pyr 134 a- b, cité par (J.G.Griffiths

وفى وسعنا أن نربط بين المراكب التى عثر عليها على مقربة من بعض الأهرام وبين الإعتقاد فى رحلة الملك السماوية على متن مركب «رع». ومن هذه المراكب نذكر مراكب «أوناس» المصنوعة من الحجر أو المركبين الرائعين المصنوعين من خشب الأرز اللذين تم الكشف عنهما عام ١٩٥٤، عند سفح هرم خوفو. وهناك تفسير آخر، يرى أن هذه المراكب كانت الوسيلة التى لا غنى عنها للقيام برحلة الحج الرمزية الى «سايس» و«بوتو». فى حين يرى تفسير ثالث، أنها قد استخدمت بكل بساطة على ما يظن خلال الرحلة الجنائزية على صفحات نهر النيل.

وبعد وفاته، كانت تقام من أجل الملك - الإله، شعيرة قرابين فى المعبد الجنائزى أو فى «معبد ملايين السنين». ولهذا الغرض كان الملك يوقف وقفا توفر موارده الإمكانية المادية لإقامة هذه الشعيرة. وكان هذا الوقف يتكون فى المعتاد من أراضى زراعية تابعة للملك. وفى نهاية المطاف أسهم هذا العمل فى تناقص موارد الملك كنتيجة لتآكل أملاكه.

لقد كانت متون الأهرام وقفاً على الملك دون غيره، فهو الكاهن الأعظم، وكان من الناحية النظرية الوسيط الأوحد بين عالم البشر وعالم الآلهة. ولن نجد أى نص من هذا القبيل فى مصاطب الأشراف التى كانت من جانبها مزخرفة بصور منقوشة، تصور المتوفى محاطا بأفراد عائلته ويخدمه. وغالباً ما كانت هناك نصوص تصاحب الصور، ومهمتها الأساسية تحديد أعداد القرابين وذكر ألقاب المتوفى وحياته الوظيفية، بل والتعليق على بعض المشاهد المصورة. ولا يمكن اعتبارها بأى حال من الأحوال نصوصاً ذات طابع لاهوتى. إن المشاهد التى نرى فيها المتوفى جالساً أمام مائدة القرابين الزاخرة بألوان الطعام، ومشاهد الحصاد أو تربية الحيوان، أيا كان تفسيرها (كإشارة إلى حياة المتوفى فى العالم الآخر أو الأنشطة اللازمة لإعداد القرابين)، كلها شواهد على الإعتقاد فى الحياة بعد الموت الذى كان ينظر اليه المصرى على انه مجرد معبر. شكل (٦)

وفى ذلك العصر، عرف المصريون عادة وضع تماثيل جنائزية صغيرة تحمل اسم المتوفى، وهو العرف الذى ندين له بازدهار فن نحت التماثيل ازدهاراً ملحوظاً. إن تمثالى «رع حوتپ» و«نوفرت» اللذين عثر عليهما داخل مصطبتهما فى ميدوم، ويعتبران مثالاً حياً



شكل (٦)

لوحة حجرية للأميرة «نفرت إيابت»

الدولة القديمة.

الأميرة الراحلة جالسة أمام مائدة قرابين

متحف اللوفر.

على ذلك ليستوقفان النظر. وفي عصر لم يكن فن التحنيط قد برهن بعد على كفاءته، كان في وسع التماثيل، بفضل السحر، أن تحل محل جثمان المتوفى وتكفل له حياته الجديدة. ومن أجل الهدف ذاته، فإن الرؤوس التى كانت تدعى «الرؤوس البديلة»، كانت كثيراً ما توضع في المقبرة، الأمر الذى يشهد أيضاً على الأهمية التى كان يوليها المصرى القديم للحفاظ على هذا الجزء من الجسد. والأمر الذى يسترعى الإنتباه عند دراسة مومياوات جبانة من الجبانات هو أن انفصال الرأس عن الجسد، هو من «الحوادث» الأكثر انتشاراً. وهكذا تشهد عادة استخدام الرؤوس البديلة على رداءة أساليب التحنيط. إن اختفاءها التدريجي، في عصر أخذت فيه أساليب التحنيط تزداد اتقاناً، ليبرهن على ذلك بالتضاد. ويشير نص من متون الأهرام بوضوح الى خوف المصرى القديم من أن يرى الجسد وقد فقد سلامته ووحدة أجزائه. يقول هذا النص موجهاً كلامه للملك:

*«نوت قادمة... إنها تجمّعك، إنها تعيد تكوينك، إنها تعيد رأسك الى مكانه، إنها تنظف عظامك، إنها تضم أعضاءك، إنها تضع قلبك فى جسدك»**.

(متون الأهرام Pyr. 828, trad. Cl. Lalouette)

أما فيما يخص القسم الأكثر فقراً من سواد الشعب، فلم تصلنا أية معلومات محددة حول المصير الذى كان ينتظر هؤلاء الناس بعد الوفاة. إن حقيقة وجود بعض القرابين التى عثر عليها فى أحوال كثيرة فى المقابر الأكثر بساطة، لتحملنا على الإعتقاد، انه فى هذه الأحوال أيضا كان هناك اعتقاد باستمرار الحياة بعد الموت.

* نقلاً عن الترجمة العربية : راجع المرجع السابق ص ٢٠٦ (المترجم).

الفصل الثالث

فن التحنيط فى ظل الدولة الوسطى

(١) عصر الانتقال الأول

اجتاحت البلاد فى نهاية الدولة القديمة قلاقل اجتماعية وسياسية خطيرة. لقد صاحب الضعف الذى أصاب السلطة المركزية بروز فئة من الأشراف فى أقاليم مصر أخذت تزداد قوة حتى كونت ممالك صغيرة حقيقية، انتهى بها الأمر الى فوضى تامة، ضاعف من خطورتها ظهور مشاكل إقتصادية. وخلال هذه الفترة التى استمرت مائتى سنة على أقل تقدير، تم سلب ونهب المقابر بكل صفاقة، سواء كانت مقابر ملكية أو غيرها. وفى نص تنبؤى نعرفه اصطلاحاً باسم «مرثيات إيپوور» ويرجع تاريخ تحريره الى الدولة الوسطى على ما يظن، فى وسعنا أن نقرأ ما يلى :

*«ذلك الذى كان قد دفن بصفته صقراً إلهياً (= الملك)، هو الآن فوق محفة، (شأنه شأن أى مواطن عادى) والهرم أصبح منذ الآن خاوياً.»**

لقد وضعت أسفار بأكملها عند مطلع الألف الثانى، صورت واقع هذه المرحلة فى عبارات مأساوية تعتمد على حقيقة أن الناس صاروا لا يدفنون موتاهم، كعلامة على مدى انتشار الفوضى. ومازلنا نتذوق بلاغة «مرثيات إيپوور» حول هذا الموضوع.

«فكثير من الموتى يلقى بهم فى النهر. المياه هى القبر و«المكان الطاهر» (مكان التحنيط) موجود الآن فى النهر.

لا يبحر أحد إلى بيبلوس هذه الأيام. كيف سنتصرف للحصول على خشب الأرز (لصناعة التوابيت أو من أجل الحصول على زيت شجر الأرز) من أجل مومياواتنا؟.

* المرجع السابق ص ٢٩٧. (المترجم).

الذين كانوا فى «المكان الطاهر» (الأموات) يوضعون فوق المرتفع (يتركون فى الصحراء) لأن أسرار التحنيط قد ضاعت".

(ترجمة Cl. Lalouette)

وفى الواقع فقد بقيت الأعراف الجنائزية ثابتة دون تغيير وينبغى إفساح المجال للمبالغة البلاغية التى تكتنف هذه النصوص (بمثابة إعادة كتابة التاريخ).

إن الرفات البشرية التى ترجع الى هذا العصر، وقد حفظ لنا الزمن منها أعداداً قليلة، تشير الى أن مستوى تطور فن التحنيط كان متواضعاً. إن تضميد مومياء «پيپى سنب» باللفائف، المحفوظة فى بوسطن، هو تضميد متقن. (ويتكون من ستة عشر كفناً، يفصلها حشو بكميات كبيرة!) وقد وضع أمام الوجه قناع من الكرتوناچ ومع ذلك تكشف الدراسة السكانوجرافية* Scannographique للمومياء أن مستوى حفظ الأنسجة اللينة ردىء جداً، كدليل على أن فن التحنيط كان لايزال فى مراحله الأولى، فى حين دثرت المومياء بعناية فائقة كما هو واضح. إن التابوت الخشبى الذى ينبىء بتلك التوابيت التى ستصنع فى الدولة الوسطى، هو عبارة عن صندوق مزخرف بعينى «واچت» ومدونات هيروغليفية تضم تعويذات القرابين إلى جانب أسماء وألقاب المتوفى. وفى المقابل فان أثاثه الجنائزى كان محدوداً جداً، رغم كون المتوفى من علية القوم.

ولا توجد قطيعة بين تجهيزات هذه المقابر وتلك التى نشاهدها فى مقابر الدولة القديمة. ومع ذلك، نبدأ فى العثور فى الحجرات الجنائزية على «نماذج» من الخشب الملون التى أخذت تنتشر وتعم خلال الدولة الوسطى. ونذكر على وجه الخصوص نماذج المراكب التى ترتبط برحلة الحج إلى أبيدوس، سواء كانت رمزية أم حقيقية. الأمر الذى يبرهن على تطور المعتقدات الأوزيرية. فلنتذكر أن مقبرة «أوزيريس» «الرئيسية»، كانت موجودة فى أبيدوس، على ما كان يعتقد.

ويبدو أن الشعائر الجنائزية التى تضمن استمرار الحياة بعد الموت قد أخذت تنتشر فى ذلك العصر لتشمل شرائح أوسع من الجماهير الشعبية. وإذا كانت هذه الحقيقة تعتبر فى الغالب دليلاً على ديمقراطية الممارسات الجنائزية، إلا أننا نرى انه من التعسف بمكان استخدام هذا التعبير فى هذا المقام.

---

* تصوير بالأشعة بواسطة جهاز الـ «سكانر». (المترجم).

(٢) تقدم فن التحنيط فى ظل الدولة الوسطى

تقدمت نوعية التحنيط فى ظل الدولة الوسطى بفضل الإعتماد المتزايد على استخراج أحشاء البطن وبفضل استخدام ملح النطرون على وجه الخصوص، ليس فى معالجة الأحشاء فحسب، بل مجمل الجسد أيضاً. وعلينا أن نؤكد على التأثير المزدوج لملح النطرون، فهو أساساً مزيج طبيعى من كلوريد وكربونات الصوديوم، لا يعمل على سرعة تجفيف الجسد فحسب، فى سباق حميم مع عملية التحلل، ولكن أيضاً على تصبين (تفكك) Spanofication الشحوم، الأمر الذى يحافظ على «الثبات والإستقرار الكيمائى» للمومياء.

ويبقى أن معالجة الجسد على هذا النحو لا تطبق دائماً بالكامل، وبالتالى فإن مومياوات أميرات الأسرة الحادية عشرة اللائى عثر على مقابرهن فى الدير البحرى، ووجدت سالمة فى الواقع، لم تكن تحمل أى أثر لشق باطنى، كما كان فى الإمكان التحقق من وجود بقايا الأحشاء فى القفص الصدرى الباطنى. وربما عولجت هذه المومياوات بأن حقنت عن طريق الشرج بمواد مذيبة أو جففت بواسطة النطرون (أو بالطريقتين معاً). وكان من الممكن مشاهدة آثار مواد راتنجية على الأغشية ولكن الجلد والأظافر لم تكن سالمة. كذلك، فإن الحلى الموضوعة فوق مومياء الأميرة «عاشيت» قد تركت آثاراً غائرة فى الجلد. ومن ناحية أخرى، فقد تم استخراج أحشاء البطن من غيرها من مومياوات الأسرة الحادية عشرة، نذكر على سبيل المثال مومياء «چحوتى نخت» (حاكم إقليم الأرنب فى مصر الوسطى) التى تم العثور عليها فى مقبرته فى البرشا. لقد عثر فى هذه المقبرة على إناء كانوپى من طراز فريد جداً (إذ كان له قدمان وساعدان!). وتبقّي رأس المومياء الذى احتفظ بشعر مموج إلى جانب بشرة الوجه. ونلحظ أمراً غير عادى، فقد تم تفريغ الجمجمة عن طريق العظمة المصفوية الوتدية ethmoido -sphénoidale، مع إحداث بعض الأضرار فى محجر العينين إذ مرّ المحنط من خلال جيوب الفكين بدلاً من أن يسلك تجويفى الأنف، الذى سيصبح الأسلوب الشائع فى ظل الدولة الحديثة. وكما نرى فقد أحرز فن التحنيط تقدماً ملحوظاً، بعد أن تم الإحاطة بعناصره الأساسية، وإن لم تطبق بصورة منتظمة.

لقد وصلتنا مومياء سالمة من الأسرة الحادية عشرة، وهو أمر غير معهود، إنها مومياء أحد النبلاء المدعو «واح» الذى كان يعيش فى عهد «مونتوحوتپ» الثالث. كانت

المومياء تبدو على هيئة لفة ضخمة، إذ كان الجسد ملفوفاً بكمية كبيرة من نسيج الكتان (مجموعه الكلى ٣٧٥ متراً مربعاً!) ولم تلتقط لها صور بالأشعة إلا بعد وصولها إلى متحف المتروپوليتان Metropolitan Museum بوقت طويل. وكشف هذا الفحص عن وجود حلىّ وتمائم بأعداد كبيرة إلى جانب فأر وسحلية استقرت عن طريق الصدفة وسط طيات اللفائف. وعلي كل حال، فإن الجسد الذى كان فى حالة جيدة من الحفظ قد استخرجت أحشاؤه الداخلية.

وتعود مستلزمات خبيئة المحنط التى عثر عليها فى منطقة طيبة إلى نفس العصر، وكانت تضم مخلفات تحنيط المدعو «إيپى». وتتكون من أقمشة، ونطرون وزيوت إلخ... وهى أشياء، كانت تعتبر نجسة لأنها لامست الجسد، ومن ثم كان من الضرورى دفنها على مقربة من المتوفى وليس معه.ومن ناحية أخرى، كان المقصود بذلك الحيلولة دون استخدام هذه البقايا فى غايات سحرية، يمكن أن تشكل ضرراً ما. ومن ضمن ما عثر عليه فى هذه الخبيئة، مائدة للتحنيط، وهى عبارة عن سرير تحمله أربع قوائم. وكانت كل «السوائل» والبقايا المسحوقة قد وضعت فى ٦٧ وعاء من الطين المحروق. وقد عثر على مستودع من نفس النوع، على مقربة من مقبرة «توت عنخ آمون»، قبل سنوات من اكتشافها، وهو ما كان ينبغى أن يرشد علماء الآثار...

وبالطبع، لم تكن معالجة جميع الأفراد على نفس القدر من العناية، لاسيما سواد الشعب. إن أجساد جنود «مونتوحوتپ» الثانى الستين، وكانوا قد لقوا حتفهم فى ساحة المعركة ثم دفنوا فى الدير البحرى، قد دثرت فى قماش، وان لم يحنطوا وفقاً للأساليب المعتادة. وبسبب كمية الرمال الكبيرة العالقة بالأجساد يراودنا الظن أن الرمال قد استخدمت كوسيلة لاستخلاص السوائل منها، وهو ما قد يفسر ان المصريين كانوا يدركون مدى تأثيرها.

وفى ظل الأسرة الثانية عشرة، كانت عادة استخراج الأحشاء من الممارسات المعروفة، وإذا لم يصلنا عن هذه الفترة سوى القليل من المومياوات، فإن انتشار الأوانى الكانوپية فى المقابر، لخير شاهد على ذلك. وقد اتخذت هذه الأوانى الشكل الذى ستحافظ عليه على امتداد ألفى سنة: إنها أوانى بيضاوية الشكل، وغطاؤها على هيئة رأس آدمى يتخذ فى بعض الحالات صورة المتوفى. وفيما بعد سوف تتخذ هذه الأغطية هيئة أبناء حورس الأربعة. وعلينا أن نتذكر أن كل ابن من هؤلاء الابناء كان مكلفاً بحماية أحد الأعضاء: كان «إيمست» ذو الرأس الآدمى يسهر على الكبد، و «حاپى» ذو رأس القرد على

شكل (٧)

الرئتين، و «دواموت إف» ذو رأس ابن آوى على المعدة، و «قبح سنو إف» ذو رأس الصقر على الأمعاء. إن إطلاق اسم الأوانى الكانوپية على هذه الأوانى هو اختيار سيء جداً: ويعود الى تقليد يونانى مرتبط بالملاح «كانوپوس»، الذى ساد الإعتقاد أنه كان يعبر على هيئة إناء ذى رأس آدمي. ولنعد إلى الأذهان ان شمپوليون هو الذى توصل الى معرفة فيما كانت تستخدم هذه الأوانى فى حقيقة الأمر. ففى ١٢ نوفمبر ١٨١٨ بينما كان يفحص محتوى إناء كانوپى، كتب يقول:

الشىء ملفوف بنسيج...

الشىء طوله ٤ بوصات وعرضه بوصتان

طبيعة حيوانية واضحة جداً

نسيج ليفى

بالموقد : رائحة حيوانية

تصلب الجزء الحيوانى

وغليان البلسم وتحوله إلى فحم أسود

موجود فى قا ع الإناء...

إنه كبد أو مخ أو مخيخ...

(نقلاً عن H.Hartleben, Chanpollion. 121-124)

وفى متحف منشستر، تم فى عام ١٩٠٦، فحص مومياءين من الأسرة الثانية عشرة. لقد تحول الجسدان من الناحية العملية إلى مجرد هيكلين عظميين، ولكن احشاءهما الداخلية كانت قد استخرجت (كانت الأحشاء موجودة فى أوانى كانوپية). كان جلد أطراف الأصابع قد قطع وربط حول الأظافر لتجنب سقوطها : وهو أسلوب سيعمم فى الدولة الحديثة.

ويبدو أن المصريين قد اعتنوا فى هذا العصر إلى حد كبير بمظهر المومياء. فقد استخدموا على سبيل المثال «مواد تعويضية مصرية» من الكتان ليعيدوا الى محجر العين شيئاً من حجمه، أو القطائل فى فتحتى الأنف، وهى من الكتان أيضاً، لتجنب هبوط الأنف

ولو جزئياً، وتم التخلى عن إعداد القوالب الجصية وتصوير ملامح الوجه على الشرائط وقد كان كلاهما معمولا بهما فى ظل الدولة القديمة. ومن ناحية أخرى، فقد شاع استخدام الأقنعة الجنائزية. وتصنع هذه الأقنعة فى المعتاد من أقمشة مشبعة بالجص، مذهبة فى أغلب الأحيان، أو ملونة باللون الأصفر تقليداً للذهب، وهو «لحم الآلهة» وهو ما يشكل اذن اسلوبا للإرتقاء الى مرتبة الآلهة. ومن سمات بعض هذه الأقنعة، انها تمثل رجالاً لهم لحية مستعارة وشارباً، الأمر الذى يدفعنا الى الظن بأن الرجال فى مصر ولفترة قصيرة دون شك، قد أرخوا لحيتهم وشاربهم، على عكس العرف السائد فى باقى العصور. إن وضع التمائم بين طيات اللفائف، الأمر الذى يشكل أسلوباً لحماية المتوفى، لم يكن على ما يرجح قد بلغ الطابع المنتظم الذى سيتخذه فى ظل الدولة الحديثة.

(٣) الدفنات فى ظل الدولة الوسطى

من الآن، أصبح الوضع الممدد هو القاعدة. وغالبا ما يسجى المتوفى داخل التابوت على جانبه الأيسر، وقد اسند الرأس والرقبة على مسند للرأس، قد تدون عليه بعض التعويذات السحرية للحماية وتستعيد التوابيت الأنماط التى سادت فى ظل الدولة القديمة، وإن كانت صنعتها أفضل، والألواح الخشبية أطول وأكثر إتقاناً. وكانت التوابيت الموجودة فى مقابر الأثرياء مزخرفة في الداخل كما فى الخارج. فعلى السطوح الخارجية أفاريز تمثل القرابين و «ممتلكات» المتوفى وشرائط تمتد أفقياً ورأسياً محملة بكتابة هيروغليفية وعلى الجانب الأيسر، موضع الرأس، رسمت عينان (وهما عينا «حورس» اللذان يفترض انهما تضمنان حماية المتوفى) يقترن بهما فى الغالب واجهة القصر ببابها. إن وجود العينين أمام وجه المتوفى، كان أمراً ضرورياً. فكان فى وسع هذا الأخير أن «يبصر» بفضل السحر من خلال هاتين العينين وأن «يخرج» من هذا الباب. وبالإضافة الى النصوص ذات الطابع اللاهوتى التى صارت تنقش وتصور من الآن على التابوت، نلتقى بأسماء وألقاب المتوفى. ونعرف أيضاً شخصية بعضهم ونلاحظ أن الأمر لا يتعلق بعلية القوم ولكن أيضاً بموظفين من الأقاليم من كهنة وأطباء وكتبة، وإن كانوا من أصحاب المقام الرفيع.

أما التوابيت الحجرية التى نجدها فى المقابر الملكية أو مقابر الأمراء، فإن سطوحها هى إما ملساء أو على هيئة «واجهة القصر». وفى القليل النادر قد تصور مشاهد من الحياة اليومية، وفى هذا الصدد، نذكر على سبيل المثال تابوت الأميرة «كاويت» فى الدير البحرى.

وقرب نهاية الأسرة الثانية عشرة، تظهر اولى التوابيت التى تتخذ هيئة أدمية. وكانت فى بداية الأمر مجرد «صناديق» خشبية تتخذ هيئة الجسد بطريقة بدائية غير متقنة، لتصبح أكثر اتقاناً اعتباراً من الأسرة الثالثة عشرة. كانت تصنع من الخشب أو بأسلوب الكرتوناچ المثبت على هيكل من خشب، وتشكل بعناية بحيث توحى بتقاطيع الجسد. ويصور الوجه على غطاء التابوت. والزخرف الوحيد ينحصر فى قلادة وفى شريط رأسى، محلًى فى المعتاد بالكتابة الهيروغليفية. ويشكل هذا التابوت تطوراً للقناع المطلى بالجص كما كان يستخدم منذ مطلع الدولة الوسطى. وهذه التوابيت الآدمية الشكل كانت توضع على جانبها الأيسر فى توابيت أكبر، تماماً كما كانت توضع المومياوات مباشرة.

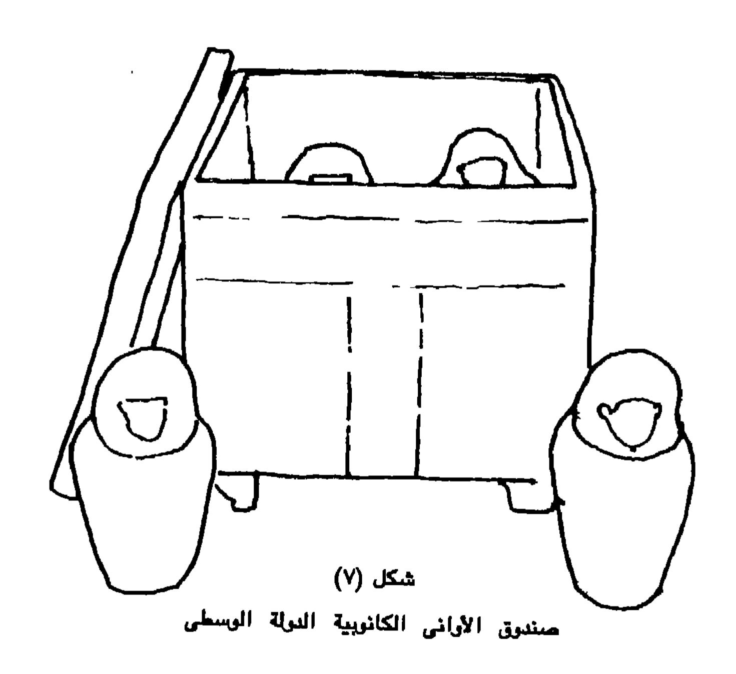
وفى الظاهر ظلت المقابر الملكية القائمة فى دهشور واللشت وهوارة، دون تطور يذكر، لانها احتفظت بشكلها الهرمى. أجل، لم تكن أحجامها تشبه فى شىء أحجام أهرام الجيزة العملاقة. ومستوى تشييدها غير مرض على الإطلاق، نظراً لأن نواة الهرم أصبحت تشيد تدريجياً بالطوب بدلاً من الحجر. وفى المقابل، فإن بناء الحجرات الجنائزية والممرات وتوزيعها الداخلى ازداد تعقيداً على أمل الحيلولة دون وصول اللصوص الى حجرة الدفن، وإن خاب هذا الأمل على الدوام.

وظل الاشراف يدفنون فى مصاطب مشيدة من حجر أو من الطوب بالنسبة لأقلهم ثراء. وهنا أيضاً، نرى أن التوزيع الداخلى للحجرات والممرات الى جانب أساليب الحماية، قد ازدادتا تعقيداً، على غرار المقابر الملكية. ومن ناحية أخرى، نلاحظ انتشار عادة حفر المقابر فى جروف الجبل التى تطل على نهر النيل. كما نجدها فى مصر الوسطى ومصر العليا، فى بنى حسن والبرشا وأسيوط وقاو الكبير وأسوان، إذ اكتفينا بذكر أهمها. وهذه المقابر هى فى الغالب مقابر أمراء، ذات رسم تخطيطى متطور، يذكرنا الى حد ما بالرسم التخطيطى للمعبد بفنائه المكشوف الذى تكتنفه الأعمدة وممر طويل محورى، يتقدمه أو يليه بهو أساطين، ونصل فى النهاية الى الهيكل. ويوجد التابوت فى حجرة تحت الأرض نصل اليها من خلال بئر.

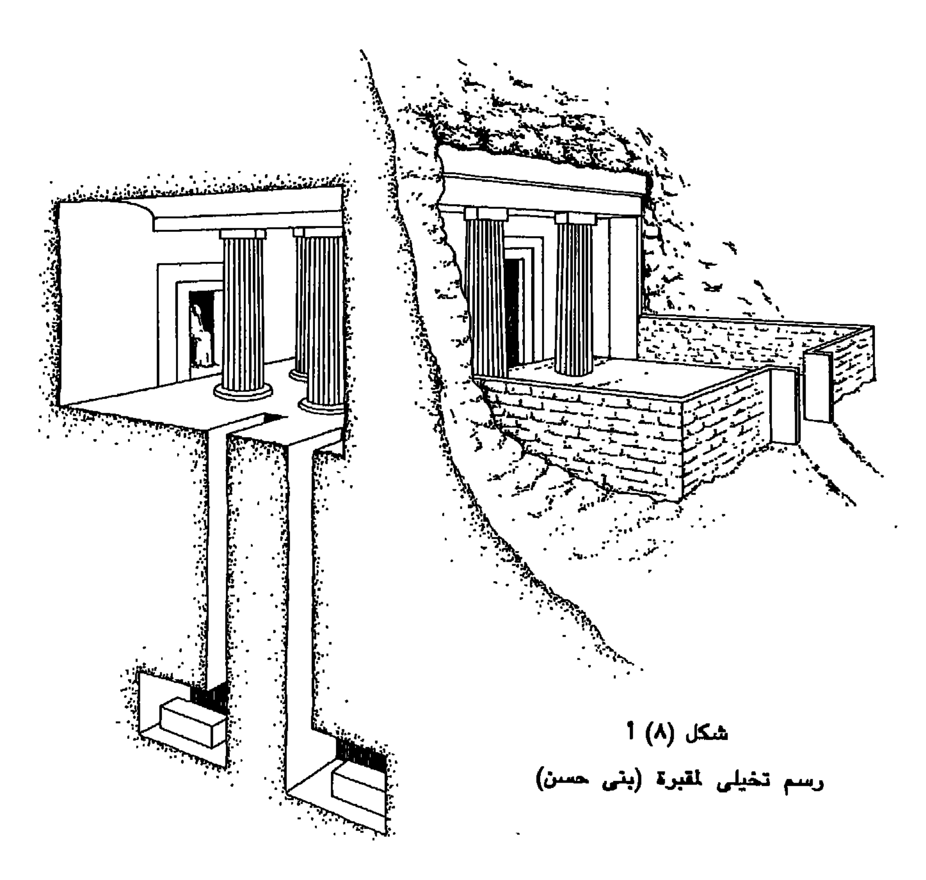
وتزدان بعض مقابر الدولة الوسطى بزخارف منحوتة أو مصورة تسير على هدى تقاليد الدولة القديمة، نذكر منها على سبيل المثال المناظر المنقوشة فى مقبرة «سارنپوت» «فى أسوان، أو رسومات مقبرة «خنوم حوتپ» الثالث في بنى حسن. وظهرت عادة أخذت تعم وتنتشر تمثلت فى وضع نماذج خشبية ملونة تصور مشاهد من الحياة اليومية: مشاهد القصابة وصناعة الجعة وورش النساجين والنجارين.. كما فى وسعنا أن نعثر على مجموعات من الجنود، ومختلف أنواع السفن المحملة بشتى أنواع السلع، بخلاف السفن التى تشير الى رحلة الحج التى يقوم بها المتوفى الى أبيدوس، إن أفضل مثال على هذه النماذج وأكملها نجده فى مشهد حصر القطعان، الذى يحتفظ به متحف القاهرة والذى حصلنا عليه من مقبرة «مكت رع» بالدير البحرى. ونرى أن هذه المشاهد قد حلت محل الزخارف الجدارية التى نشاهدها فى مصاطب الدولة القديمة. ونشاهد فيها كما نشاهد فى هذه الأخيرة طوابير حاملى القرابين، المصنوعين أيضاً من الخشب المغطى بالجص بل انهم يرتدون أحياناً الأقمشة. شكل (٨)

أما منازل الأحياء التى عثرنا عليها فى كثير من الاحيان فى مقابر هذا العصر، فإنها تمثل نماذج من نوع آخر: إنها مصنوعة من الطين المحروق وتصور انماطاً مختلفة من البيوت السكنية. وإذ رأى بعضهم (وكان أولهم «پترى» Petrie) ما بها من قنوات تسريب على غرار القنوات الموجودة فى موائد القرابين، فقد أناطوا بها وظيفة مماثلة وظن آخرون ومنهم «نيوينسكى» Niwinski أنها البديل لهياكل القرابين.

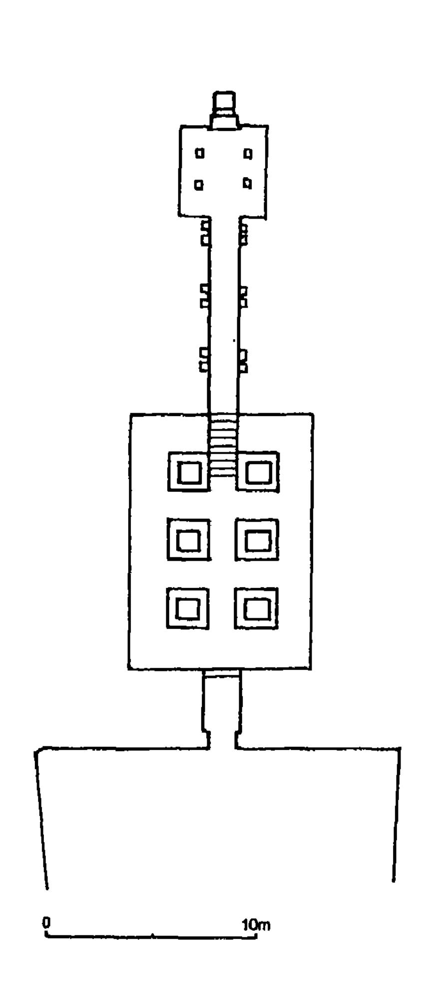
كما ظهرت فى مقابر هذا العصر تماثيل صغيرة لنساء وهى مصنوعة إما من الخشب أو القاشانى أو العاج وقد أطلق عليها خطأً «محظيات المتوفى»، إستناداً إلى أنها مصورة عارية ولها فى الغالب ملامح جنسية مبالغ فيها. وربما كان المقصود بها فى حقيقة الأمر أن تكون رموزاً للخصوبة والتجديد، لاسيما انها وجدت أحياناً فى رفقة أطفال، كما وجدت نماذج منها فى مقابر النساء. أما وظيفة التماثيل الجنائزية الصغيرة فهى مختلفة، وقد سميت فى البداية «شاوپتى» (أو خدم المتوفى) وظهرت عند نهاية الدولة الوسطى. وسوف تنسب اليها القدرة على الحلول مكان المتوفى والإجابة فى العالم الآخر بدلاً منه، ومن هنا جاءت تسميتها الجديدة فأطلق عليها «أوشابتى» (أو «المجيبة» فى اللغة المصرية القديمة). وفى هذا العصر كانت هذه التماثيل الصغيرة بلا أى مدونات. ومع ذلك فقد يحدث أحياناً أن تحمل كتابة تحدد اسم وألقاب مالكها الى جانب تعويذة قربان. وتظل بشكل عام نادرة وقليلة قبل حلول الدولة الحديثة. شكل (٩)



شكل (٧)
صندوق الأوانى الكانوبية الدولة الوسطى

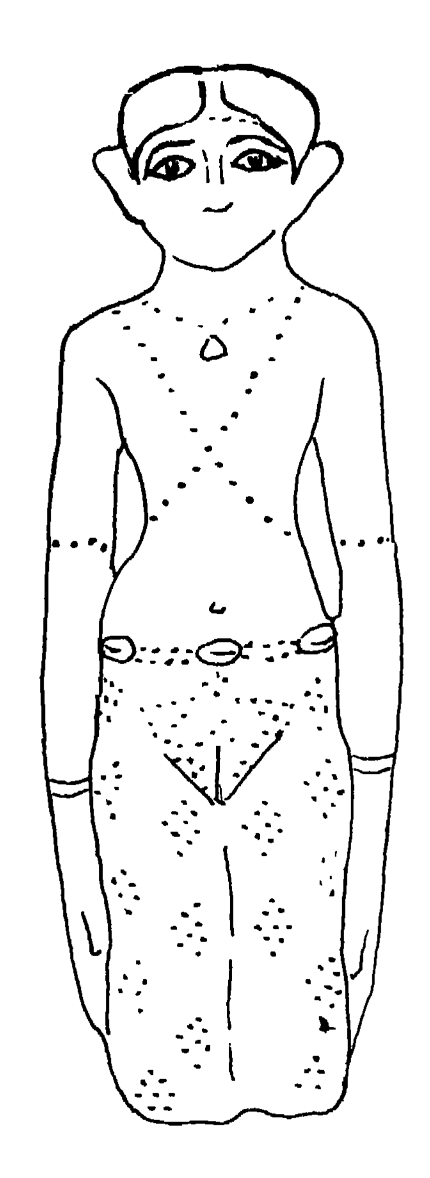


شكل (٨) أ
رسم تخيلى لمقبرة (بنى حسن)



شكل (٨) ب

رسم تخطيطى لمقبرة «سرنپوت» (أسوان)



شكل (٩)

محظيه المتوفى

الدولة الوسطى . طيبه

متحف برلين

ومع ذلك أصبحت التجهيزات الجنائزية، فى مجملها أكثر ثراء وأكثر تنوعاً، فتضم، على حد سواء، أشياء مرتبطة بالطقوس الدينية وبالحياة اليومية، كالحلى وأدوات الزينة أو أشياء ذات استخدام مهني، كما تضم أيضاً الأسلحة.

وعثر فى العديد من مقابر الدولة الوسطى على أشياء ذات طابع متفرد جداً، غايتها حماية المتوفى: عصى سحرية مصنوعة من عاج فرس النهر، حفرت على سطوحها زخارف تمثل كائنات شريرة متنوعة، إلى جانب رموز واقية مثل الضفدع والإله «بس» والإلهة «تاورت». ونذكر مقبرة تم الكشف عنها بجوار معبد الرامسيوم (أهى مقبرة ساحر؟) وتضم أربع عصى سحرية وتمائم وتماثيل لنساء عاريات، وتمثالاً صغيراً لامرأة تمسك بثعابين وصندوقاً صغيراً مليئاً بقراطيس بردى سحرية.

إن مقابر الفقراء هى دائماً مقابر بسيطة، مشيدة بالطوب ومقباة، ويوضع الجسد فى الغالب فى قاع بئر. ولا نلحظ فى واقع الأمر أى تطور منذ الدولة القديمة إذ أن التغيرات قد أدخلت أساساً فى مقابر الأثرياء التى يحاول الفقراء تقليدها فى حدود امكانياتهم.

(٤) متون التوابيت

منذ الدولة الوسطى، والسطوح الداخلية للتوابيت الخشبية تغطى بالمدونات الهيروغليفية: ألا وهى متون التوابيت. إنها مجموعة غير متجانسة من النصوص التى تختلف من منطقة الى أخرى (وإن ظلت بعض النصوص ذات الأهمية القصوى ثابتة، كما هى، فى كل مكان). ومتون الأهرام هى نموذجها الأصلى، ومن هنا لا يمكن تفسير بعض التعويذات، غير المناسبة للأفراد، إلا لأنها كانت أصلاً تخص فرعون. ففى عصر الإنتقال الأول، أخذ الكتبة ينسخون متون المقابر الملكية لأجل أعيان البلاد. إن الغالبية العظمى للتوابيت التى دونت عليها النصوص قد تم الكشف عنها فى المنطقة المحصورة بين إهناسيا المدينة وأسيوط. الأمر الذى يعكس، بلاريب، الأهمية التى اكتسبتها هذه المنطقة فيما بين عصر الإنتقال الأول والدولة الوسطى.

وتضم هذه النصوص عناصر متنوعة جداً: نصوصاً خاصة بحماية جسد المتوفى، وأخرى خاصة بمصير المتوفى، وحصراً بمخاطر العالم الآخر وتعويذات وقائية، و«جغرافية» العالم الآخر... وتشير بعض النصوص إلى قدرات المتوفى فى العالم الآخر:

«السماء ملك لك، والأرض منحت لك، لقد تحدد مصيرك فى «حقل النعيم المزدوج» (مثوى الأبرار) مع «أوزيريس»، سوف تصعد نحو «رع» فى السماء والآلهة المقيمة فيها سوف تطيعك، فقد أعطيت سلطة رئيس أهل الغرب («أوزيريس»)».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية : متون التوابيت : :CT 764, traduction P.Barguet)

ويبدو أن تعويذة من هذا النوع كانت تناسب الملك فحسب، ولكن من الواضح أن كل متوفى من علية القوم كان فى هذا العصر يتمتع بها وتشير بقية النص الى رحلة العالم الآخر:

«إنى أعرف طريق الغرب، إنى أجتاز البحيرة، إنى أعبر قبة السماء، إنى انجو من قاعة الذبح، انى اتجاوز وادى الفيافى، إنى أعبر البلد المقدس، إنى انتعش فى السماء الرطبة. إنى بار».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية: متون التوابيت CT 344, traduction P. Barguet)

ومن الأمثلة الفريدة حقاً، «الخريطة» التى تصور دروب العالم الآخر التى رسمت على سطح من السطوح الداخلية لتابوت، يرجع تاريخه الى الأسرة الثانية عشرة، عثر فى البرشا. وجدير بالملاحظة أن مصير المتوفى، كما تصوره أبناء هذا العصر ينظر اليه من زاويتين : فهو من ناحية رحلة فى المحيط السماوى الى جانب الإله «رع»، وهو من ناحية أخرى، رحلة فى العالم السفلى فى مملكة «أوزيريس».

ويبين النص التالى الى أى مدى كان قدماء المصريين يضعون ثقتهم فى التعويذات السحرية الطقسية :

«ذاك الذى يعرف هذه الكلمة الإلهية، سيلازم «رع» وسط الآلهة فى السماء. سيكون النصر من نصيبه فى كل محكمة يمثل أمامها، ويأكل الخبز فى كل مكان يتوجه إليه، وسيتحول الى كل ما يرنو اليه. حقاً إنها لفاعلية ناجعة».

(نقلاً عن الترجمة الفرنسية: متون التوابيت :CT 651, traduction. P. Barguet)

والعديد من هذه التعويذات تستند الى المعتقدات الشمسية، ولكن أهمية دور «أوزيريس» قد أخذت تتعاظم على مر الزمان. إن الاشارات الى تقطيع أوصاله والى اعادة تشكيل جسده بفضل «إيزيس» كثيرة جداً، كما أن المتوفى الذى يدعى «أوزيريس» «س»، غالباً ما يندمج فيه. كما أن الإلهة «نوت» تلعب دوراً بارزاً جداً حيث انها تصور فى الغالب داخل التوابيت. إن وظيفتها هى أن يولد المتوفى من جديد تماما، كما انها تعمل على أن تولد الشمس من جديد.

وكما نرى فإن مزايا الخلود، التى كانت وقفاً على الملك والمحيطين به، أخذت تنتشر بين طبقات واسعة من المجتمع: وحتى تصل هذه المعتقدات الى النتيجة المرجوة، يتعين بالطبع ان «تدعمها» شعائر جنائزية، وهو ما يعنى تخصيص «أوقاف» لتأمين إقامة هذه الشعائر مادياً (خدمة القرابين). الأمر الذى يفسر من ناحية الأهمية المتعاظمة فى المجتمع المصرى لفئة الكهنة، فالكاهن هو المنوط به القيام بهذه الشعيرة. ومن ناحية أخرى، فإن العائلات الثرية وحدها هى التى فى وسعها أن تتحمل أعباء الوقف.

الفصل الرابع

التحنيط فى ظل الدولة الحديثة

١- عصر الإنتقال الثانى

وبعد الدولة الوسطى عرفت البلاد مرحلة جديدة مظلمة. وقد تميزت بالعودة إلى إنقسام مصر إلى مملكتين. إن إختفاء السلطة المركزية الواحدة قد شجع قبائل قادمة من الشرق الأدنى الآسيوى على الإستقرار تدريجياً فى الدلتا، وأن ينتحل زعماؤها لقب فرعون، ثم انتهى بهم الأمر إلي فرض سيطرتهم على الوجه البحرى بأكمله ووادى النيل حتى شمال طيبة لفترة قرن ونصف أو قرنين. إنهم الهكسوس الذين تم الكشف عن عاصمتهم أواريس فى القسم الشرقى من الدلتا فى تل الضبعة – قنطير. ورغم أن تمصير هؤلاء «الغزاة» قد بلغ حداً كبيراً، فقد جلبوا معهم عاداتهم الجنائزية وحافظوا عليها، كما تشهد على ذلك مقابرهم التى عثر عليها فى تل الضبعة: فالموتى الموضوعون فى حفر مستطيلة قليلة العمق لم يكونوا محنطين وفى بعض الأحوال، كانت الحمير تذبح، بل أمكن العثور على خدم قتلوا عند مدخل مقبرة سيدهم. إن هذا النوع من الأضاحى، مع الدفن على مقربة من مقبرة السيد، لم يكن أبداً ليتفق والتقاليد والأعراف المصرية.

ومن ناحية أخرى، احتفظت مصر بالعادات الجنائزية التقليدية. ومع ذلك فان معلوماتنا حول هذا الموضوع شحيحة نظراً لعدد المومياوات المحدود الذى وصلنا عن هذا العصر المضطرب. إن مومياء الملك «سقنن – رع – تاعا» الثانى التى عثر عليها عام ١٨٨١ فى خبيئة الدير البحرى ضمن المومياوات الملكية للدولة الحديثة، يرجع تاريخها إلى نهاية هذا العصر. إن هذا الملك الذى يحمل فى رأسه اثار جروح كثيرة، كان سبب العديد منها ضربة بلطة، قد لقى حتفه، دون ريب فى ساحة الوغى، وربما في خضم المعركة الفاصلة التى احتدمت بين الهكسوس والمصريين والتى أدت بالضرورة إلى «تحرير» مصر تحريراً نهائياً. وسوف يترك هذا الحدث أثراً عميقاً فى الوعى الجماعى المصرى، لأنه من الآن سيرد ذكر فرعون فى العبارات الرسمية على أنه «محرر» مصر من الهكسوس. ومن

الراجح أن جسد «سقنن رع» قد عولج معالجة متسرعة بسبب ظروف وفاته المأساوية. لقد تم استئصال الأحشاء وحشى الفراغ الباطنى بالقماش، ولكن ترك الرأس بلا أى معالجة. كان الجسد فى حالة يرثى لها فعثر عليه على هيئة هيكل عظمى عليه بقايا من الجلد. إن مومياءً من نفس العصر، عثر عليها «پتري» Petrie فى القرنة، كانت ملفوفة بعدة طبقات من النسيج بعناية فائقه، ولكن الجسد كان قد عولج معالجة غير فعالة (حتى لو افترضنا أنه عولج أصلاً)، إذ لم يتبق منه سوى العظام.

وتظل توابيت هذا العصر محتفظة بشكل صندوق متوازى السطوح، وإن كان الغطاء محدباً فى الغالب. والتابوت الداخلى يتخذ هيئة ادمية وهو مذهب فى الغالب فى مقابر الأثرياء. وفى منطقة طيبة، فإن التابوت الذى على هيئة آدمية، هو من النوع «الريشى»:إنه زخرف متميز يتكون من جناح واحد أو عدة أجنحة تغطى غطاء التابوت. وتذكرنا هذه الأجنحة بأجنحة الإلهتين «إيزيس» و«نفتيس» اللتين تحميان المتوفى، وقد دونت فى وسط الغطاء، بين الأجنحة تعاويذ شعائرية واسم المتوفى. إن نوعية هذه التوابيت هى نوعية رديئة فى الغالب ماعدا توابيت ملوك وملكات الأسرة السابعة عشرة، التى عثر عليها فى دراع أبو النجا، التى تتميز بحسن الصنعة، وهى مذهبة، ومرصعة بعينين.

٢- اكتشاف المومياوات الملكية

ومع أن مزيداً من التطور كان فى انتظار فنون التحنيط مع مطلع المرحلة الإنتقالية الثالثة، فإن الدولة الحديثة هى التى قدمت لنا أبرز نماذج المومياوات وأشهرها: ألا وهى المومياوات الملكية التى تم الكشف عنها على عدة مراحل فى نهاية القرن الماضى. لقد جعلت هذه الاكتشافات من مصر، البلد الوحيد فى العالم الذى يمكننا أن نتأمل كل ملوكه تقريباً خلال مرحلة تصل إلى أربعة قرون، تمتد من ١٥٥٠ إلى حوالى ٩٦٠ق.م.

هذا «المجمع» العجيب يسمح لنا بأن نقف على ملامح السكينة البادية على «سيتى» الأول أو ملامح السلطان البادية على «رعمسيس» الثانى،إذا اكتفينا بالإشارة إلى أشهر تلك المومياوات.

ويعود الإكتشاف الأول إلى عام ١٨٨١ وجاء ليتوج تحقيقات الشرطة التى أمر بها أصلاً جاستون ماسپرو G. Maspero الذى كان مديراً للحفائر (والذى سيصبح فيما بعد مديراً لمصلحة الآثار المصرية) وأمين متحف بولاق. وباشرها بنشاط مأمور شرطة الأقصر. فقد لفت انتباه «ماسپرو» ظهور قطع قيمة جداً فى السوق «الموازية» للآثار جاءت فى المقابر الملكية، كما أثبتت ذلك المدونات التى ذخرت بها (ومن بينها بردية «پاى نجم» الأول). وانصبت شكوكه على أفراد عائلة عبد الرسول المقيمة فى القرنة، ولكن بعد أن استغرقت التحقيقات شهوراً عديدة، دفعت المنازعات العائلية بأحد أفرادها إلى أن يكاشف مدير المديرية بهذا الموضوع. فقبل عشر سنوات، كان الإخوة عبد الرسول قد عثروا فى جبل الدير البحرى على خبيئة تضم عدداً كبيراً من المومياوات والأثاث الجنائزى. وتصرفوا بحذر شديد، فلم يأخذو شيئاً من هذا الكنز سوى ثلاث مرات فى ظرف عشر سنوات. وإذ كان «ماسپرو» غائباً، فقد أوفد الخديوى المفتش أحمد كمال وعالم الآثار الألمانى «بروكش» E. Brugsh (المعاون السابق لعالم المصريات «مارييت») وتمكنا أخيراً من الدخول إلى الخبيئة يوم ٥ يوليو ١٨٨١. واستناداً إلى ما تلقاه «ماسپرو» من تقارير فإنه يصف هذا الكشف على النحو التالى:

اصطحب محمد أحمد عبد الرسول السيدين «إميل بروكش» Emile Brugsch وأحمد أفندى كمال إلى نفس المكان الذى يفضى إلى المقبرة. إن المهندس المصرى الذى حفر فى الماضى هذه الخبيئة قد وفر لها أفضل الإحتياطات. فلا توجد خبيئة قد أخفيت على نحو أفضل.. إن تقرير محمد أحمد عبد الرسول الذى كان يبدو لأول وهلة مبالغاً فيه كان تعبيراً متواضعاً عن الحقيقة: فحيثما كنت أتوقع أن أعثر على ملك أو ملكين من صغار الملوك الخاملى الذكر، كان الأهالى قد كشفوا عن مقبرة مملوءة عن آخرها بالفراعنة. وأى فراعنة! ربما كانوا من أشهر فراعنة تاريخ مصر... وظن السيد «إميل بروكش» أنه كان ضحية حلم إذ وجد نفسه فجأة وسط مثل هذه الجماعة ومازلت أنا شخصياً اتساءل إن كنت حقاً لا أحلم، وأنا أشاهد وألمس ما كان جسد كل تلك الشخصيات التى كان يظن المرء أنه لن يعرف عنهم سوى الأسماء...

وإذ علقت القضية، فقد تم إفراغ محتوى الخبيئة فى ظرف ستة أيام بواسطة ثلاثمئة عامل لينقل إلى الأقصر ومنها إلى القاهرة. وفى المسافة من الأقصر إلى قفط، تصرفت الجماهير بعد أن أحيطت علماً بالمسألة كما فى المواكب الجنائزية، فعند مرور السفينة التجارية التى تحمل الفراعنة أخذ الرجال يطلقون الأعيرة النارية أما النساء فقد تعالت

صرخاتهن تعبيراً عن حزنهن ... إن أربعين مومياءً تعود إلى الفترة الممتدة من الأسرة السابعة عشرة إلى الأسرة الحادية والعشرين كانت قد عادت لترى النور من جديد.

- الأسرة السابعة عشرة: سقنن رع تاعا الثانى

- الأسرة الثامنة عشرة: أحمس، وامنحوتپ الأول، وتحوتمس الأول والثانى والثالث، وسى آمون. وعشر أميرات وملكات من بينهن أحمس نفرتارى.

- الأسرة التاسعة عشرة: سيتى الأول ورعمسيس الثانى

- الأسرة العشرون: رعمسيس الثالث ورعمسيس التاسع.

- الأسرة الحادية والعشرون: پاى نچم الأول والثانى. وجد بتاح إيوف عنخ وثمانى أميرات وكبيرات كهنة ومنهن «حنيت تاوى».

- إلى جانب ثمانى مومياوات مجهولة الصاحب.

وبعد عشرين عاماً اكتشف فيكتور لوريه Victor Loret ، مدير مصلحة الآثار المصرية مقبرة امنحوتب الثانى فى وادى الملوك: كان الملك لايزال راقداً فى تابوته، وإلى جانبه القوس الذى تروى القصص أنه لم يكن بوسع أحد سواه أن يستخدمه. وسمحت أعمال التنقيب فى المقبرة بالعثور فى حجرتين جانبيتين على خمس عشرة مومياء أخرى، ومنها على ما يعتقد عشر مومياوات ملكية كانت مجهولة حتى الآن وجملة ماقدمه هذا الكشف الجديدة:

- الأسرة الثامنة عشرة: امنحوتب الثانى والثالث وتحوتمس الرابع وتى (؟)

- الأسرة التاسعة عشرة: مرنپتاح وسيتى الثانى وسى پتاح وتاوسرت (؟)

- الأسرة العشرون: رعمسيس الرابع والخامس والسادس.

- خمس مومياوات مجهولة الصاحب.

وأدرك «لوريه» أنه كان قد كشف عن خبيئة شبيهة بخبيئة الدير البحرى وتسمح عمليا باستكمال قائمة فراعنة الدولة الحديثة. وسمحت له دراسة المدونات الواردة على الشرائط بالتحقق من أن إعادة دفن هذه المومياوات كانت معاصرة لإعادة دفن مومياوات خبيئة الدير البحرى. وبالفعل، ففى زمن الكاهن الأكبر والفرعون «پاى نچم» حول عام ٩٦٠،

ولمواجهة انتشار عمليات السرقات التى اجتاحت المقابر الملكية، قرر الكهنة تجميع الأجساد، وبعد إعادة لفها بالشرائط على أحسن وجه، قاموا بإخفائها بطريقة آمنة فى أماكن مختلفة من جبل طيبة: فلنذكر قصة طريفة تتعلق بمحنة هذه المومياوات البائسة: فعند وصولها إلى القاهرة، لم يعرف المسئولون تحت أى بند تندرج هذه «السلعة» الغريبة لتقدير رسومها، فسجلت على أنها «سمك مجفف».

وفى عام ١٩٠٧، اكتشف «ويجال» A. Weigall و «ايرتون» E. Ayrton فى وادى الملوك المقبرة (رقم ٥٥) وقد ختم بابها بخاتم «توت – عنخ – آمون». ومازالت المومياء التى عثر عليها فى حجرة الدفن تثير مشاكل حول التعرف على صاحبها، ومن المحتمل أنها لأحد أفراد أسرة «إخناتون». ربما مومياء «سمنخ كارع» شقيق توت غنخ آمون أو ربما «كيبا» (إحدى زوجات أخناتون). إذ يصعب علينا بسبب الوضع الراهن لرفات المومياء أن نحدد جنس صاحبها بشكل قاطع، وعلى كل حال، فإن فصيلة دم المومياء هى نفس فصيلة دم «توت عنخ آمون».

وفى وقت لاحق أيضاً، فى عام ١٩٢٢، جاء اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» الذى طبق صيته الآفاق، ليضع فى الصدارة ملك من ملوك الدولة الحديثة، ظل حتى تلك اللحظة مغموراً لانعرف عنه سوى القليل. ولأول مرة، يعثر العلماء على محتويات مقبرة ملكية كاملة فى واقع الأمر، وبصفة خاصة محتويات حجرة الدفن التى لم يقترب منها أحد. تطلب الأمر من «هوارد كارتر» أن يعمل على امتداد مالايقل عن أربع سنوات، قبل أن يتمكن من فتح المقاصير الذهبية التى تحتوى على تابوت الملك.

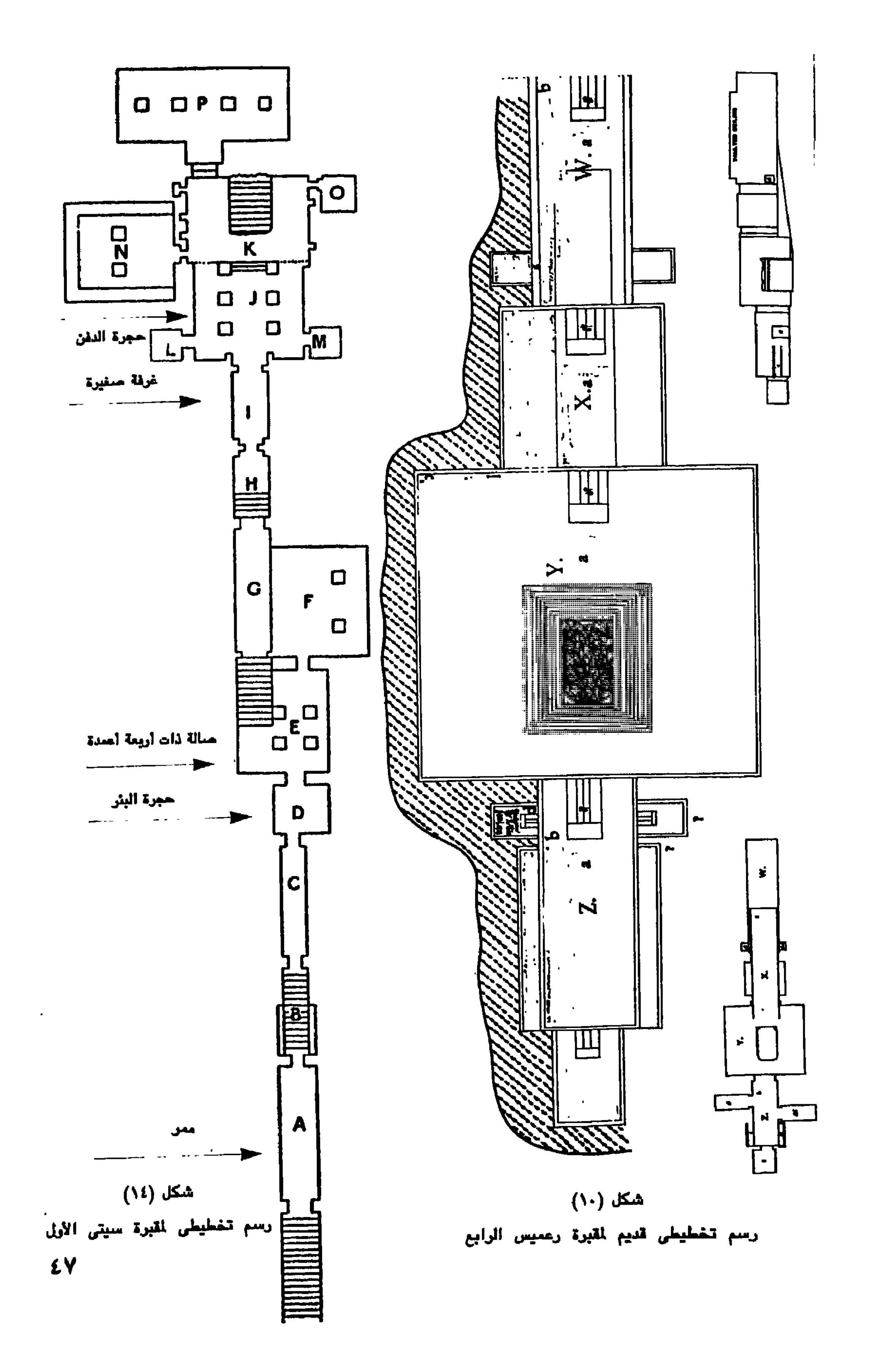
... كنت فى غاية الإضطراب، وفتحت مزاليج الباب الأخير لآخر مقصورة من الخشب المذهب والتى لم تكن مختومة. وفتحت ببطء. وشاهدنا التابوت الضخم المصنوع من الكوارتزيت يملأ المقبرة بأكملها. كان سالماً، كما لو أن أيديا ورعة قد أغلقته لتوها. ياله من مشهد رائع لاينسى، يبرز جماله ضياء الأشياء الذهبية! عند أقدام التابوت، كانت إحدى الآلهات تمد يديها وجناحيها فى حركة حامية وكأنها تريد ابعاد الدخلاء....

ولاريب أن بطء سير العمل يرجع فى جانب منه إلى ضخامة عدد القطع المطلوب جردها والفوضى الشاملة التى خلفها اللصوص وراءهم. ولكن علينا أيضاً أن نأخذ في الحسبان ضرورة تقوية بل وترميم هذا العدد الكبير من القطع التى أصبحت هشه جداً بعد أن ظلت ٣٣٠٠ عام فى المقبرة. إن قسماً من هذه الأشياء كان له وظيفة شعائرية بحتة ولكن قسماً آخر، يضم أثاثاً وأسلحة وثياباً، ربما كان الفرعون قد استخدمها أثناء حياته.

إن القيمة العظيمة لهذه المجموعة ونوعيتها الرفيعة تبين بوضوح المستوى التقنى والفنى الراقى جداً الذى بلغه صاغة وحرفيو هذا العصر. وإذ نترك العنان لخيالنا يمكننا أن نتصور الكنوز التى كانت تضمها مقابر الفراعنة العظماء والأثرياء من أمثال تحوتمس الثالث أو رعمسيس الثانى. ان اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» لهو حدث على قدر كبير من الأهمية، لأنها توفر لنا أفضل مثال على دفنة الملوك فى أوج قوة مصر.

كان تابوت الكوارتزيت تضمه أربع مقاصير من الخشب المذهب الواحدة داخل الأخرى. وسمح هذا النظام بإلقاء الضوء على بردية متحف تورين التى تصور رسماً تخطيطياً لمقبرة رعمسيس الرابع وتفسرها تفسيراً سليماً. أما تابوت الكوارتزيت فكان يضم بدوره ثلاثة توابيت الواحد داخل الآخر. التابوتان الأولان من الخشب المذهب المكفت بالقيشانى وعجينة الزجاج. أما التابوت الأخير فكان من الذهب المصمت ويزن ١١١٠ كيلو جراماً بالتمام والكمال! كانت هذه التوابيت على هيئة آدمية، والملك فى وضع أوزيرى ممسكاً العصا «حقا» وسوط «أوزيريس». ولم تنته المفاجآت عند هذا الحد، حيث ان فتح التابوت الآخير قد كشف عن قناع جنائزي من الذهب المصمت (٤٠ كجم) وكانت صياغته آيه فى الجمال، وقد وضع على المومياء مباشرة. وكان التابوت الثانى مغطي بالكامل بقماش رصت عليه أكاليل الزهور وتاج التبرير وهو أيضاً من الزهور الطبيعية وكان موضوعاً على الجبين. وقد وضعت أيضاً قلادة كبيرة من الزهور والخرز على صدرية التابوت الثالث. وترتب على فك أربطة المومياء العثور على عدد ضخم جداً من الحلى والتمائم القيمة جداً. أما فيما يتعلق بالمومياء ذاتها، فكان الأمر مختلفاً ومخيباً للآمال إلى حد ما، لأن الكمية الكبيرة من الأدهان، قد «أحرقتها»، بكل معنى الكلمة. كانت فى حالة سيئة جداً، وقد اسودت تماماً نتيجة مواد التحنيط. كانت أصابع الرجلين واليدين داخل أغلفة من ذهب. كان الملك قد توفى وهو فى ريعان الشباب، ويتراوح عمره بين ١٧ و ١٩ سنة، ولكن فحص المومياء لم يساعدنا على تحديد سبب الوفاه. شكل (١٠)

لقد استأثرت دراسة المومياوات الملكية باهتمام العلماء منذ أن تم الكشف عنها. فقد نشر «ماسپرو» و «بروكش» منذ خريف ١٨٨١ آلبوماً فوتوغرافياً للمومياوات التى تم الكشف عنها فى الدير البحرى. وأصدر إليوت سميث Elliot Smith عام ١٩١٢ أطلساً يضم صوراً فوتوغرفية وأوصافاً لمجموعة المومياوات الملكية التى يحتفظ بها متحف القاهرة. وفى عام ١٩٦٧ انتهى «هاريس» Harris من فحص المومياوات بالأشعة فحصاً متعمقاً، وأصدر عام ١٩٧٣ بالتعاون مع «ويكس» K. Weeks كتاب «الفراعنة بالأشعة



شكل (١٤)
رسم تخطيطى لمقبرة سيتى الأول

شكل (١٠)
رسم تخطيطى قديم لمقبرة رعميس الرابع

السينية «X Raying the Pharaohs . ثم عام ١٩٨٠ بالتعاون مع «ونت» E. Wente «أطلس المومياوات الملكية بالأشعة السينية» X. Ray Atlas of th Royal Mommies ..
ومؤخراً، ثم فحص العديد من المومياوات الملكية بالأشعة من جديد، بهدف تحديد بعض المعلومات. وكانت مومياء رعمسيس الثانى التى نقلت إلى فرنسا عام ١٩٧٦ محل دراسات مستفيضة وترميم متقن.

وبحلول الدولة الحديثة، أصبحت مومياوات الأشراف وكبار الشخصيات أكثر عدداً وتطورت نوعيتها أسوة بمومياوات الفراعنة. ومن الأمثلة الطيبة الزوجان «يويا» و «تويا» والدا الملكة «تيتى»، زوجة «أمنحوتب» الثالث. لقد احتفظت هاتان المومياءان إلى حد كبير بمظهر الشخص الحى وتشهدان على المستوى الذى وصل إليه فن التحنيط فى ذلك العصر. وكان استخراج الأحشاء الداخلية هو القاعدة بالنسبة للمومياوات التى نالت أفضل معالجة. وينبغى أن نلاحظ تغير مكان الفتحة التى تستخرج منها الأحشاء الداخلية: فبعد أن كانت رأسية فى بداية الأمر، عند مستوى الخاصرة اليسرى، أصبحت هذه الفتحة اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة موازية للخط الحرقفى العانى الأيسر. كما انتظمت عملية تفريغ الجمجمة وفقاً لمنهج ثابت: وأصبحت تتم فى المعتاد عن طريق العظمة المصفاوية.

وإذ ظلت المومياوات دائما فى وضع ممدد، إلا أنها حافظت على أوضاع متنوعة فيما يخص الأطراف العليا: فقد توضع على امتداد الجسد، وتلتف الراحتان حول الفخذين أو توضع فوق الأعضاء التناسلية (بالنسبة للرجال). ويرتبط وضع الساعدين متقاطعين فوق الصدر بالتصور الأوزيرى. فتلتف اليدان حول الكتفين، فى حين أن الراحتين فى حالات أخري، قد وضعتا بكل بساطة فوق القفص الصدرى.

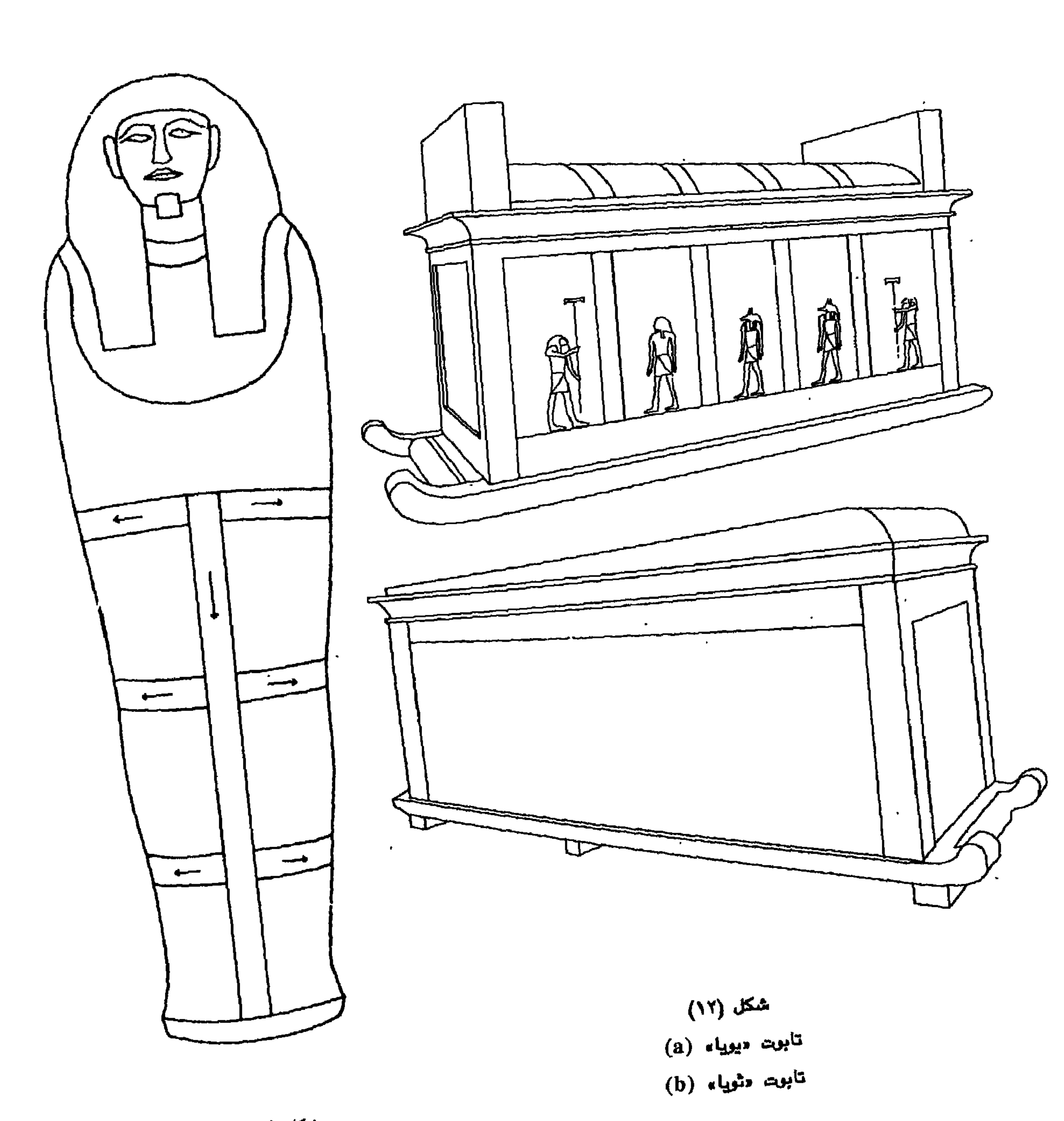
وفى ذلك العصر، شهدت عملية التحنيط انتشاراً أوسع. وهو ما يبرهن عليه اكتشاف «جفرى مارتن» Geffrey Martin فى سقارة، فقد عثر فى مقبرة الأميرة «تيا» شقيقة رعمسيس الثانى على دفنة لأحد رجال البلاط وهو «يورودف». وكانت هذه الدفنة قد أحرقت، بعد دفن «يورودف» بوقت قصير، على ما يبدو لافساح المكان لشاغلين جدد. هكذا تم العثور على ٧٥ مومياء ترجع إلى الدولة الحديثة، من بينها العديد من مومياوات الأطفال.

٣- تجهيز المومياء

صار استخدام توابيت على هيئة آدمية، هو القاعدة، فى ظل الدولة الحديثة، ولكن كانت زخارفها شديدة التنوع. كانت فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة بسيطة نسبياً وضخمة، وتصور مومياء مدثرة فى الأربطة وتحمل قناعاً. ورسمت على الغطاء أشرطة تقلد الأربطة، باللون الأبيض فى المعتاد، وتشكل خلفية تدون عليها النصوص. وفى وقت لاحق، اقتربت هذه التوابيت، أكثر فأكثر، من الشكل الآدمى، فيمثل القناع فى الغالب حاجبين وهو مرصع بعينين من عجينة الزجاج واليدان منحوتتان بالنحت البارز، وعلاوة على ذلك، أضيفت بين الأربطة، صور توضيحية لمشاهد من العالم الآخر، لتستكمل الجانب الزخرفى. ونذكر على سبيل المثال تابوتى «يويا» و «تويا» (فى عهد أمنحوتب الثالث). وفيما بعد أيضاً، ازدادت المساحة المخصصة للنصوص ووزعت العناصر الزخرفية على صفوف ولوحات تمثل مختلف المواضيع الميثولوجية، نذكر منها الإلهة «نوت»، و «إيزيس» و «نفتيس» وهما تعانقان أويزيرس، وأبناء «حورس»... وفى بعض الأحوال يمكن أن يصور المتوفى على التابوت مرتدياً الملابس التى كان يرتديها فى الحياه اليومية: تلك هى حالة «سن نجم» وزوجة ابنه السيدة «ايزيس» (الأسرة التاسعة عشرة).

وحسب ثراء المتوفى، فإن الأغلفة التى تحيط به تزداد أو تقل من حيث العدد والإتقان ويبدو أن كل فرعون كان له ثلاثة توابيت على هيئة آدمية، والأخير الذى يضم الجسد كان من الذهب المصمت كما في حالة «توت عنخ آمون»، فى حين كان الآخران من خشب الأرز المغطى بصفائح من ذهب وعناصر زخرفية من عجينة الزجاج. كانت هذه التوابيت الثلاثة المتراكبة موضوعة فى تابوت حجرى يحتويه بدوره عدد من المقاصير المصنوعة من الخشب المذهب (بالنسبة لـ «توت عنخ آمون» وربما أيضا بالنسبة للفراعنة الآخرين، الأمر الذى قد تبرهن عليه البردية التى توضح الرسم التخطيطى لمقبرة رعمسيس الرابع). ومن المؤكد، بلاشك، أن كل هذه التجهيزات كانت وقفاً على الملوك، ولكن كان بعض الأثرياء يملكون فى الغالب ثلاثة توابيت موضوعة فى تابوت ضخم قد يكون من الحجر أو من الخشب. إن التوابيت الملكية الضخمة هى دائماً من الحجر، فقد تطور شكلها من أبسط الأنواع، المماثلة لتوابيت الدولة الوسطى، أى أن جانبها وغطاءها كانت مسطحة، لتنتهى إلى أشكال أكثر تعقيداً، كأن يكون الغطاء محدباً مثلا. فتابوت رعمسيس الثالث الضخم على سبيل المثال هو على هيئة خرطوش. والحجر المستخدم بالنسبة للفراعنة هو الكوارتزيت أو الجرانيت

شكل (١٢)



شكل (١٢)

تابوت «يويا» (a)

تابوت «ثويا» (b)

شكل (١١)

تابوت على هيئة انسان

أيضاً. إن الزخارف هى واحدة على الدوام فى واقع الأمر، فتصور العينان «واچات» على الجانب الأيسر، والإلهة «إيزيس» ناحية الرأس، والإلهة «نفتيس» ناحية القدمين. أما النصوص فهى عبارة عن مقتطفات من متون التوابيت (أو الأهرام). وتدريجياً ستحل محلها تعويذات جديدة تعرف باسم كتاب الموتى، وبدورها سيتم نسخها على البردى بالنسبة للأفراد.

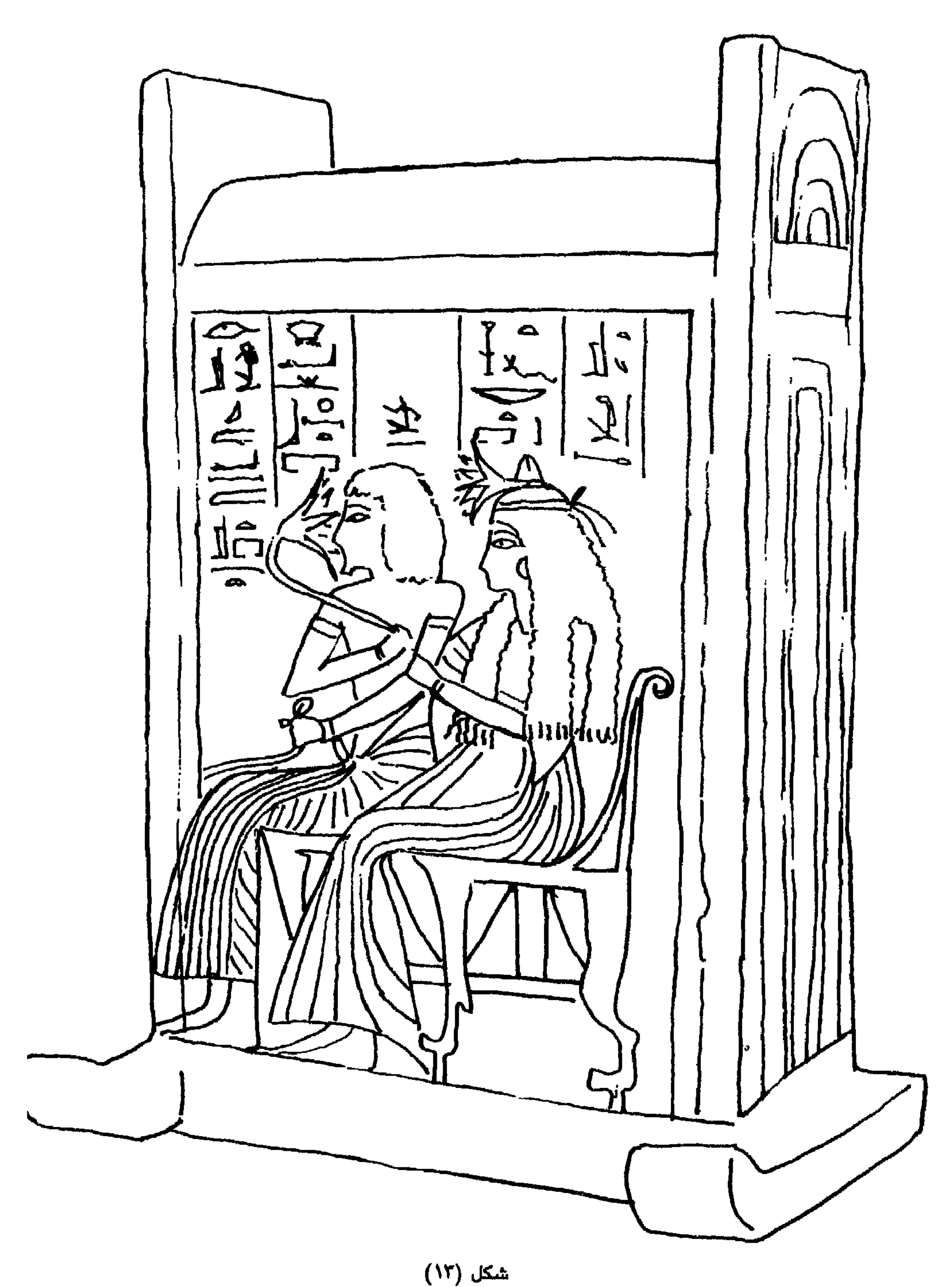
وعند نهاية عصر العمارنة يظهر طراز جديد من التوابيت، وقد صور عن أركانه الأربعة بالنحت البارز أربع آلهات مجنحة هى «إيزيس» و «نفتيس» و «نيت» و «سلكت». إن تابوتى «توت عنخ آمون» و «حورمحب» هما خير نموذجين لهذا الطراز.

وفى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، كانت التوابيت الضخمة مصنوعة من الجرانيت فى المعتاد. ومن الممكن أن تنحت صورة الملك على سطح التابوت. (مثل تابوت مرنپتاح). وتزداد مساحة المدونات وهى أكثر تنوعاً من من ذى قبل، ومنقولة عن مصنفات لاهوتية جديدة مثل كتاب البوابات.

٤- الأثاث الجنائزى

وإذ ظلت عمليات سلب ونهب المقابر فى مختلف الأزمنة، «رياضة وطنية» حقيقية، فإن القليل من المقابر قد وصلتنا سالمة. وحتى مقبرة «توت عنخ آمون» الشهيرة «زارها» اللصوص مرتين. وربما كان تشييد مقبرة «رعمسيس» السادس القائمة فوقها على وجه التحديد، هى التى حمتها عندما غطت مدخلها بالردم والركام. ورغم كل شىء فإنها توفر لنا مثالاً طيباً لما كان من الممكن أن تضمه مقبرة ملكية من أثاث. فإلى جانب الأشياء ذات الطابع الشعائرى فإنها تتكون من العديد من الأشياء التى تعود إلى الحياة اليومية.

ويضم الأثاث الجنائزي مجموعة رائعة من تماثيل الأوشابتى المصنوعة من خشب الأرز أو من الخزف. وينقسم صندوق الأوانى الكانوبية المصنوع من الألبستر إلى أربع خانات ويحتوى على الأوانى الكانوبية التى تجسد أغطيتها صورة الملك، وتضم الأوانى بدورها توابيت صغيرة على هيئة مومياء من الذهب المصمت وضعت فيها الأحشاء. وقد وضع صندوق الأوانى الكانوبية بدوره فى مقصورة من الخشب المذهب وقد وضع كل وجه



شكل (١٣)

صندوق «اوشابتى»

للمدعو «خع باكنت» وزوجته «ايزيس» الدوله الحديثة

متحف كوبنهاجن

من وجوهها الأربعة تحت حماية إلهة (إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت). كما توجد تماثيل معظمها من الخشب المذهب تصور إما بعض الآلهة (أنوبيس أو حتحور أو إيحى) أو الملك شخصياً فى أوضاع مختلفة أو بشارات متنوعة. والعديد من الأسرة المزدانة برأس أسد أو بقرة أو فرس النهر هى أسرة جنائزية على نحو خاص، فى حين أن سريراً يطوى، كان من المحتمل أن الملك قد استخدمه أثناء حياته. ويذكرنا وجود عدد من نماذج السفن برحلة الحج التى كان من المفترض أن يقوم بها الملك المتوفى بعد وفاته. كذلك، عثر على قرابين غذائية، لها مقاصد شعائرية، وقد وضعت بعضها فى صناديق اتخذت شكل محتواها (من فخذ وأوز وما شابه ذلك...).

وكان هناك أشياء أخرى مرتبطة بالوظيفة الملكية، دون أن يكون لها طابع جنائزى، نذكر منها المقاعد أو العروش، والصندوق الملون الذي يصور الفرعون فى مشاهد الصيد أو الحرب، ومركبات الإحتفالات (التى لم تستخدم) والمذبة والعصى والصولجانات...

وأخيراً، فإن العديد من الأشياء لها علاقة واضحة بالحياة اليومية للملك، فكان بعضها قد تم استخدامه بالفعل، فى حين صنع البعض الآخر على ما يعتقد ليوضع فى المقبرة. ونقصد بذلك أثاثاً مثل السرير السفرى (المطوى) أو مختلف المقاعد والصناديق والألعاب («سنت») وملابس كل يوم أو الإحتفالات، والنعال والشعور المستعارة. وقد وضعت حلىّ فى صناديق. وهى خلاف الحلىّ التى وجدت على المومياء. ومن الراجح أن عدداً منها قد سرق، إذ وجد بعضها على أرضية المقبرة، فقد فقدها اللصوص، إذ جاء من ازعجهم أثناء سطوهم. كما عثر أيضاً فى المقبرة على أسلحة ومنها خنجر نصله من حديد، وهو معدن نادر جداً فى هذا العصر، و«عصى الرماية». وبالطبع، لم تكن مقابر الأفراد تحتوى على مثل هذه الثروات. ومع ذلك فإن مقبرة المهندس «خع» التى عثر عليها سالمة فى دير المدينة عام ١٩٠٦ وترجع إلى حوالى عام ١٤٠٠ق.م، قد امدتنا بتجهيزات جنائزية على قدر كبير من الأهمية (وهى محفوظة حالياً فى متحف تورين). ومن بين هذا الأثاث نذكر على سبيل المثال أسرة جنائزية لها أقدام أسد، ولها ملة مصنوعة من ألياف نباتية مجدوله. أما سرير «مريت» زوجة «خع» فكان مفروشاً بملاءات، وحرام ذى أهداب ومسند رأس تم لفه بنسيج ليصبح أوفر راحة! كما تم العثور على أثاث آخر، نذكر منه المقاعد، ومنها مقعد يطوى، وموائد صغيرة منها واحدة مصنوعة من الخيرزان. وكان لايزال عليها أرغفة خبز والعديد من الصناديق الصغيرة تضم أشياء للزينة وبعض البياضات والشعر المستعار لـ «مريت». كانت التوابيت الضخمة مغطاه بأغطية كبيرة ووضعت كميات كبيرة من الأقمشة

فى صناديق: سراويل وشيلان ونقاب العورة وأغطيته وسجاجيد... وكان «صندوق خياطة «مريت» لازال يحتوى على إبر الخياطة. وكانت أدوات الأكل كثيرة جداً: كانت جرار ضخمة مزخرفة أولا، تحتوى على مواد غذائية (لحم مملح ونبيذ ودقيق) وأوان صغيرة من الطين المحروق، أو القاشا نى أو الألبستر، تحتوى زيوتاً عطرية وكحلاً. وكانت السلال فى حالة جيدة من الحفظ وهى مصنوعة فى المعتاد من السعف أو الأسل المجدول. وأخيراً، ومن أدوات «خع» المهنية، نذكر أدوات قياس الطول بالذراع، منها قياس يطوى، وجراب ميزان وبلطة وأزميل.

ومن الملاحظ، أن الأثاث الجنائزى قد تطور فيما بين الأسرة الثامنة عشرة والأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين: فقد تزايدت نسبة الأشياء الجنائزية على نحو خاص تزايداً كبيراً بالمقارنة مع الأشياء التى تخص الحياه اليومية. وبينما كان المصريون فى أيام الأسرة الثامنة عشرة يضعون فى المقابر كمية كبيرة من الأثاث وأدوات الزينة والأوانى والأقمشة، فقد أصبحت هذه المواد نادرة اعتباراً من ١٣٠٠ق.م تقريباً لتختفى تقريباً حول عام ١١٠٠ق.م. وفى الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، تضم المقابر أساساً تماثيل «الأوشابتى» وبرديات جنائزية وربما تماثيل لأويزيريس مصنوعة من الخشب. وتتضح هذه التعبيرات فى مقابر الأفراد على نحو خاص ولكن أيضاً على مايبدو فى المقابر الملكية: إن أثاث ملوك «تانيس» هو أقل تنوعاً من أثاث «توت عنخ آمون» بشكل واضح. ومع ذلك، لايبدو أن هذه التغييرات تعكس فروقاً فى التصورات الخاصة بالحياة فى العالم الآخر.

٥- المقـــــابـــر

بعد أن ظل الفراعنة يستخدمون المقبرة الهرمية على مدى ألف سنة تخلوا عنها بحلول الدولة الحديثة. كانت المقبرة الهرمية واضحة للعيان، فمن شأنها أن تجذب إليها لصوص المقابر، لذا حلت المقابر الصخرية المنقورة فى الجبل، وفى وديان مقفرة:

«لقد أشرفت، لوحدى، على حفر مقبرة جلالته، دون أن يرانى أحد، دون أن يسمعنى أحد».

تلك العبارات مدونة فى مقبرة «إنينى» ، المهندس الذى شاد المقبرة الصخرية للملك تحوتمس الأول، أول من أقام مقبرته فى المكان الذى سيعرف فى المستقبل بوادى الملوك. وبعد أن اختار الفراعنة إخفاء المقبرة تماماً، ترتب تلقائياً على ذلك، الفصل بينها وبين المعبد الجنائزى الذى سوف يشيد من الآن فصاعداً فى الوادى، وعلى مسافة كبيرة فى معظم الأحوال. وتستجيب مداخل مقابر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة إلي حد كبير لهذه الرغبة فى السرية، ولكنها ستصبح فيما بعد مداخل فخمة، بلاشك بعد أن سادت قناعة تؤكد عدم جدوى إخفائها. وفى الحقيقة، فإن ظروفاً عرضية وحدها هى التى أتاحت لـ «توت عنخ آخون» ألا يتعرض سوى لبدايات عملية سرقة واحدة، فحسب. ومن الآن، كان توفير الأمن يعتمد فى المقام الأولى على وجود حراس فى كل مدخل من مداخل وادى الملوك.

ولاريب، أن التننظيم الداخلى للمقابر قد صمم بحيث يشيع الإحباط فى قلوب اللصوص: آبار تعترض الممرات، وغرف جنائزية زائفة، وتغيير محور الدهاليز. إلا أن كل التدابير قد بقيت دون فاعلية تذكر. ففى الحقيقة ومع حلول الأسرة العشرين عندما تحول مراقبو الجبانة الملكية فى زمن رعمسيس التاسع إلى لصوص أو ضالعين معهم، على أقل تقدير، بات السطو على المقابر أمراً معتاداً. ولحسن حظنا فقد حفظ لنا الزمن جانباً من حيثيات الدعوى التى أقيمت بهذه المناسبة والتى تبرهن على أن الفساد كان قد نال من عمدة طيبة على ما يرجح...

«لقد فتحنا التوابيت ووجدنا مومياء الملك المهيبة... وجمعنا الذهب الموجود فوق المومياء المهيبة لهذا الإله، كما جمعنا أيضاً ذهب التمائم والحلىّ التى كانت حول عنقه... وأخذنا الأثاث المكون من أشياء مصنوعة من ذهب ومن فضة ومن برونز واقتسمناها فيما بيننا... وهكذا ويتعاون رفاقى من اللصوص واصلنا حتى يومنا هذا، السطو على مقابر الأشراف ورجالات البلد الراقدين غربى طيبة. وعدد كبير من أهل البلد كانوا يسرقونها مثلنا وكانوا شركاءنا».

وهو ما دفع كهنة طيبة (أيام «حريحور» و «باى نجم») إلى تجميع المومياوات الملكية فى خبايا مثل خبيئة الدير البحرى أو فى مقابر عرف عنها أنها أكثر أماناً عن غيرها مثل مقبرة «امنحوتب» الثانى.

(F. Daumas, la Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, 1982).

تعتبر مقبرة سيتى الأول مثالاً جميلاً جداً للعمارة الجنائزية فى الدولة الحديثة. إنها تتكون من مجموعة من الممرات ذات انحدار هابط تعترضها سلالم وتسمح بالوصول إلى صالة البئر المزدانة بمناظر تمثل فرعون فى حضرة مختلف الآلهة. ومن هنا ندخل إلى صالة أولى ذات أعمدة تحاكى حجرة دفن. ومن هذه الصالة، يبدأ ممر جديد يهبط إلى صالة أخرى ذات أعمدة كان فى مؤخرتها تابوت قابع تحت سقف مقوس. ومن المفترض أن الأثاث الجنائزى كان موجوداً فى حجرات مجاورة. إن زخرفة هذه المقبرة، وان لم ينته العمل فيها (فنشاهد فى بعض الأمكان خطوط ورسومات تحضيرية باللون الأحمر) هى آية فى الروعة وتذكرنا من حيث أسلوبها بزخرفة معبد سيتى الأولى فى أبيدوس. وعدد كبير من هذه المشاهد منقول من كتاب «إيمى دوات» ومن كتاب البوابات. إن هذه المقبرة هى واحدة من أكبر مقابر وادى الملوك. شكل (١٤)

أما مقابر الأفراد فهى أيضاً محفورة فى صخر الجبل فى معظم الأحوال، ولكنها تشمل بناء علوياً يضم هيكلاً أضيف إليه هرم صغير مشيد من الطوب المغطى بالجص. وفى هذا العصر تم إعداد جبانات عديدة فى منطقة طيبة نذكر منها جبانة القرنة وجبانة قرنة مرعى وجبانة الحرفيين فى دير المدينة. وهذه المقابر مشيدة فى الغالب تشييداً جيداً ومزخرفة بعناية فائقة، لاسيماإذا كان ملاكها من الأشراف، ولكن أيضا عندما كان عمال دير المدينة يشيدونها لحسابهم الخاص، ونذكر على سبيل المثال مقبرة «سن نجم». ومن ناحية أخرى، فإن الحفائر التى أجريت منذ عدة سنين فى منطقة منف، قد أخرجت إلى النور عدداً كبيراً من الدفنات لشخصيات مرموقة تعود إلى الدولة الحديثة، ونذكر منها مقبرة القائد العسكرى «حورمحب»، الذى هجرها بعد أن صار ملكاً، أو مقبرة الوزير «عابر - إل». شكل (١٥)

وعلينا أن نعيد إلى الأذهان أن الغالبية العظمى من جماهير الناس ظلت تدفن فى حفرة بسيطة حفرت فى الأرض.

٦- الخلـــود الأوزيـــــرى

وبحلول الدولة الحديثة أخذ دور «أوزيريس» يبرز ويتأكد فى المعتقدات الجنائزية. كانت الأسطورة الأوزيرية موجودة من قبل فى متون الأهرام ولكننا نجدها فى شكلها التام

فى الدولة الحديثة. ويبدو أن أوزيريس كان يقوم أصلاً بوظيفة مزدوجة: ملكية وزراعية. فهو يتجسد فى حقيقة الأمر فى الحبة التى تنبت وتنمو. وسوف تذكرنا بذلك على الدوام نماذج أوزيريس» الإنماء التى نجدها فى المقابر إعتباراً من الدولة الحديثة. وفى نفس الوقت،فهو منذ الدولة القديمة نموذج للملك المتوفى.

رغم وجود روايات عديدة للأسطورة الأوزيرية، ففى وسعنا استناداً إلى المصادر المتأخرة، أن نعيد تكوين «السيناريو» التالى الذى جرت صياغته تدريجياً على مر الزمان: كان «أوزيريس» وهو من ملوك مصر القدماء عرضة لحقد أخيه «ست» الذى يطمع فى الإستيلاء على السلطة. واستطاع «ست» أن يقتله غدراً وقطع جسده وبعثره فى جميع أقاليم مصر (أو فى النيل وفقاً لرواية أخرى). ويختلف عدد القطع من تقليد إلى تقليد، فيما بين ١٤ و ٤٢، وهو ما يتفق من الناحية النظرية وعدد الأقاليم (والـ٤٢ إلهاً الذين يعملون كمساعدين لأوزيريس فى العالم الآخر). وطفقت «إيزيس» زوجة «أوزيريس» تبحث فى طول البلاد وعرضها عن أعضاء زوجها المبعثرة ثم أعادت تشكيله بفضل أعمال السحر وأعادته إلى الحياة، حتى أنها حملت منه بطفل سوف يصبح الإله «حورس»، المنتقم لأبيه وخليفته على عرش مصر. وفى رواية أخرى، وهى إلى حد ما متناقضة مع الرواية السابقة، استطاعت «إيزيس» فى الحقيقة أن تجمع جميع أعضاء «أوزيريس» ماعدا عضو التذكير، الذي التهتته أسماك فى النيل. ونجد صدى لهذا التقليد فى عادة خصى المومياوات الشائعة: ان «سيتى» الأول و «رعمسيس» الثانى، مثالان جليان على ذلك.

«أوزيريس» هو الإله المتوفى، فيصبح تلقائياً إله الموتى، ولكنه يحتفظ بوظيفته الزراعية، إذ يظل مسئولا عن ارتفاع منسوب المياه فى زمن الفيضان ونمو القمح. وتأسيساً على ذلك، فان خليفته فرعون هو أيضاً الذى يؤمن خصوبة التربة. وحسب التأويل الإغريقى للأساطير المصرية، فإن «أوزيريس» هو الذي اكتشف الزراعة، وعلمها للبشر، حيث كانوا من قبل من أكلة لحوم البشر.. وحسب تصورات المصريين للعالم الآخر، فمن الآن يحتل «أوزيريس» مركز الصدارة. إن مثوى الأموات فى الدولة الحديثة، ينظر إليه كمملكة قائمة أسفل الأرض يحكمها الإله ويعاونه «مساعدوه» فى ذلك.

وما أن تنتهى الشعائر الجنائزية ولاسيما شعيرة فتح الفم التى تعين المتوفى على استعادة حواسه، فإنه يوضع فى قبره. وهنا تبدأ «حياته الجديدة»، التى يؤمنها توفير القرابين. وإمعاناً فى التأمين، تصور القرابين أيضاً على جدران المقبرة. ومن الواضح أن

الموت بالنسبة للمصريين ليس حالة نهائية، بل انتقال فحسب، بين شكل وآخر من أشكال الوجود. وبعد أن «يضمن» المتوفى هذه الحياة الثانية، تبدأ بالنسبة له رحلة حقيقية فى العالم الآخر. المرحلة الأولى هى مرحلة المحاكمة (وهى مخالفة تختلف كل الإختلاف عن يوم الدينونة أو الحساب عند المسيحيين أو المسلمين الذى يحل بشكل جماعى فى «آخر الأزمنة»). ويصحب الإله أنوبيس المتوفى من يده ليقفا أمام الميزان الذى يوزن القلب عليه ويفترض أن المتوفى يوجه فى هذه اللحظة إلى «أوزيريس» الإعلان الخاص ببراءته أو «الإعتراف السلبى».

... لم أقتل
لم آمر بالقتل
لم أتسبب فى تعاسة أحد...
لم أطفف الميزان.
لم اغتصب اللبن من فم الأطفال الصغار.

كما يوجه المتوفى كلامه أيضاً للإثنين وأربعين إلهاً من مساعدى أوزيريس ليؤكد عدم إدانته:

يابالع الأطياف الخارجة من الكهوف، لم أغتل أحداً.....
يا محطم العظام الخارجة من «هرقليوبوليس»، لم استول على أطعمة...
يا ملتهم الدماء الخارجة من المجزر، لم أذبح الماشية الإلهية...

نقلاً عن الترجمة الفرنسية (Livre des Morts ch 125. Trad. J. L. de Cenival)

ثم يوضع القلب على إحدى كفتى الميزان، فى حين توضع على الأخرى ريشة «ماعت» التى ترمز إلى الحقيقة والعدالة. وعلى القلب أن يكون أخف من هذه الريشة، وإلا كان معنى ذلك أن سيئاته تجب حسناته فيقدم فى هذه الحالة فريسة للملتهمة «عميت»* الواقفة بجوار الميزان، متأهبة للالتهام.

إن هذا الإحتمال (المستبعد حدوثه، فى ظاهر الأمر)، قد يحكم على المتوفى «بالموت الثانى»، وهو موت لارجعة فيه، هذه المرة. أن الإله «تحوت» برأس أبى منجل، يدون على قرطاس من البردى نتيجة الوزن هذه.

* نقول فى لغتنا العامية: «عمّ» بمعنى يأكل (المترجم).

كما أنه يوجد أيضاً في الغالب على هيئة قرد يقف فوق الميزان أو بجواره. ويذكرنا هذا الوجود بالحكمة التى يجسدها «تحوت» فيضمن بالتالى نزاهة الوزن. (راجع بردية آنى») ومن ناحية قد تحل «ماعت» ذاتها محل الفرد. (راجع بردية «حو نفر»). وبعد أن صار المتوفى «باراً»، سوف يتم اصطحابه ليمثل أمام «أوزيريس» الذى تقف بجواره «إيزيس» و «نفتيس« ، إلى جانب أبناء «حورس» الأربعه. ومن الآن، وبعد أن صار مساوياً للإله، سيدعى «أوزيريس»، وسيصبح فى وسعه أن يواصل وجوده فى العالم الآخر. ولكن عليه قبل ذلك، أن يقوم برحلة كاملة تصادفه فيها أحابيل لاحصر لها: المرور عبر أبواب تحرسها جنيات مرعبة، مسلحة بالسكاكين، ومواجهة شتى أنواع الكائنات الخرافية المهجنة. لذلك، عليه أن يعرف ويتلو التعويذات المناسبة الواردة فى كتاب الموتى.

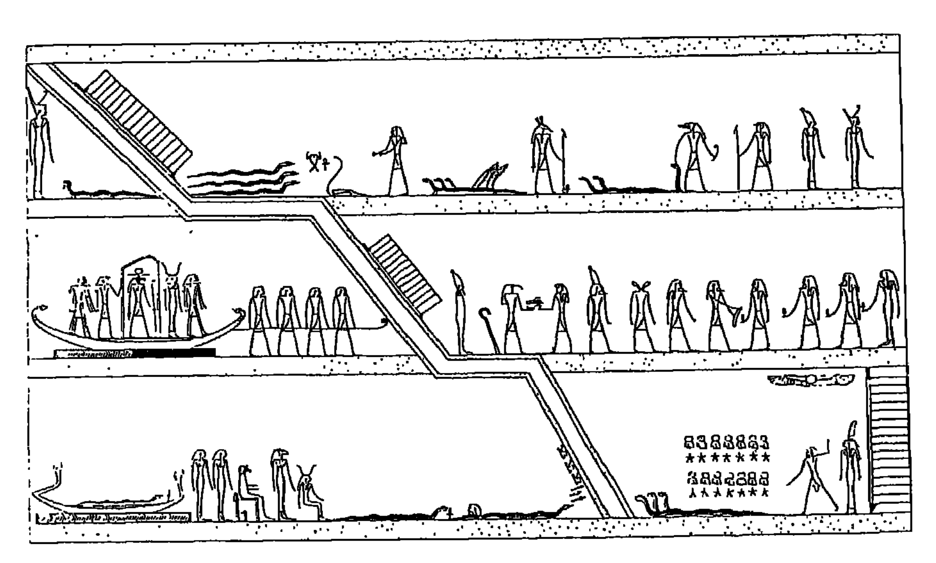
وجميع هذه النصوص، تحتفظ بها قراطيس البردى المزدانة برسومات توضيحية وتوضع فى المقبرة، إما فوق المومياء مباشرة مثل التميمه، أو داخل علبة صغيرة، يعلوها فى بعض الأحوال تمثال لأوزيريس مصنوع من الخشب. إن الهدف من هذه النصوص هو نفس هدف النصوص التى كانت تحفر أو ترسم فى الدولة الوسطى على سطوح التوابيت أو أيضاً داخل الأهرام فى الدولة القديمة. مع ذلك، علينا أن نؤكد، بشأن المقابر الملكية، إن المصريين ظلوا فى الدولة الحديثة يرسمون أو ينحتون على سطوح حجرات الدفن نصوصاً تتحدث عن مصير الملك المتوفى فى عالم الموتى: كتاب البوابات، كتاب الكهوف، وكتاب «إيمى دوات».. إنها نصوص لها أهداف لاهوتيه معقدة وتضطلع فيها العناصر حول نشأة الكون بدور بارز. إن صور الأجرام السماوية ومنها على سبيل المثال تلك الموجودة على سقف حجرة دفن رعمسيس السادس، لهى على علاقة وثيقة بالمعتقدات القديمة المتعلقة بإقامة الملك فى السماء وسط النجوم. شكل (١٦)

شكل (١٥)

«نحت»، يسبقه «با» ؤه، وهو يتجه نحو مقبرته.

«كتاب الموتى» الخاص بـ «نخت».

الدولة الحديثة. المتحف البريطانى



شكل (١٦) رحلة المتوفى فى عالم الموتى :

كتاب «إيمى دوات» . مقبرة تحوتمس الثالث

الفصل الخامس

العصـــر المتأخـــر

هذه اللفظة الشاملة، تنطوى فى واقع الأمر، على عدد من المراحل المتباينة، سياسياً وثقافياً. لقد انتهى الألف الأول قبل الميلاد، وهو عصر غزوات وسيطرة أجنبية، بالغزو الرومانى، فضاع استقلال البلاد نهائياً.

كانت مرحلة الإنتقال الثالثة (من الأسرة ٢١ إلى الأسرة ٢٤)، لاتزال تندرج فى سياق استمرارية حضارة الدولة الحديثة، حيث ظلت طيبة مركزاً دينياً على قدر كبير من الأهمية، إلى جانب كونها مركزاً للسلطة، رغم أن ملوك الأسرة الثانية والعشرين، قد أسسوا فى تانيس فى الدلتا، عاصمة جديدة. واعتباراً من الأسرة ٢٥ دخلت البلاد فى مرحلة تقلبات، ثم عادت مملكة قوية ومركزية فى ظل الصاويين من الأسرة السادسة والعشرين. وأخيراً نشاهد ضياع الإستقلال خلال فترتى الغزو الفارسى الذى انتهى بغزو الإسكندر الأكبر.

١- مرحلة الإنتقال الثالثة

فى بداية الألف الأول، قبل الميلاد، فى ظل الأسرة الحادية والعشرين أخذت تقنيات التحنيط تتطور أيضاً، على الأقل فيما يخص مظهر المومياء. إن مومياء «حنيت تاوى» التى عثر عليها فى الدير البحرى لتستوقف النظر على نحو خاص. فقد تم عمل حقن تحت بشرة الوجه لادخال أكياس من نشارة الخشب، لإعطاء الوجه حجماً يشبه وجه الإنسان الحى. وللأسف، تشققت البشرة بمرور الزمن. فكانت النتيجة هى عكس ما كانت منتظراً. (فلنذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ نصرى اسكندر* قد قام بمعالجة المومياء منذ وقت قريب). ويبدو

* الأستاذ نصرى اسكندر من مواليد القاهرة عام ١٩٤٢. وهو حالياً مدير عام صيانة الآثار بالمتحف المصرى بالقاهرة ويعمل منذ ثلاثين سنة فى مجال بحوث وصيانة الآثار المصرية، وحائز على جائزة النشر العلمى فى موسوعة «رولكس» السويسرية للإبداع العلمى لعام ٩٣ (المترجم).

أن أسلوب الحشو تحت الجلد كان منتشراً في هذا العصر. وكان المصريون يستخدمون مواد أخرى خلاف نشارة الخشب، نذكر منها الصلصال والرمل والراتنج والكتان. كما أدخلت بعض التحسينات الأخرى على مظهر المومياوات ومنها تثبيت عيون صناعية في محاجر العين. وكانت البشرة تلون في الغالب بالمغرة الصفراء (للنساء) أو المغرة الحمراء (للرجال). وقد زودت مومياء «نچمت» زوجة «حريحور» كبير كهنة آمون بحاجبين مستعارين مصنوعين من شعر آدمي. إن «المعالجة» التي خضعت لها تسبغ عليها مظهراً شبابياً، في حين أنها كانت طاعنة في السن عند وفاتها، كما يخفي الشعر المستعار الصلع الذي كان قد بدأ في الظهور: وإلى جانب ذلك فقد «جملت» بعد إضافة نشارة الخشب التي وضعت بين طيات الأشرطة. ويبدو مظهر «ماساهرتا»، كبير الكهنة والقائد في ظل حكم «سمندس» و«پاي نچم» الأول منتفخاً، وهي سمة مميزة لمومياوات هذا العصر. وفي وقت لاحق، وفيما يخص «چد پتاح يوف عنخ»، كاهن آمون، الذي من الراجح أنه كان يرتبط بصلة القرابة بالعائلة المالكة، كما اكتشفت مومياؤه في خبيئة الدير البحري، فإن وجهه كان يمتلىء بصفة خاصة بالحيوية، وإن لم تبلغ نتائج معالجة أعضائه مستوى مرضياً. ومن ناحية أخرى، فإن مومياوات الفراعنة، التي دفنت في الجبانة الملكية بتانيس، ولقيت بكل تأكيد قدراً كبيراً من العناية عند تحنيطها، قد عثر عليها وهي في حالة يرثى لها بسبب رطوبة التربة في منطقة الدلتا، الأمر الذي يبرهن مرة ثانية على حقيقة أن علاجاً جيداً كان غير كاف لضمان المحافظة على الجسد: فمن الضروري أيضاً أن نضمن لحجرة الدفن ولمكان الدفن، جفافاً مستديماً.

أما الأحشاء التي كانت توضع حتى الآن في الأواني الكانوبية، فقد أصبحت من الآن، توضع من جديد في التجويف البطني بعد خياطتها ولفها بالكتان. وصار يطلق عليها «اللفة الكانوبية»، كما وضعت معها تمائم تمثل أبناء حورس الأربعة، لتذكرنا بدورها في حماية الأعضاء المحنطة، أسوة بالأغطية الكانوبية المنحوتة. ورغم هذا التجديد، استمر المصريون ينحتون الأواني الكانوبية، ولكنها أصبحت مجرد صورة، لم يكن من مبرر لوجودها سوى التمسك بتقليد موروث.

سوف يستمر هذا «التحنيط النمطي» حتى نهاية الأسرة الثانية والعشرين مع ملاحظة وجود تغييرات في العادات وفقاً لمستوى دخل الأفراد.

باتت التوابيت الحجرية نادرة، حتى بالنسبة للطبقة الحاكمة التى كانت تستخدمها بكثرة فى العصور السابقة. أما بالنسبة للفراعنة فقد اكتفوا بإعادة استخدام التوابيت التى صنعها أسلافهم. وهكذا نجد فى المقابر الملكية فى «تانيس»، إنه من بين الثلاثة عشر تابوتاً التى تم الكشف عنها، كانت ثمانية منها قد أعيد استخدامها، ولم تكن المدونات الأصلية قد محيت تماماً، الأمر الذى سمح لنا بالتعرف من بين «أصحابها» الأصليين على الملك «مرنپتاح» وكاهن يدعى «أمن حوتب»، كان قد دفن فى طيبة فى زمن الدولة الحديثة. وكانت توابيت أخرى قد نحتت ابتداءً من عناصر معمارية ومنها التماثيل على سبيل المثال... وكان الفراعنة يرقدون فى توابيت جميلة من الفضة، وضعت داخل التوابيت الحجرية، نذكر منها تابوت «بسو سينس» وتابوت، «شاشانق - حقا خبر رع» (ويجدر بالملاحظة أن الفضة كانت تعتبر فى مصر ولزمن طويل أثمن من الذهب). ومن ناحية أخرى ظل استخدام أقنعة جنائزية من الذهب المصمت معمولاً به، وهو ما يشهد عليه قناع «بسوسنس» وقناع القائد العسكرى «أونوچبا ونچد» اللذان عثر عليهما فى «تانيس» أيضاً.

أما الأفراد فقد ظلوا يتمتعون من جانبهم بتوابيت مصنوعة من الخشب على هيئة آدمية، كما فى الدولة الحديثة. وقد تم الكشف فى الدير البحرى (باب القسس) على مجموعة عامة من التوابيت لكبار كهنة آمون فى طيبة (تقدر بمئات التوابيت). وفى أحوال كثيرة كانت الأشرطة تحمل مدونات، الأمر الذى سمح لنا بالتعرف على أصحابها. وقد زودت هذه المومياوات فى المعتاد بتابوتين من الخشب على هيئة آدمية إلى جانب ما يشبه الغطاء من الخشب المنحوت والملون (والذى كان مستخدماً منذ عصر الرعامسة) ليغطى المومياء.

أما الزخارف الخارجية للتوابيت فهى شديدة الشبه بتلك التى شاعت عند نهاية عصر الرعامسة: فعناصرها ملونة بألوان حية فوق أرضية باللون الأصفر. وفى المعتاد تصور الإلهة «نوت» على الغطاء الذى ينقسم جانبه السفلى إلى صفوف مزخرفة بموضوعات دينية متنوعة وبنصوص. شكل (١٧)

ومع نهاية الأسرة الحادية والعشرين، يبدو أن بعض التغييرات قد أدخلت على هذه الزخارف حتى بلغت أكثر فأكثر حد المبالغة. ونقلت الموضوعات الرئيسية عن كتاب الموتى: رحلة المتوفى إلى العالم الآخر، والمحاكمة فى حضرة «أوزيريس». وترتبط موضوعات أخرى بالأساطير الشمسية أو تظهر موضوعات تخص أساطير خلق العالم مثل الفصل بين «چب» و«نوت». والكثير منها مرتبط ببعث المتوفى.

ومع ذلك، نلحظ فى هذه الزخارف تغييرات على قدر كبير من الأهمية، الأمر الذى يدفعنا إلى الظن بأن الحرفيين (أو أصحابها) كان لهم هامش نسبى من حرية الإختيار. ويجدر بالملاحظة أن الإله الشمسى يحتل غالبا مكان الصدارة، بل إنه يذكر بدلاً من أوزيريس، فى تعويذات القرابين. وبات من الواضح تماماً أن الأفراد فى ذلك العصر قد أخذوا يتمتعون بما كان وقفاً فى السابق على الملوك. أى الإندماج فى الشمس: وتغطى الزخارف باستمرار السطوح الداخلية للتوابيت أما قعر التابوت فيضم غالباً صورة لإلهة الغرب أو أيضا العامود «چد» رمز أوزيريس الذى قد يعنى الثبات والدوام. وقد رأى البعض أنه يصور عاموداً فقرياً، الأمر الذى يفسر وجوده على مقربة من سلسلة ظهر المتوفى... ومن ناحية أخرى، فإن عدداً كبيراً من التوابيت التى كانت مخصصة فى الغالب لشخصيات أقل شأناً، قد صنعت صناعة رديئة إلى حد ما، وتصور زخارف نمطية ومقولبة.

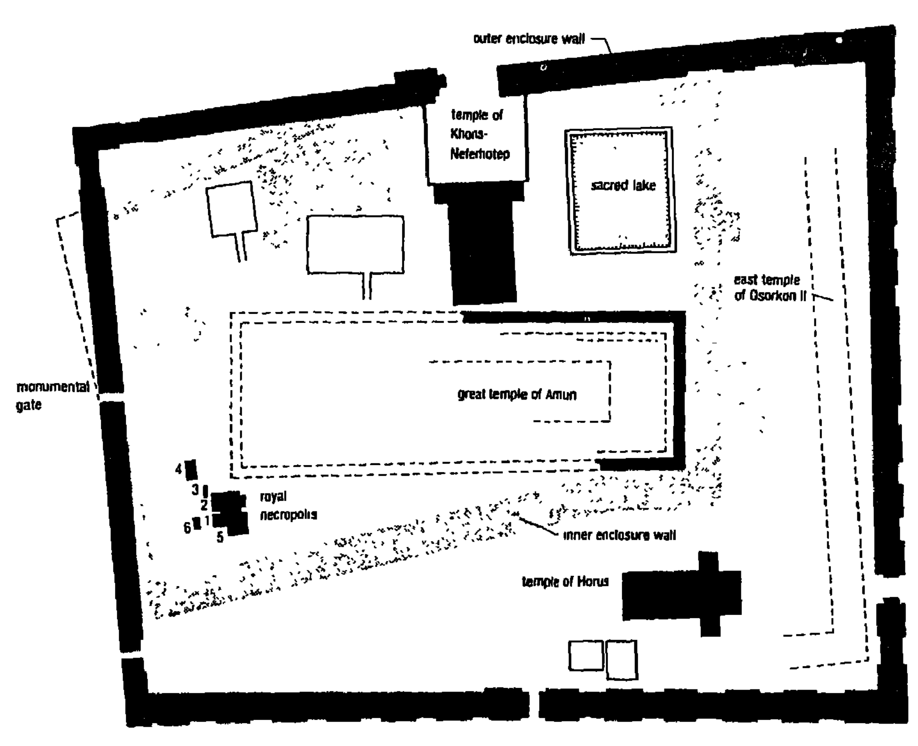
وفى ظل الأسرة الثانية والعشرين، أدخلت تغييرات هامة على تجهيزات المومياء، ويمكن ملاحظتها فى مختلف طبقات المجتمع. فأخذ شكل التابوت يميل إلى البساطة، وانتشر على وجه التحديد غلاف من نمط خاص: «الكارتوناچ» le Cartonnage . ولاريب أننا نلاحظ ظهور هذا النمط منذ الدولة الوسطى، على هيئة قناع على الأقل، وان لم ينتشر استخدامه إلا فى العصر المتأخر. إنه عبارة عن قالب يغلف المومياء بالكامل، ويتكون من نسيج متكتل مغطى بالجص. وكان يصنع هذا القالب بتثبيته على حامل على هيئة جسد آدمى مصنوع من الصلصال المضاف إليه القش. ان وجود فتحة طولية فى الناحية الخلفية كان يسمح بفصل الكارتوناچ، عند ما يجف، عن «تمثاله».

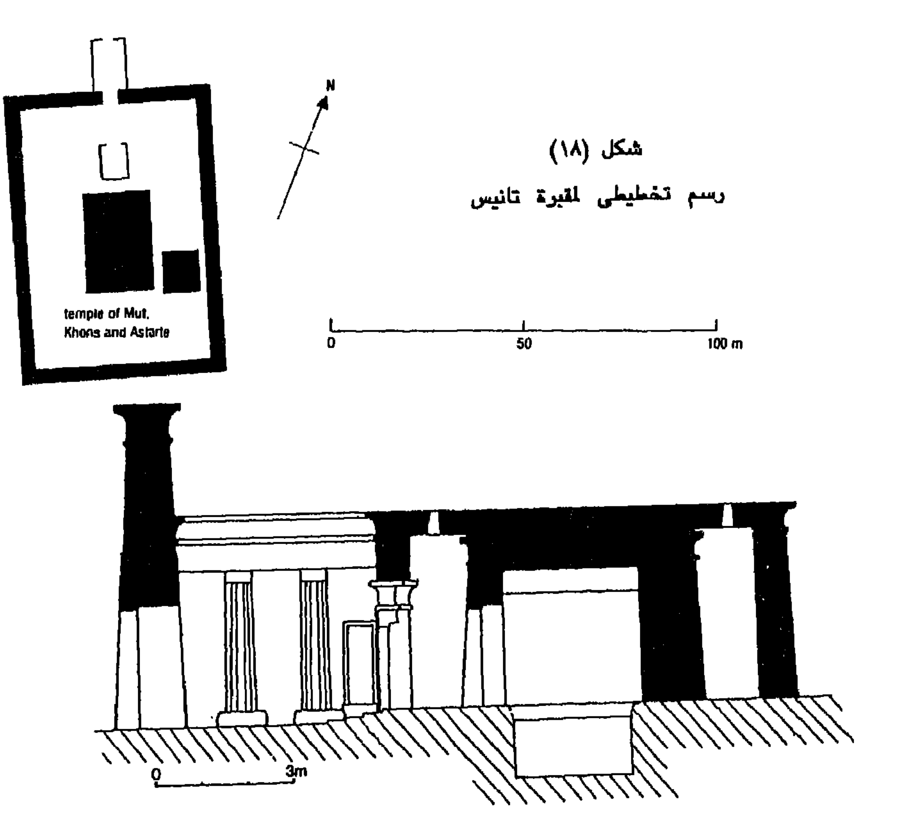
وهكذا كان يصنع ما يشبه العلبة لتوضع فيها المومياء. إن تثبيت الكارتوناج فى مكانه كان يتم بواسطة رباط خلفى. وقد اطلق اسم الكارتوناج على هذه الأغلفة، لأنه كثيرا، ما كان يستخدم فى العصر البطلمى ورق البردى المتكتل بدلاً من النسيج، فكان يشبه الكارتون (أو الورق المقوى). وكانت الزخارف الملونة لاتوضع على الكارتوناج إلا بعد أن توضع المومياء فى «علبتها». ومن الراجح أن صناعة الكارتوناج كانت أقل تكلفة بشكل ملحوظ فى صناعة تابوت خشبى بالنظر إلى ندرة الأخشاب فى مصر. ولاشك أن بعض الأشخاص كانوا يتمتعون بإمتلاك كارتوناچ وتابوت فى آن واحد. ولكن ظل الكارتوناچ فى كثير من الأحوال يشكل الغلاف الخارجى الوحيد للمومياء.

وتطورت المقابر الملكية ومقابر علية القوم: وُهجر وادى الملوك، بعد أن ثبت بالدليل القاطع، مدى امكانية النيل منها فى هذا الوادى. وكان رعمسيس الحادى عشر آخر فرعون معروف تم دفنه فيه). وبالفعل، ففى ظل حكم «پاى نجم» من الأسرة الحادية والعشرين، نقلت مومياوات الملوك من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الحادية والعشرين، إلي مكان آمن فى خبيئة الدير البحرى وإلى مقبرة امنحوتب الثانى أيضاً. وجرت العادة على تشييد المقابر على مقربة من المعابد، داخل الحرم المقدس، على أمل تأمين حماية أفضل لها. وهكذا فقد شيدت مقابر «تانيس» داخل حرم معبد آمون. وقد ضاع البناء الفوقى لمعظم هذه المقابر. ويعتقد أنها كانت من نفس طراز المقابر التى شيدت فيما بعد فى مدينة هابو لعابدات آمون الإلهيات: إنها مقابر على هيئة معبد، لها صرح عند المدخل وفناء مفتوح وهيكل مغطى. وكان يتم الوصول إلى حجرة الدفن الموجودة تحت الأرض عن طريق بئر محفورة أسفل الهيكل. وإذا كان اللصوص قد «زاروا» العديد من المقابر الملكية، ولو بشكل جزئى، فقد أفلتت بعضها من عمليات السلب والنهب. ففى حالة مقبرة شاشانق الثالث، تمكن اللصوص من حفر نفق سمح لهم بالوصول مباشرة إلى حجرة الدفن، بجوار التابوت. إن ثراء الأثاث الجنائزى الذى عثر عليه فى معظم هذه المقابر ليوضح بجلاء، ان أعمال السلب والنهب، لم تكن مع ذلك قد قطعت شوطاً كبيراً. شكل (١٨) — شكل (١٩)

وتتكون واحدة من أبرز المجموعات الجنائزية لهذا العصر من المقبرة الجماعية الكبرى لكهنة وكاهنات آمون فى الأسرة الحادية والعشرين التى تم الكشف عنها عام ١٨٩١ أسفل الفناء الأول لمعبد حتشبسوت بالدير البحرى والتى أطلق عليها اسم باب القسس. ويفضى دهليز يبلغ طوله حوالى مائة متر إلى حجرتين جنائزيتين متلاصقتين. وقبل هاتين الحجرتين بقليل، يتفرع دهليز آخر بزاوية قائمة، يبلغ طوله حوالى خمسين متراً. وينحدر إلى أسفل حتى عمق مائة متر. كانت المقبرة تضم ٢٥٤ تابوتاً (١٠١ مزدوج و ٥٢ مفرداً) وأغلبها فى حالة مدهشة من الحفظ، ومكدسة فى الدهليزين والحجرتين. إن هذه المقبرة الجماعية هى بالنسبة للكهنة المقابل للخبيئة الملكية بالدير البحرى. ومن الراجح أنه تم تجهيزها في كل حكم بسوسينس الثانى، قرب نهاية الأسرة الحادية والعشرين لتأوى توابيت كهنة وكاهنات آمون وما تبقى من تجهيزاتهم الجنائزية (من أوشابتى وأوانى كانوبية وتماثيل لأوزيريس). وكان هؤلاء الكهنة والكاهنات قد دفنوا أصلاً فى مقابر متعددة فى الجبانة الطيبة.

أما بالنسبة لأفراد، هذا العصر، فإن معظم مقابر منطقة طيبة تتكون من مجرد حجرة محفورة فى صخر الجبل. ومما يجدر بالملاحظة أن الجبل فى منطقة طيبة، كان صخريا شديد الإنحدار، ويوفر امكانات واسعة لحفر مقابر فى وسعها أن تغالب الأيام





شكل (١٨)
رسم تخطيطى لمقبرة تانيس

شكل (١٩) قطاع طولى فى هيكل مقبرة «أمفرديس»
«مدينة هابو»

أكثر من منطقة الدلتا المنبسطة والرملية. وفى واقع الأمر لم يعثر فى الدلتا سوى على القليل من المقابر التى تعود إلى ذلك العصر.

٢- العصران الصاوى والفارسى

لن يطرأ اعتباراً من الأسرة الخامسة والعشرين أى تغيير ملحوظ على التحنيط غير أن «اللفات الكانوبية» ستوضع على مقربة من المومياء، بل بين أطرافها السفلى أو أيضا فى النادر جداً، فى أوانى كانوبية، عملاً بالتقليد القديم. وفى هذا العصر شاعت عادة دهن الجسد بمادة تميل إلى السواد، لامعة كالقار، هشة، لها بريق خارجى، تعرف فى المعتاد بلفظة «القار» Bitume، رغم أن التكوين الكيمائى لهذه المادة قد يكون مختلفاً. ومع ذلك فقد لقيت هذه الكلمة رواجاً، نظراً لأن كلمة مومياء مشتقة من مقابلها العربى «الموم»*.

وبعد معالجة الأجساد على هذا النحو كانت توصف فى الغالب «بالمومياوات السوداء» فى مقابل تلك التى كانت تعالج وفقاً للأسلوب التقليدى، فيطلق عليها أحياناً «المومياوات البيضاء» (وإذا كان لونها أصفر فاتحاً، فى واقع الأمر). ويبدو أن استخدام المادة السوداء قد سمح بسرعة تحنيط عدد أكبر من الأجساد. وبنفس الطريقة، كانت تستخدم فى معظم الأحيان مادة سوداء لدهان أشرطة المومياء، ويحتمل أن ذلك كان لضمان إلتصاق مختلف طبقات النسيج فيما بينها. كما طليت بعض التوابيت باللون الأسود ولكن ليس مؤكداً أنها نفس المادة: ونميل إلى الاعتقاد أن هذه المادة كانت شفافة فى الأصل (ربما كانت مجرد ورنيش شفاف) ثم مال إلى السواد بمرور الزمان، لأن وجوده يخفى فى حالات كثيرة زخارف ملونة.

وهناك تباين واضح بين العناية التى تتوفر عند إعداد بعض المومياوات والمستوى الردىء جداً للعديد منها. ومن العوامل التى تفسر وجود مومياوات «سيئة»، يمكن أن نشير إلى تلك العوامل التى يذكرها «هيرودوت»:

---

* «الموم» الشمع. والشَمَع هو موم العسل أو الشحم وغير ذلك مما يدبر على الهيئة المعهودة فيستضاء به – المنجد – دار المشرق – بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٨٠ و٤٠٢ (المترجم).

«إن زوجات الشخصيات المرموقة، لايسلمن عند وفاتهن إلى التحنيط فى الحال، ولا أيضاً النساء الفائقات الجمال ولا النساء الرفيعات الشأن: فلا يسلمن إلى المحنطين إلا بعد إنقضاء يومين أو ثلاثة على وفاتهن، وذلك حتى لايجامع المحنطون هؤلاء النساء. لأنه يقال أن أحدهم قد ضبط وهو يجامع جثة توفيت حديثاً بعد أن أبلغ عنه زميل له...».

(Herodote, II, 89)

وبالطبع، فإن التأخر فى إجراء عملية التحنيط، الأمر الذى يقف فى الغالب وراء المستوى الردىء للمومياوات، كان يرجع إلى أسباب كثيرة أخرى يمكن المجاهرة بها!

وبفضل مومياء عثر عليها «بترى» Petrie فى مقبرة بجبانة تل نبشة، لم تنتهك حرمتها، وترجع إلى الفترة الواقعة بين الأسرة الخامسة والعشرين والأسرة الثلاثين، يمكن للمرء أن يكون فكرة عن ترتيب التمائم فوق المومياء. وبالفعل فقد كانت التمائم فى ذلك العصر من الكثرة بمكان، فقد كان هناك حوالى أربعين تميمة فى مكانها فوق المومياء، لاسيما فى أعلى الجذع، على مقربة من القلب وفى منطقة الحوض. تتعلق هذه التمائم على نحو خاص بأشياء رمزية غايتها أن تضمن للمتوفى غذاءه (العين «وجات») والثبات (العمود «جد»، وميزان البنّاء) وحمايته (أنشوطة «إيزيس») وبعثه إلى الحياة (الجعران والضفدع) والشباب الأبدى (صولجان البردى).

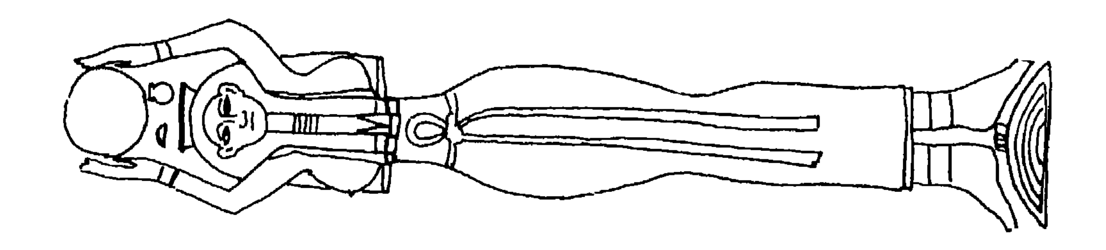
وعلى غرار العصور السابقة، فأن «مخلفات» التحنيط، أى كل ما استخدم فى تحنيط المتوفي، بالإضافة إلى «البقايا البيولوجية» كانت تدفن على مقربة من المقبرة. فقد تم الكشف على مقربة من الجيزة على خبيئة من الراجح أنها ترجع إلى العصر الصاوى، وكانت تضم حوالى ثلاثين إناء من الخزف ذات طرز مختلفة، وتدل المدونة الواردة على أحد هذه الآنية على أنها كانت تحتوى على مواد «غسيل» وكان وعاء آخر مخصصاً لوضع النطرون. كما عثر أيضاً فى مقابر المراحل المتأخرة على الأدوات التى كانت تستخدم عند التحنيط: ملاقط وسكاكين وخطافات وأقماع خاصة لملء الجمجمة بالراتنج.

تمثل توابيت الأسرة الخامسة والعشرين مرحلة إنتقالية: فقد قلت أعداد الكارتوناج لتحمل محلها توابيت خشبية تمثل المومياء واقفة فوق قاعدة مستطيلة، ولها دعامة رأسية خلفية، والكل مغطي بالمدونات. وبعد عدة عقود اتخذت تماثيل «الأوشبتى» نفس الشكل «النمطى» بدعامة رأسية خلفية وحامل سفلى. ومن الراجح أن شكل التابوت هذا قد صمم لتسهيل الوضع الرأسى الذى تتخذه المومياء خلال المراسم الجنائزية (وفى المقام الأول

أثناء شعيرة فتح الفم التى تقام عند باب المقبرة)، وكان المتوفى يزود فى بعض الحالات بتابوت خارجى على هيئة صندوق له غطاء محدب ويضم أربعة أعمدة فى زواياه، قد توضع عليها صقور. ومثال ذلك تابوت «جد تحوت إف عنخ» الذى عثر عليه فى الدير البحرى. هذا النوع من التوابيت الذى يتخذ شكل الهيكل يرتبط ببعض أوجه الشبه مع بعض نماذج الدولة القديمة. ففى هذا العصر كما فى العصر الصاوى فى وقت لاحق، نلاحظ أن زخارف الأثاث الجنائزى تميل بوضوح إلى تقليد القديم. هكذا يعود موضوع العينين إلى الظهور على السطح الخارجى ناحية الرأس، بوظيفته المزدوجة كحماية سحرية و «كنافذة» على الخارج.

وفى العصر الصاوى، وفى الحالات الأكثر شمولاً، استخدمت مجموعات تضم تابوتاً خارجياً على هيئة آدمية له قاعدة، ويتراكب داخل تابوت ثان علي هيئة آدمية أيضاً، والتابوتان يضمهما تابوت خارجى قد يكون على هيئة آدمية أو على هيئة «صندوق». وزخارف التوابيت على هيئة آدمية، هى فى الأساس عبارة عن شرائط من النصوص تلتف حول صور دينية منقولة عن كتاب الموتى. إن الواجهة الخلفية للتابوت الداخلى تحمل فى المعتاد على سطحها الخارجى زخارف تمثل إما عمود «جد» أو أعمدة من النصوص. وكان السطح الداخلى يحمل فى الغالب صورة لـ «نوت» أو «حتحور». أما القسم الذى يضم القدمين، فإنه يحمل فى الغالب عند مستوى باطن القدمين زخارف تصور عجل أبيس يعدو، وهو يحمل المتوفى على ظهره، وهى صورة ظهرت منذ العصر الليبى. وسوف يستخدم هذا النوع من التوابيت على إمتداد العصر الصاوى، فى طيبة وفى منطقة منف، على حد سواء. ان تابوت «بفتياو – نيت» الذى عثر عليه فى سقارة لخير مثال على ذلك. والسطح الخارجى للغطاء مغطى فى معظمه بأشرطة من النصوص رسمت بعناية فائقة أسفل صورة مجنحة للإلهة «نوت»، في حين رسمت صورة أخرى لـ «نوت» على السطح الداخلى للغطاء وهى واقفة وعارية، بينما تلد الشمس. وكما يحدث فى هذا العصر، فإن القناع ملون باللون الأخضر بحيث يزيد من اندماج المتوفى مع «أوزيريس». فاللون الأخضر يذكر بوظيفة «أوزيريس» الزراعية. شكل (٢٠)

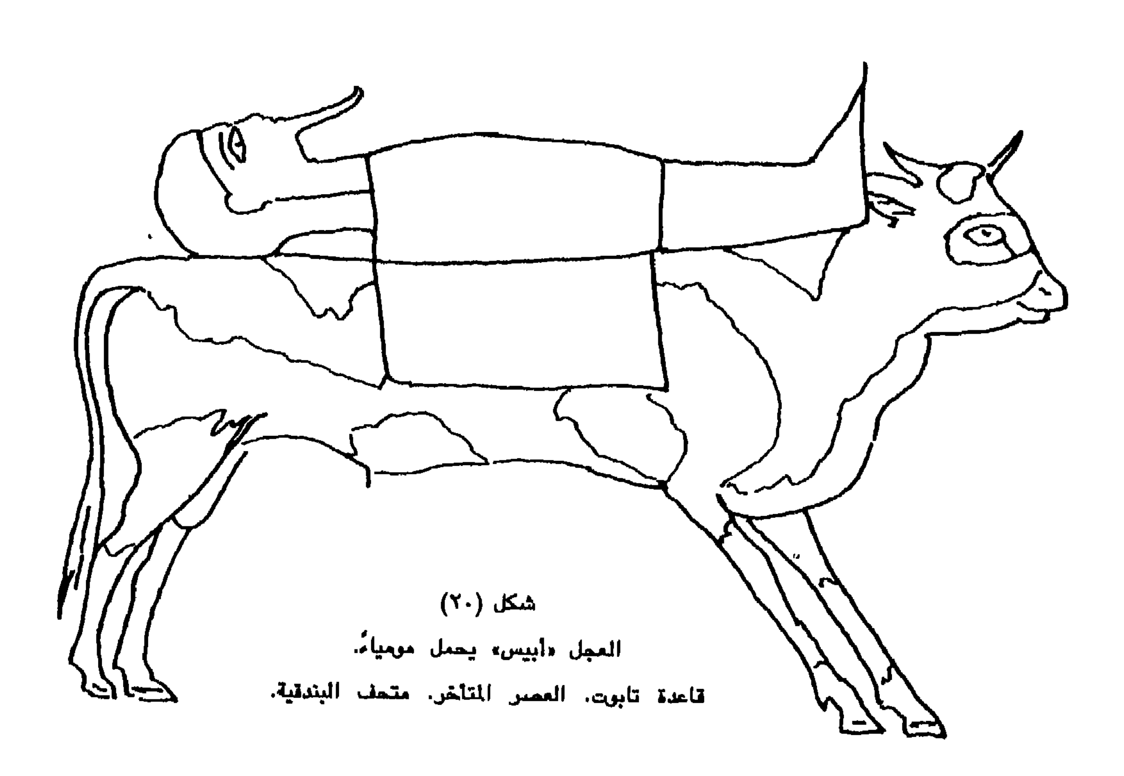
ومن الملاحظ، أن العصر الصاوى قد عاد إلى استخدام توابيت حجرية، سواء فى مقابر الأفراد أو فى المقابر الملكية، ولو أن المومياوات التى تضمها التوابيت الحجرية لها فى المعتاد تابوت أو تابوتان من الخشب، فقد يتصادف أن توضع مباشرة في التابوت الحجرى الذى على هيئة صندوق. وقد تكون هذه التوابيت مستطيلة الشكل تزينها لوحات واجهة القصر وفقاً لطراز الدولة القديمة (ولكنها حالات نادرة). ولنذكر، أنه قد لاحت فى



شكل (١٧)

تابوت «حوتب آمون».

العصر المتأخر (الأسرة ٢٥) متحف هيدلبرج



شكل (٢٠)

العجل «أبيس» يحمل مومياءً.

قاعدة تابوت. العصر المتأخر. متحف البندقية.

العصر الصاوى نزعة حقيقية للعودة إلى المنابع مع نسخ إبداعات الدولة القديمة. وإلى هذا العصر يرجع حفر الممر الهابط، أسفل هرم «چسر»، للوصول بطريقة مناسبة إلى الأجنحة الجنائزية، لنقل بعض النقوش، فحسب.

تتخذ توابيت العصر الصاوى فى الغالب، هيئة آدمية وكتلتها مصمتة وجوانبها سميكة وتستخدم مواد أولية صلبة (البازلت)، وذلك لأسباب تتعلق بالأمان. والنصوص الواردة على هذه التوابيت منقولة عن متون الأهرام، وهو مثال آخر على ولع هذا العصر بكل ما هو قديم. أما التوابيت التى لاتتخذ هيئة آدمية فهى تحاكى نماذج الدولة الحديثة، والطرف ناحية الرأس مستدير، ويتضاءل عرض الصندوق الحجرى ناحية القدمين. وهكذا نشاهد تابوتاً من الأسرة السادسة والعشرين يحتفظ به المتحف البريطانى فى الوقت الراهن، وهو منقول نقلاً أميناً عن تابوت الملك تحوتمس الثالث، ليس من حيث الشكل فحسب، بل بكل زخارفه أيضاً.

إن بعض مقابر الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين تتميز على نحو خاص، بحالة جيدة من الحفظ. نذكر على سبيل المثال مقابر عابدات آمون الإلهيات التى شيدت على مقربة من معبد مدينة هابو وتبدو كمعابد مصغرة. والوضع مماثل بالنسبة لمقابر علية القوم المشيدة فى جبانة طيبة فى العساسيف ولاسيما مقبرة «مونتو إم حات» عمدة طيبة. إن أبعاد الهياكل هى أبعاد ضخمة فى الغالب والأجزاء السفلية المنحوتة فى صخر الجبل، تذكرنا بالمقابر الملكية من حيث أبعادها وتعقيداتها.

وفى منف، فى العصر الفارسى، كانت المقابر ذات الآبار المحفورة على عمق كبير، تضم على ما يظن بناءً علوياً مشيداً من الطوب. أنها أكمل مثال، على نظام جديد مبتكر للحماية، أثبت فاعليته، فأمدنا بثلاث مقابر سالمة. كانت حجرة الدفن مشيدة فى أعماق بئر ذات مقطع ضخم. وكانت هذه البئر تملأ بالرمال بعد الإنتهاء من وضع التابوت والأثاث. وكان سقف حجرة الدفن يحتوى على أوانى خزفية تكسر قعورها عند الإنتهاء من عملية الدفن، الأمر الذى يسمح للرمال بأن تملأ الحجرة. وكان آخر القائمين بمراسم الدفن يهربون من خلال بئر جانبية، ذات مقطع صغير، كانت تملأ هى أيضاً بالرمال بعد صعودهم. ومن هناك ندرك استحالة الدخول إلى حجرة الدفن، أياً كانت الطرق التى يسلكها اللصوص (سواء عبر الآبار القائمة أو من خلال ممرات اللصوص)،، إذ سوف تعود الرمال كلما حاول أحدهم أن يفرغها.

ولدينا نموذج جميل للعمارة الجنائزية التى ترجع إلى الأسرة الحادية والثلاثين تتمثل فى مقبرة «بتوزيريس»، فى تونا الجبل، وهى جبانة «هرموپوليس» (الأشمونين، حاليا) وتبدو المقبرة وكأنها معبد مصغر بواجهة ذات الحوائط النصفية وفقاً لنموذج سوف تأخذ به المعابد البطلمية. والهيكل، بحصر المعنى، حيث تقام شعائر القربان، يتقدمه فناء بأعمدة. وفى أرضية الهيكل توجد بئر تفضى إلى حجرة الدفن التى وجد فيها التابوت الرائع، الموجود حالياً فى متحف القاهرة، والذى صنعت مدوناته الهيروغليفية من عجينة الزجاج المرصعة فى الخشب الملون بالأسود. ان زخارف هذه المقبرة فريدة على نحو خاص: أنها تبرز تحولاً فى طريقة تجسيد الموضوعات، التى تظل مع ذلك مصرية تماماً (أعمال الحقل، وموكب حاملى القرابين...) أن التأثير اليونانى ملحوظ فى أسلوب الإفراط فى الزخارف، وفى حركة الأشخاص، الذين يصورون من الأمام فى الغالب، إلي جانب بعض المشاهد الشبيهة إلى حد كبير بالمشاهد التى تزخرف اللوحات الجنائزية اليونانية.

وفى هذا العصر أيضاً حفرت مقابر عديدة فى الجرف المطل على الوادى. وهى فى الغالب حجرات دفن بسيطة بلا زخارف. ومن ناحية أخرى تم الكشف فى جبانة سيوه على مقابر جميلة مرسومة، تعود إلى هذا العصر، مثل مقبرة «سى آمون»، فموضوعاتها مصرية، فى حين أن بعض عناصر الزخارف وأيضاً ملابس المتوفى وأفراد عائلته تنم عن تأثيرات أجنبية (ليبية؟).

وتجدر الإشارة إلي أن صورة العالم الآخر فى ذلك العصر، قد تميزت بطابع «أخلاقى» واضح، كما يتبين من نصوص مقبرة «پتوزيريس»:

«الأمنتى» هى دار من هو بلا خطيئة: طوبى لمن يصل إليها! لا أحد يصل إليها إلا صاحب القلب القادر على ممارسة العدالة. هناك، لاتمييز بين فقير وغنى، إلا لصالح من وُجد بلا خطيئة، عندما يكون الميزان والوزنة أمام رب الأبدية...

(Trad. G. Lefebvre)

الفصل السادس

العصران اليونانى والرومانى

يسجل غزو الإسكندر لمصر إنعطافاً فى تاريخ البلاد. لقد أسس الغزاة المقدونيون أسرة جديدة، هى أسرة اللاجيين (والكلمة مشتقة من اسم القائد «بطليموس» بن «لاجوس» الذى تسلم مقاليد الحكم تحت اسم بطليموس الأول) كما أسسوا عاصمة جديدة هى الإسكندرية.

وعلى امتداد ثلاثة قرون تقريباً، عرفت مصر عصراً من الإستقرار النسبى. لقد وصلت براعة الغزاة حداً جعلهم لا يُغَيِّرون بنيان البلاد، فراعوا مجمل تقاليدها وأعرافها، لاسيما على الصعيد الدينى، الذى لم يعتره تغير يذكر. ومع ذلك، فمن الواضح أن الإغريق قد أمسكوا بزمام الأمور، فى بداية الأمر على الأقل، وفرضوا لغتهم على البلاد لغةً للإدارة، الأمر الذى أكره المصريين على أن يصطبغوا بالصبغة اليونانية، ولو جزئياً. إن الجماعات الأجنبية الى استقرت فى مصر (من إغريق ويهود وفرس وسوريين...) قد جلبت معها آلهتها التى تعايشت جنباً إلى جنب مع آلهة الديانة التقليدية، التى كانت لاتزال حية. وهكذا تشكل مجتمع أشبه بما نطلق عليه فى الوقت الراهن مجتمعاً متعدد الثقافات.

وفى مجال الممارسات الجنائزية، نلاحظ ان الإغريق وإن استمروا فى بداية الأمر يحرقون جثث موتاتهم، عملاً بأعرافهم، إلا أنهم أخذوا تدريجياً بعادات أهل البلد. وفيما بعد بعدة قرون، سيحذو الرومان حذوهم، الأمر الذى يبين بوضوح قوة النموذج المصرى للموت وجاذبيته.

(١) التحنيط فى العصر اليونانى الرومانى

إن الذى ساد هذا العصر وهيمن عليه، لا ينسحب على التقدم التقنى، بقدر ما يرتبط بالتوسع فى التحنيط، حتى أن جميع شرائح المجتمع قد أخذت به، من الناحية العملية.

وهكذا ازدادت أعداد المومياوات زيادة كبيرة. كما أن علينا أن نأخذ بعين الإعتبار الزيادة السكانية (إذ يقدر عدد سكان مصر مع مطلع التقويم الميلادى بثمانية ملايين نسمة مقابل حوالى خمسة ملايين فى ظل الدولة الحديثة)، ومن ناحية أخرى، وحيث أن هذه المومياوات كانت أقل قدماً، فان حظها فى البقاء سالمة كان أوفر. وعلى كل حال، نلاحظ ازدحام الجبانات، والتوسع فى إعادة استخدام المقابر القديمة. وهكذا نرى فى منطقة طيبة، أن العديد من مقابر دير المدينة ووادى الملكات التى ترجع الى الدولة الحديثة قد حشرت فيها المومياوات حشراً، بكل معنى الكلمة، فى العصر الرومانى، وان هذه المومياوات مجهولة الصاحب.

ولم تتغير تقنيات التحنيط خلال هذا العصر: فالذى تطور، هو النسبة التى تخص كل صنف من أصناف المعالجات المعمول بها. وهكذا ونظراً لانتشار التحنيط بين الشرائح الأكثر فقراً من سواد الشعب، تزايدت الأهمية النسبية لأبسط التقنيات وأسرعها، وهو ما دفع البعض الى الظن بأن مستوى التحنيط قد تدنى. وهذا القول أبعد ما يكون عن الحقيقة، لأن الأمثلة كثيرة على مومياوات ذات مستوى رفيع، وهو ما تبينه الدراسات على المومياوات التى تحتفظ بها المتاحف (راجع «جريى» GRAY و «داوسـون» Dowson أو «داڤيد A.R.David) وأيضاً الدراسات التى فى زمن أقرب إلينا على مومياوات جبانات «دوش» و «عين لباخا» فى الواحات الخارجة (دونان ولشتنبرج Dunand et Lichten-berg).

إن أكثر الطرائق انتشاراً فى هذا العصر هى الطريقة التى تنتج مومياوات «سوداء»، وهى التى تتطابق بلاشك مع الصنف الثانى من انواع التحنيط كما وصفها «هيرورت». فعندما يصور جسد المتوفى فى كتب الموتى، اعتباراً من الدولة الحديثة، وأيضاً على التوابيت أو الأكفان المرسومة فى الأزمنة المتأخرة، فإن هذا الجسد يظهر باللون الأسود، وهو ما يشهد على قدم هذه التقنية. ومع ذلك فهذا النوع من الصور نادر جداً، إذ يصور المتوفى فى الغالب ككائن حى. ان المادة المسئولة عن اللون الأسود، والتى كانت معروفة ومستخدمة فى العصور السابقة، والتى مازالت خواصها الكيمائية ومصدرها محل جدال، من المحتمل أنها قد تغيرت بتغير المناطق والعصور. ويعتقد البعض ان هذه المادة هى القار الذى تم جلبه من البحر الميت على ما يرجح، فى حين يعتقد البعض الآخر انه منتج نباتى اكتسب لونه الأسود نتيجة التحولات الكيمائية التى طرأت عليه على مر الزمان. ان استعمال المواد النباتية المجلوبة من الشرق الأوسط (زيت الأرز على سبيل المثال) تؤكده وثائق من العصر البطلمى التى تذكر ان الدولة توفر منها كميات محدودة للمحنطين،الذين

يتولون بدورهم توزيعها على زبائنهم. ورغم ان هذه المومياوات «السوداء» هي أقل جمالاً في مظهرها من المومياوات «البيضاء» التقليدية، إلا انها على قدر معقول من الحفظ، وان لم تستخرج أحشاؤها. لقد برهنت خبرتنا المستمدة من جبانة «دوش» على أن المومياوات «السوداء» المكتشفة في هذا الموقع لم يتم في الغالب استخراج أحشائها. ان الأظافر وشعر الرأس وشعر البشرة في حالة جيدة ويمكن التعرف على الأعضاء التي بقيت في مكانها كالرئتين والكبد. وكان في وسعنا بفضل دراستها بالأشعة ان نؤكد هذه الحقائق وازدياد وجه الشبه بين هذه المومياوات وتلك التي تم اعدادها بأسلوب الصنف الأول من التحنيط، التي عثرنا أيضاً على أمثلة لها في هذا الموقع.

ومن السمات المميزة لمومياوات هذا العصر انها تبدو أحياناً «منتفخة»، الأمر الذي يعطيها حجماً مماثلاً تقريباً لحجم الكائن الحي. وتوجد مسافة بين الأغشية والهيكل العظمي. انه فراغ جاءت الدراسة بالأشعة لتؤكده. وربما حدث هذا الانتفاخ، وهو أمر نادر جداً، نتيجة لبداية عملية تعفن توقفت بسبب عملية إزالة الماء من الجسد، فليس من الأمور النادرة ان نصادف في البلدان الجدبة حيوانات نافقة في الصحراء وقد أخذت هذا المظهر الخاص. ويمكن القول انه سباق حقيقي بين عمليتي إزالة الماء من الجسد وتعفنه.

وفي نفس سياق الأفكار هذا، نلاحظ أن العديد من المومياوات تُظهر علاقات معالجة متسرعة، وناقصة أو تمت في وقت متأخر جداً. ان هذه المعالجة المتسرعة تجد تفسيراً لها في العدد الضخم من الأجساد المطلوب معالجتها في آن واحد. ودعك من المومياوات التي انفصلت رؤوسها، وهو ما قد يحدث أثناء عملية التحنيط كما يشهد على ذلك «الجريد» الذي عثر عليه في القناة الفقارية وفي تجويف الجمجمة وكانت الغاية منه تدعيم الرأس والجذع الى حد ما.

وفي أدنى سلم الجودة، توجد أشباه المومياوات، ذات المظهر اللائق ولكنه زائف، فإذا ما انتزعت الأكفان الجنائزية، عثر على مزيج مذهل من العظام، يعود لعدة أشخاص أحياناً، وهو ما لا يستحق أن يوصف بالمومياء.

وأخيراً، يتصادف ان «المومياوات» ذات المظهر اللائق، لا تحتوي في حقيقة الأمر سوى على عناصر صناعية غير آدمية. وقد تعود هذه المومياوات الزائفة الى العصور القديمة ونتجت عن ضياع الجثمان عند المحنط أو إتلافه. كان المحنط إذن يضع هذه البدائل، لخداع أهل المتوفى. ومن الصعب أحياناً التمييز بين هذه المومياوات الزائفة والتقليد الحديث الذي يصنع لأغراض تجارية، عندما انتشر الولع بالآثار. ونعرف جميعاً

ان الرحالة، كانوا خلال القرن السابع عشر يعودون من مصر ومعهم مومياوات لتأخذ مكانها فى «متحفهم الخاص».

أما هيئة المومياوات، فلم يطرأ عليها سوى تغيير محدود، فالأطراف منبسطة فى المعتاد، والأطراف العليا على امتداد الوجه الخارجى من الفخذين. واليدان موضوعتان عند الصبية فوق الأعضاء التناسلية وعند الإنسان البالغ نلاحظ أيضا، ولكن فى النادر، ان الأطراف العليا تتقاطع فى الوضع الأوزيرى أو أن الساعد الأيمن على امتداد الجسد، فى حين ينثنى الساعد الأيسر بزاوية قائمة أمام البطن. ويمكن ملاحظة هذا الوضع فى زمن سابق ومنذ الدولة الحديثة، وفوق غطاء التوابيت على الأقل، ونذكر على سبيل المثال، ما نشاهده على غطاء تابوت السيدة «إيزيس» الذى عثر عليه فى مقبرة «سن نجم» بدير المدينة.

وهناك عادة تذهيب الجسد التى تبدو من خصائص العصر اليونانى الرومانى. ومنذ العصر اليونانى كان القوم يذهّبون أحياناً جفون وشفاه وأظافر بعض الموتى: وقد وصلتنا أمثلة على ذلك من جبانة كهنة فيلة، وفى العصر الرومانى تثبت على البشرة مباشرة رقائق من الذهب بحيث تغطى جزئياً على الأقل الرأس والأطراف. وقد عثر على مواامياوات من هذا النوع فى «أنطينوه» (الشيخ عبادة، حالياً – م)، وفى الجبانة الطيبية ومؤخراً أيضا فى جبانة دوش. وإن كانت هذه العادة فيما تبدو لنا محدودة جداً من حيث انتشارها : فمن بين ٣٤٥ مومياء تم تسجيلها فى دوش، نجد أن اثنتى عشرة مومياءً فقط كانت تبدو عليها آثار التذهيب. ومع ذلك فإن دراستنا الحديثة حول مومياوات جبانة العصر الرومانى فى عين لباخا (على بعد ٤٠ كم الى الشمال الغربى من مدينة الخارجة) قد سمحت لنا بتحديد ثمانى مومياوات تحمل آثار ذهب وذلك من بين أربعة وأربعين حالة تم دراستها وهو أمر شديد الأهمية. وربما كانت النسبة أكبر من ذلك بكثير، لأن أكثر من اثنتى عشرة مومياء قد احتفظت بالكامل باللفائف التى تدثرها، الأمر الذى يحول فى الوقت الراهن دون التوصل الى حكم نهائى. إن استخدام التذهيب يتناسب عادة ومدى اتقان التحنيط والارتفاع النسبى فى مستوى الأثاث الجنائزى. وفى وسعنا إذن ان نميل الى الاعتقاد انها كانت عادة قاصرة على الأعيان ولم تكن هذه العادة وقفاً على البالغين، إذ توجد أيضا على مومياوات الأطفال فى عدد من الحالات ليست بالقليلة، ولاسيما على مومياوين من مومياوات المتحف البريطانى British Museum (no Inv. 30362 - 30363) وعلى مومياء من دوش ومومياوين من عين لاباخا. ان لهذه العادة دلالة ذات طابع دينى: فالذهب

هو «لحم الآلهة»، وبصفته هذا يمنح المتوفى صفة إلهية. ويمكن النظر الى هذا التذهيب على اعتباره المقابل للأقنعة الذهبية الخاصة بالفراعنة. إن سفر شعيرة التحنيط الذى ظل يعاد نسخه حتى العصر الرومانى، يعد المتوفى بما يلى:

«سوف تتجلى ككائن من ذهب. سوف تتألق مثل الإلكتروم»

نقلا عن الترجمة الفرنسية (trad .J.C.Goyon)

بلغت العناية بلف المومياء باللفائف شأواً عظيماً فى العصر البطلمى وفى العصر الرومانى على وجه التحديد. كانت اللفائف ضيقة جداً فى الغالب (فيبلغ عرضها سنتيمترين فقط) فكانت تنسج إذن خصيصاً لهذا الغرض،الأمر الذى يسمح بتكوين نماذج هندسية معقدة كالمعّين أو المربعات أو «السلالم». ومما يزيد من أثرها الزخرفى استخدام ألوان متنوعة، لاسيما الأبيض والأسود والأحمر (بدءاً من الأحمر الفاتح وصولاً إلى الأحمر الطوبى الغامق). وفى وسط هذه النماذج، توضع فى الغالب رصائع من الجص المذهب، والمومياوات التى عثر عليها بترى Petrie فى هوارة هى خير مثال على ذلك.

وفى بعض الأحوال، كسيت المومياوات بنسيج يلتصق تماماً بالجسد وتركت الأطراف حرة. ان مومياءً من العصر الرومانى موجودة فى المتحف البريطانى، وقد تم اعدادها بكل عناية، لتعتبر مثالاً حياً على ذلك. (Inv. 6704). إن هذه التقنية لتذكرنا بمظهر بعض مومياوات الدولة القديمة.

ومع ذلك، يظل «إلباس» المومياوات فى كثير من الأحوال على قدر من البساطة. فالجسد مدثر بعدة أكفان ثبّتت فى مكانها بواسطة أشرطة من النسيج عريضة الى حد ما، و «اللفائف» ليست فى هذه الحالة سوى مجرد أربطة من النسيج الممزق وليس لها حاشية أو أطراف. وإذا كانت الأكفان الخارجية هى من النوع الجيد فى المعتاد، ومطرزة ولها هدّاب وحاشية مشرجة (والعامة تقول مسرجة – م.)، فان الأقمشة غير المرئية هى فى الغالب رديئة جداً، ومرقعة، وصلت بعضها ببعض بواسطة خياطة خشنة. وبين طبقات الأكفان وضعت كميات من الأقمشة المغضنة والشاش والملابس القديمة لتزيد من حجم «الرزمة» التى تشكل المومياء. وهكذا فقد عثر فى دوش بين طبقات أكفان طفل يبلغ السابعة من عمره على فستان مطرز مستعمل لفتاة بالغة، وربما كان لوالدة الغلام. ان فك اربطة مومياء يحتفظ بها متحفظ التاريخ الطبيعى بمدينة ليون الفرنسية يوفر لنا مثالاً آخر عن «استعادة» اقمشة مستخدمة. لقد أشرف على ذلك العالمان «جويون» J.C.Goyon شكل (٢١) .



شكل (٢١) . سروال مزركش، دوش، المقبرة رقم (٢٠)

و«چوسيه» P.Josset فعثرا على أجزاء كبيرة من شراع سفينة، وهو ما لا يعنى بالضرورة ان صاحب المومياء كان ملاحاً...

كما عثر أيضاً وسط الأكفان، مثلما كان يحدث فى العصور السابقة، على تمائم الغرض منها ضمان حماية أعضاء المتوفى. وكان جعران للقلب لا يزال مستخدماً. ومع ذلك، وبشكل عام، يبدو أن عدد هذه التمائم قد تناقص: وبوجه عام فإن الحفائر الحديثة فى جبانات العصر اليونانى الرومانى لا تشير الى وجودها. ومع ذلك، فإن بين نماذج التمائم التى لا حصر لها الموجودة فى المتاحف أو ضمن المجموعات الخاصة، الكثير الذى قد يرجع تاريخه الى هذاالعصر ويعود الى مقابر سلبت ونهبت.

ويمكن أن نستكمل حلىّ المومياء بشبكة من الخرز المصنوع من القاشانى، المستطيل الشكل، ولونه فى المعتاد أخضر أو أزرق فيروزى. وكان فى الإمكان أن تطعم عيون الشبكة التى على شكل معيّن، بعناصر أكثر اتقاناً، متعددة الألوان، صنعت من الخرز أو من رقائق من القاشانى. وقد تمثل هذه الصور ابناء «حورس» أو العمود «چد»، أو الجعران أو أيضا «أنوبيس»، على هيئة ابن آوى. ويبدو أن هذه العادة كانت ترجع الى الأسرة الخامسة والعشرين، بل وربما الى الأسرة الحادية والعشرين. وفى الأزمنة المتأخرة، على وجه التحديد، ولاسباب تتعلق بالتكلفة، كان يكتفى فى الغالب برسم شبكة من الخرز على الكارتوناچ أو على الكفن الخارجى. وفى العصر المتأخر، يظهر «أوزيريس» فى صوره فى الغالب وهو يرتدى كفناً بزخارف على شكل معيّن.

(٢) التوابيت والكارتوناچ

ويظل استخدام التوابيت أمراً شائعاً. وحتى العصر الرومانى، توجد توابيت من خشب على هيئة آدمية، ولكن استخدامها أخذ يتناقص وهى بوجه عام على هيئة صندوق، غطاؤها مسطح أو مستدير أو جمالونى. ويمكن ان يكون التابوت مزخرفاً أو غير مزخرف، فى الداخل أو فى الخارج. ان الجانب الصغير لبعض التوابيت هو على هيئة واجهة معبد بباب زالق يكتنفه عمودان ويعلوه إفريز. وكان هذا الباب يتيح فتح التابوت وادخال مومياء رضيع الى جانب أمه على سبيل المثال، كما هو الحال بالنسبة لتابوت عثر عليه فى مقبرة

(غير مسيحية) في جبانة البجوات، ويرجع الى القرن الرابع الميلادى. والزخارف هي في الأغلب زخارف ذات موضوعات تقليدية: «أنوبيس» مقعياً*، وأبناء حورس و «أوزيريس» في جلاله، والمتوفى مسجى فوق سريره الجنائزي، تحيط به النائحات. وعلى السطح الداخلي لغطاء تابوت «پوليوس سوتر» Pollios Soter، حاكم طيبة، في عهد الإمبراطور «تراچان» (٩٨– ١١٧) صورت الإلهة نوت، من الأمام، وهي واقفة، وهو عنصر زخرفي بدأ في الظهور منذ الأسرة الثانية والعشرين، ولكن يحيط بالإلهة دائرة بروج (زودياك) ذا طابع روماني على نحو خاص. إن الجمع بين عناصر زخرفية مصرية وأخرى يونانية رومانية لهو أمر ملفت للنظر: فقد يصور المتوفى في صورة يونانية، مرتدياً قميصاً طويلاً واضعاً فوق رأسه إكليلاً من الزهور، ولكن تحيط به «إيزيس» و «نفتيس». وعلى سطح تابوت من مجدولة (الفيوم) في وسعنا أن نشاهد على الجانبين الصغيرين قِردة وصورا لأنوبيس وعلى الجانبين الطويلين عناصر زخرفية يونانية تتكون من ضفائر من أوراق الشجر وجماجم ثيران. وفي نفس الوقت، نجد في الإسكندرية، على وجه التحديد، توابيت من حجر ذات طابع يوناني محض، وقد تكون أحياناً غير مزخرفة،وقد تحمل أحياناً أخرى زخارف مستعارة من الميثولوجيا الإغريقية. وهكذا فقد صورت أسطورة ديونيزوس وأريان على سطوح تابوت آية في الجمال عثر عليه في المكس (وهو من أحياء الإسكندرية).

وشاع أيضاً في العصر الروماني استخدام «خزائن المومياء». إنها عبارة عن دولاب له بابان، لا يفتح أحياناً سوى جانبهما العلوي، فيسمح بالتالي بمشاهدة المومياء (أو الرأس فقط) مرتدية الكارتوناچ! وهذا النوع من الخزائن لم يكن الغرض منه على ما يبدو ان يوضع في المقبرة بل بالأحرى في المنزل، ريثما تقام مراسم الدفن. ويشير بعض الكتاب الكلاسيكيين القدماء من أمثال ديودورس الصقلي (٩٠ – ٢٠ ق.م) وشيشرون (١٠٦– ٤٣ ق. م) إلى هذه العادة المصرية في حفظ مومياء الأقارب المتوفين في المنزل، وذلك من باب الإستغراب والإندهاش من هذه العادة. وقد عثر على «خزائن» من هذا النوع في أبوصير الملق.

وعرف استخدام الكارتوناچ في العصرين البطلمي والروماني رواجاً عظيماً . وفي العصر البطلمي بدلاً من أن يحتوي المومياءَ صندوقُها المصنوع من النسيج أو البردى المجصى، فانها تغطى في المعتاد برقائق من الكارتوناچ قطعت على شكل الزخارف، وهو

* أى جالسا على مؤخرته ومرتكزاً على ذراعيه. (المترجم).

ما يحدد حقيقة إطار الموضوع الزخرفى. وتثّبت هذه الرقائق فى مكانها بواسطة مشابك (أو بواسطة أشرطة) فى الأماكن التى تحددهاالشعائر: وهكذا فإن القلادة «أوسخ» (وهى قلادة كبيرة من الأزهار برؤوس صقر) توضع عند قاعدة الرقبة، فى حين أن صورة «نوت» المجنحة توضع فى مكان أدنى، عند مستوى الواجهة الأمامية للقفص الصدرى. ويغطى الرأس بقناع قد يكون مذهباً، والقدمان موضوعان فى «صندوق للقدمين» مزخرف فى المعتاد على الواجهة الأمامية بصورة «أنوبيس» مقعيا وعلى النعلين صور للأسرى أو أشكال هندسية فى الغالب (رقعة داما متعددة الألوان، وأصداف...)

وفى هذا العصر، كان الكارتوناچ يصنع فى الغالب من عدة طبقات من البردى المضغوط ضغطاً قوياً، فيعطى لهذه المادة صلابتها المعهودة. ودفعت هذه الممارسة علماء الآثار الى استعادة البرديات التى تشكل الكارتوناچ للإستفادة من النصوص التى مازالت موجودة عليها، ولكن حساب الشىء ذاته للأسف. ووصلتنا مومياء من جبانة دوش لم تحتج إلى هذا الضرب من العمليات: إذ وجدنا أنفسنا أمام أمر غير معهود، فقد كانت المومياء تحمل، جزءاً كبيراً من بردية يونانية، ملتصقة بالصدر، ومازلنا لا نجد تفسيراً لذلك: فالبردية تضم قائمة الضرائب العينية التى سددها سكان قرية دوش عند مطلع القرن الثانى قبل الميلاد.

وفى العصر الرومانى طرأت تعديلات جديدة: فقد اختفت رقائق قطع الكارتوناچ ليحل محلها كارتوناچ بالكامل يأخذ فى الغالب شكلاً يشبه صندوقا له غطاء. ويشكل وجه المتوفى وساعداه ويداه بالجص السميك بل يبدو أحيانا الجسد بأكمله على هيئة نحت بارز: وهكذا، نشاهد إحدى النساء التى توفيت وقد صورت على كارتوناچ من أبى صير الملق، يرجع الى القرن الأول الميلادى، وهى ترتدى ثوباً ومعطفاً لصيقاً، ولدينا مجموعة من النماذج تعود الى أزمنة لاحقة عثر عليها فى الغالب فى أخميم وتصور المتوفين بثيابهم اليومية وقد ارتدت النساء فساتين ذات زخارف هندسية وارتدى الرجال قمصانا لها اكمام ومعاطف تلتف بثناياها فوق الكتف الأيسر. وفى حالات أخرى، فإن جذع المتوفى أو المتوفاة وحده، هو الذى تم تشكيله حسب نفس التقنية، ليطوق بالأشرطة. وأفضل الأمثلة على ذلك هى جذوع «مير» ذات الوجوه المزدانة بمساحيق التجميل بشكل مبالغ فيه، والتى يحتفظ بها متحف القاهرة. وفى حالات أخرى، يستطيل القناع على هيئة صدرية ملونة ثبتت على المومياء بسيور. وقد زخرفت الصدرية فى معظم الأحوال بمشاهد جنائزية تقليدية موزعة على عدة صفوف. والقناع مغطى بالجص السميك ومذهب. شكل (٢٣)

كما كانت الأقنعة ذات النمط المصرى لاتزال منتشرة فى صدر العصر الرومانى، فقد بدأ تدريجياً استخدام الأقنعة الجصية السميكة، والأكثر واقعية وهى فى الغالب أقنعة على قدر كبير من التفرد. انها مرصعة فى المعتاد بعيون مصنوعة من عجينة الزجاج، والوجوه ملونة بألوان تشبه ألوان الإنسان الحى. وعلى غرار الأقنعة المصنوعة من الكارتوناچ، فقد ثبتت فى مكانها بواسطة أشرطة. هذا الإنتاج الغزير،الذى يظهر بوضوح فى مدينة «أنطنوه» (الشيخ عبادة حاليا – م.) على نحو خاص، استمر حتى مطلع القرن الرابع الميلادى.

وجنبا الى جنب مع ما سبق، واعتباراً من القرن الأول للميلاد، ظهرت فى مصر صور شخصية جنائزية، رسمت فى بداية الأمر على القماش، ثم على الخشب فى المقام الأول، بألوان مائية أو باللون الشمعى، وعرفت باسم «بورتريهات الفيوم» (فالفيوم هى التى امدتنا بمعظمها وبأعداد كبيرة). ووفر لنا هذا التقليد، امكانية مشاهدة معرض دائم حقيقى للصور الشخصية، وإن كانت نمطية أحياناً، وذات قوالب جامدة، ولكنها على قدر كبير من الواقعية والقيمة الجمالية. انها تقنية رومانية، ولايربطها شىء بالتقاليد المصرية. ومن المحتمل أن بعض هذه التصاوير قد نفذت عندما كان أصحابها على قيد الحياة. ويمكن أن نأخذ بالرأى القائل انها كانت تعرض آنذاك فى المساكن، قبل أن توضع فى مكانها فوق المومياء. ان نموذج لصورة شخصية ترجع الى مطلع القرن الثالث الميلادى ويحتفظ بها متحف «جيتى» J.P.Getty ليوضح الأمر بجلاء: إذ وجد محاطاً بصورة للإله «سيرابيس» وبصورة أخرى للإلهة «إيزيس» ليشكلوا لوحة ثلاثية المشاهد.

وفى العصر الرومانى انتشرت الى حدّ ما الأكفان المرسومة،وترجع بعض نماذجهاالى الدولة الحديثة. وقد حلت هذه الأكفان بلاشك محل الكارتوناچ أو التوابيت الضخمة. انها تصور فى المعتاد المتوفى كاملاً، ويحيط به «أوزيريس» و «أنوبيس». وتحيط بالمشهد الرئيسى «لوحات» صغيرة، تصور موضوعات تقليدية، وآلهة جنائزية واشياء رمزية الخ... وقد وصلتنا مجموعة هامة من «أنطنوه». ويمكن ان يرجع تاريخها الى القرن الثالث والرابع الميلادى، وتصور على نحو خاص نساءً يرتدين حلياً جميلة منها الصليب ذو العروة، الأمر الذى دفع البعض الى افتراض أصول مسيحية لهؤلاء الأفراد، ولكن يبدو أن هذا الإفتراض مستبعد.

إن أغلفة المومياوات ذات الزخارف المرسومة التى ترجع إلى أزمنة متأخرة جداً، هى بلا أدنى شك، تلك التى تم الكشف عنها فى مجموعة معبد حتشبسوت فى الدير البحرى:

والقناع المغطى بالجص يمتد على هيئة مستطيل من القماش الملون، وتم وصله بالكفن بخياطة غير متقنة، وصور على هذا المستطيل موضوع قديم جداً، يمثل مركب «سوكر». ولا يمكن أن تعود هذه الأكفان المزخرفة، ذات النمط المتكرر، الى تاريخ سابق على القرن الرابع الميلادى.

وفى العصر اليونانى الرومانى، كثيرا ما نجد فى المقابر أقراصاً تحمل مدونات (ويطلق عليها أيضا hypocéphales)* مصنوعة من نسيج مغطى بالجص أو البردى بل من البرونز، وموضوعة تحت رأس المتوفى (ومن هنا جاء اسمها) وفى المعتاد فإن الموضوعات المصورة على سطوحها، تتكون من البقرة السماوية، وأبناء حورس، وآمون - رع، على هيئة كائن له أربعة رؤوس كباش، وبعض الرموز الشمسية الأخرى المتنوعة.

والنص المدون هو نص الفصل ١٦٢ من كتاب الموتى، إنه ابتهال، تنطق به البقرة من الناحية المبدئية حتى «يأتى اللهب تحت رأس المتوفى»، أى يحتفظ بدفئه فى العالم الآخر.

(٣) المقابر

أما المقابر فلم تتطور إلا قليلاً. ولنطرح جانباً مشكلة المقابر الملكية البطلمية: إذ لم يعثر عليها أبداً، زد على ذلك، أننا لم نعثر أيضاً على مقبرة الاسكندر التى نعرف على كل حال (استناداً إلى تقليد متواتر) ان جثمانه قد أعيد الى الاسكندرية حيث كان يعرض فى تابوت من زجاج. وهو ما يشير ضمنا أن الجسد كان قد تم تحنيطه.

وتعتبر مقبرة «پتوزيريس» حالة خاصة متميزة. كان «پتوزيريس» كبير كهنة تحوت فى «هرموپوليس ماجنا» (الأشمونين، حالياً) فى السنوات ٣٤٠ - ٣٣٠ ق. م. ومقبرته أشبه بمعبد مصغر، له بهو أساطين ومجازات محاطة بحوائط نصفية وهو النمط الذى سيعم وينتشر فى العصر البطلمى. وحجرة الدفن موجودة فى قاع بئر عميقة تفضى فتحتها العلوية الى الهيكل. والزخارف الداخلية لبهو الأساطين والهيكل على قدر كبير من الأصالة وهى زخارف مركبة، فتعالج مشاهد تقليدية مصرية وفقاً للقواعد اليونانية. وتتكون

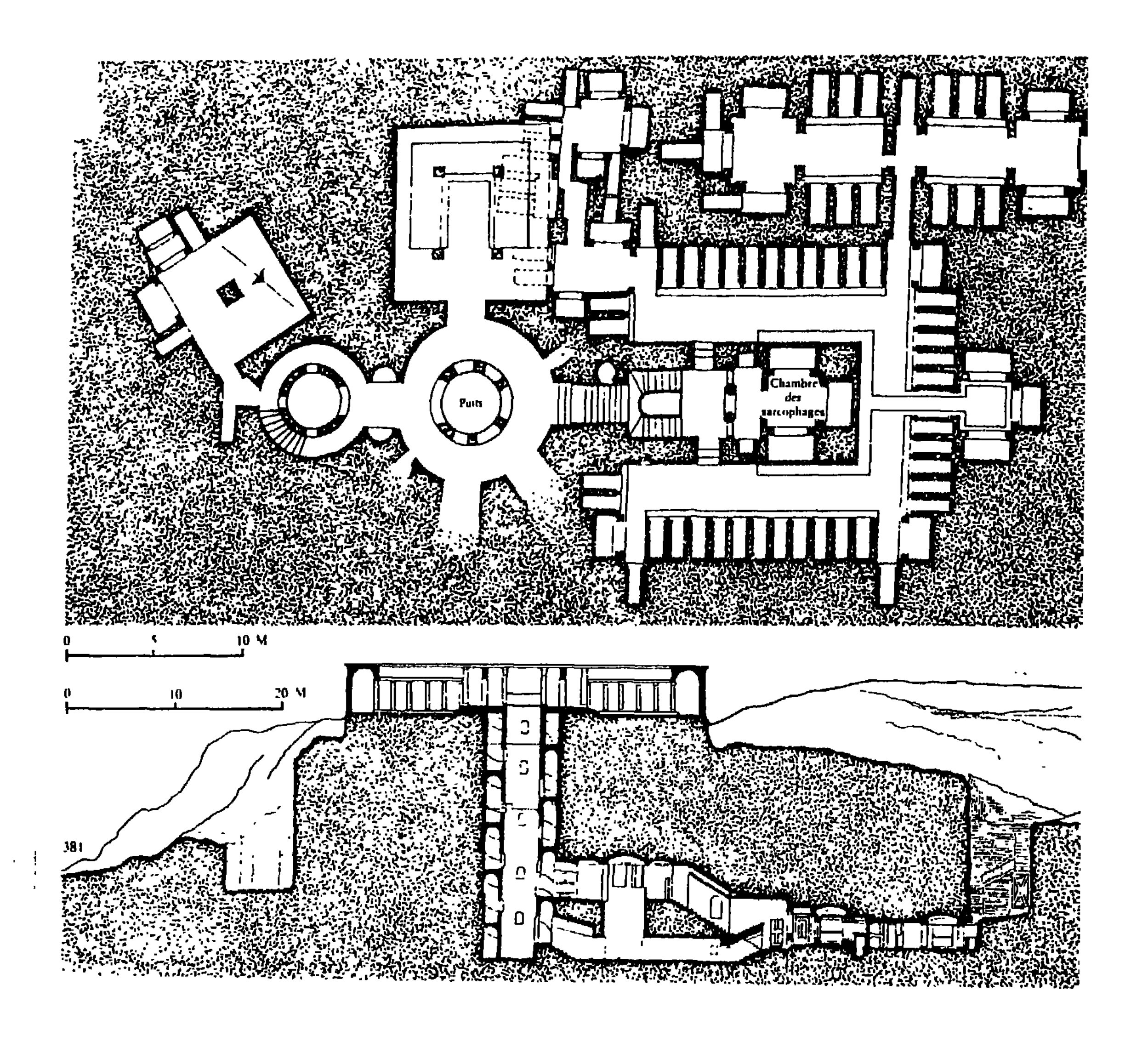
* وهى كلمة مكونة من مقطعين: hypo ويعنى تحت و céphale ويعنى الرأس. (المترجم).

النصوص المنقوشة على الحوائط من ابتهالات إلى الأحياء ونصائح إلى البشر ليحيوا حياة مستقيمة. والتابوت آية فى الجمال، وموجود الآن في متحف القاهرة، ومزخرف بعلامات هيروغليفية، صنعت من عجينة الزجاج الملون، ورصع بها الخشب الملون بالأسود.

وتوفر لنا جبانات الأفراد العديدة قائمة وافية بمختلف فئات الدفنات. وتنتشر جبانات الإسكندرية على امتداد الشاطىء، من الشرق الى الغرب، وبعضها أقرب ما يكون الى سراديب الموتى (أى الكتاكومب). والحجرات الجنائزية متعددة وتضم إما «أرائك» توضع عليها التوابيت أو كوات لتوضع فيها الأوانى الجنائزية، إذ كان القوم يقومون فى كثير من الأحوال بحرق الجثث عملاً بالأعراف اليونانية. وقد زخرفت بعض هذه المقابر بزخارف جدارية تختلط فيها العناصر اليونانية والمصرية، ويضم بعضها الآخر لوحات حجرية جنائزية على النمط اليونانى المحض.

إن مقبرة كتاكومب كوم الشقافة هى من الناحية المعمارية، المجموعة الجنائزية التى تشد اهتمامنا اكثر من غيرها: إنها عبارة عن مقبرة ضخمة محفورة فى الصخر وموزعة على ثلاثة مستويات، وقد شيدت فيما بين القرن الاول والقرن الرابع من التقويم الميلادى. ويتكون البناء العلوى من رواق وأسفله يبدأ سلم حلزونى، يفضى الى المقبرة الرئيسية القائمة عند المستوى الثانى. ان تنسيقها شديد الشبه بتنسيق مقبرة من العصر الفرعونى، بهيكلها الذى يضم تمثالى الزوجين المتوفيين وقد وضعا فى حنيتين، وحجرة جنائزية ذات زخارف تقليدية، كان يوجد بها ثلاثة توابيت، يونانية الطراز، بكل وضوح. وهذه المجموعة محاطة بدهليز عريض تنفتح عليه عيون سدّت ببلاطات ضخمة، وتتسع لثلاثمائة متوف. وتوجد أروقة مجاورة تتيح للمرء أن يصل إلى مجموعات أخرى من المقابر. وفى هذه المجموعة الشاسعة توجد مختلف انماط الدفنات جنبا الى جنب: دفنات فردية فى توابيت، اوانى من الطين المحروق أو حفر محفورة فى الأرض، ودفنات جماعية فى أقبية. شكل (٢٢)

إن جبانة «ترنوتيس» (كوم أبو بللو، حالياً. م.)، فى القسم الغربى من الدلتا، تضم عدداً من الهياكل الجنائزية متنوعة الأحجام والأنماط وموزعة فى فوضى تامة فوق مساحة شاسعة. وتنطوى الأهمية الرئيسية لهذه الجبانة فى وجود مئات اللوحات الجنائزية من النوع المختلط، اليونانى المصرى، حيث يصور المتوفى فى أغلب الأحوال فى وضع المصلى. وفى وقت لاحق، ستعود الإيقونوغرافيا المسيحية، فى أغلب الأحوال، إلى تبنى هذا الوضع.



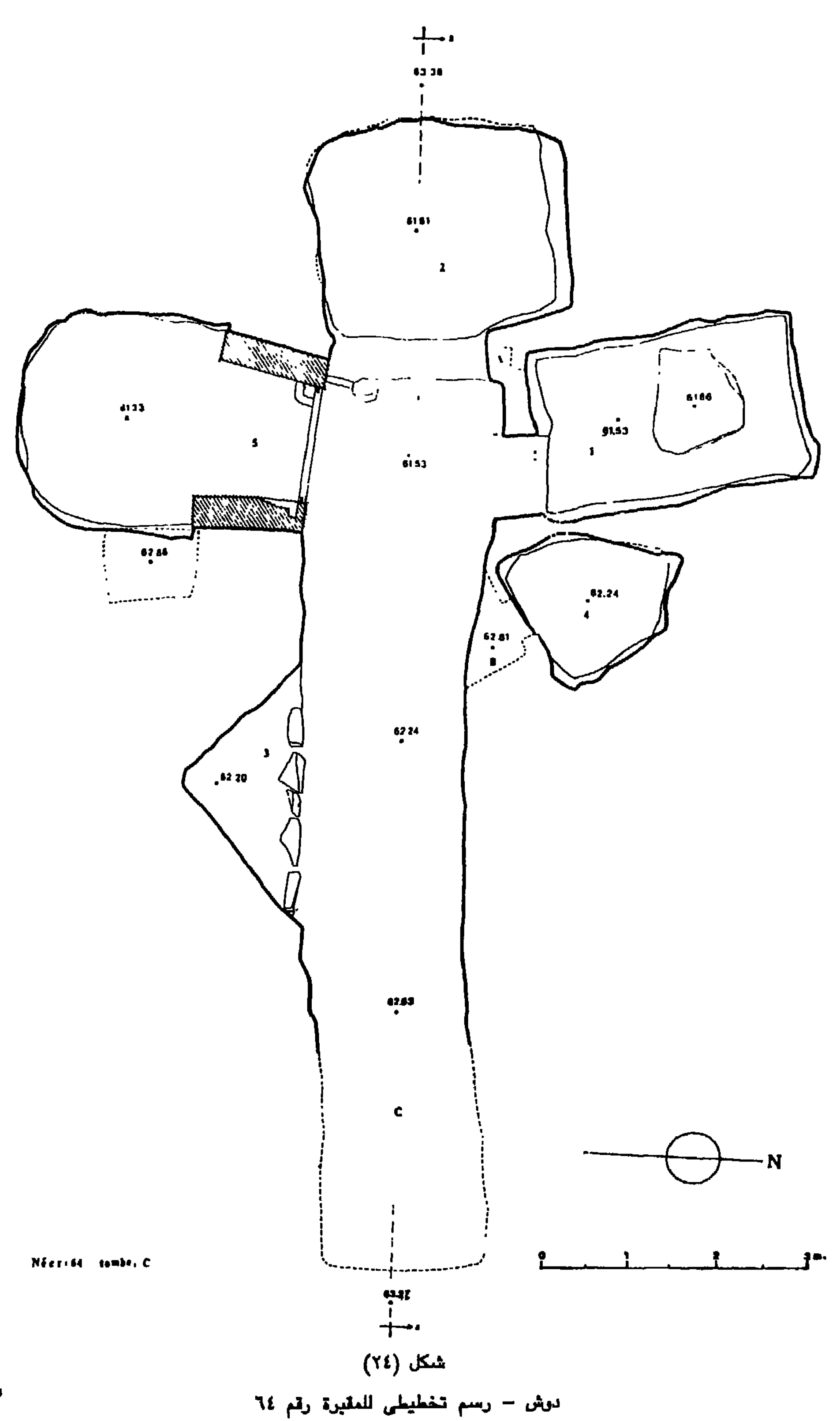
شكل (٢٣)

رسم تخطيطي لجبانة كوم الشقافة . الإسكندرية

وفى مصر الوسطى، فإن تونا الجبل وهى جبانة هرموپوليس (الأشمونين، حاليا – م.) تعتبر مدينة حقيقية للأموات. وقد جرى استخدامها منذ العصر البطلمى وحتى العصر الرومانى. وبعض هذه المقابر لها طابع فريد متميز: انها عبارة عن بنايات من الطوب المغطى بطلاء من الجص، ولها فى الغالب رواق بأعمدة، ويتكون من طابق يصل اليه المرء من خلال سلم داخلى. وكان الموتى يوضعون فى حجرة جنائزية، فى هذا الطابق. وتقدم لنا مقبرة «إيزيدورا» مثالاً طيباً. فكان التابوت موضوعاً فوق أريكة حفرت فى الجدار الذى رسم عليه سرير على هيئة أسد، من النمط التقليدى.

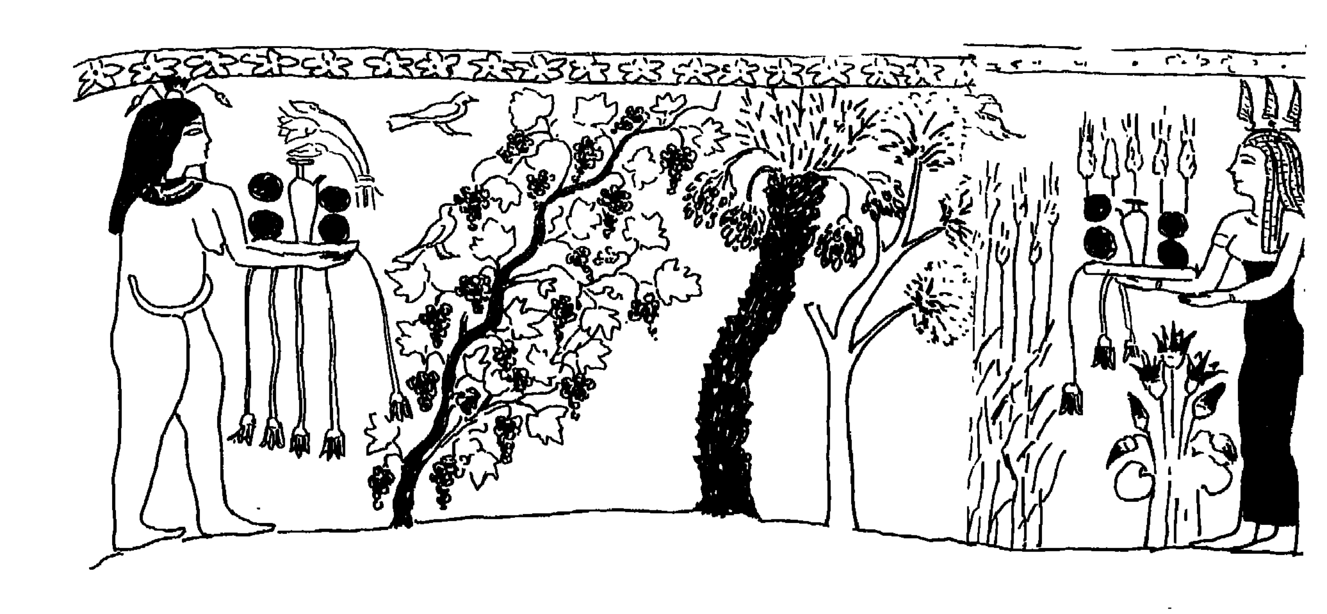
وإذا طرحنا هذه الأمثلة جانباً، يمكن القول ان العمارة الجنائزية فى العصر اليونانى الرومانى كانت تتسم عموماً بالبساطة. فهى عبارة عن بنايات من الطوب اللبن مغطاة بأسقف مقوسة «نوبية» (ذات حنيات مائلة) أو هى فى الغالب مقابر ذات آبار أو حفر أو هى أقبية نقرت فى مرتفع من التربة. إن جبانة «دوش» وهى مدينة صغيرة تقع جنوب الواحة الكبرى (الواحات الخارجة – م.) تعطينا مثالاً طيباً لهذا النمط من الجبانات. لقد حفرت المقابر ذات الآبار فى رصيف من الحجر الرملى، عند قمة ربوة شاسعة الى حد ما، فى حين أقيمت المقابر ذات البنيان العلوى والأقبية عند الأطراف. ولا نلحظ فى هذا النمط من الجبانات أى اهتمامات معمارية، وهو ما يرتبط بلاشك بمستوى إقتصادى متواضع. شكل (٢٤)

ومن ناحية أخرى، فان السمة التى تميز هذا العصر هى اكتظاظ المقابر وإعادة استخدام المقابر القديمة. لقد جاء هذا الوضع نتيجة لانتشار التحنيط أولاً، وثانيا بسبب نقص الأراضى المناسبة للتوسع فى هذه الجبانات الشاسعة المحصورة بين الأرض المنزرعة والصحراء التى رأى الناس انه من غير الضرورى التوغل فيها كثيراً. ومن ثم، فان مقابر وادى الملكات، التى يرجع تاريخها الى الدولة الحديثة، قد وجدت مملوءة بمومياوات رومانية. وزخارف هذه المقابر بسيطة فى أغلب الأحوال، بل غير موجودة. ومع ذلك، توجد بعض النماذج الجميلة ذات الزخارف المرسومة، ونجدها فى هرموپوليس (الأشمونين، حاليا –م.) او أيضا فى المزوقة، فى الواحات الداخلة، حيث تم الكشف قبل بضع سنوات عن مقبرتين رومانيتين ذواتى زخارف مصرية بحتة على وجه التقريب. كما فى امكاننا أن نذكر أيضاً مقبرة شارع تيجران بالأسكندرية التى تجمع رسوماتها بين عناصر زخرفية يونانية وموضوعات مصرية (ومن الراجح ان هذه المقبرة يعود تاريخها الى القرن الثانى الميلادى). شكل (٢٥)



شكل (٢٤)

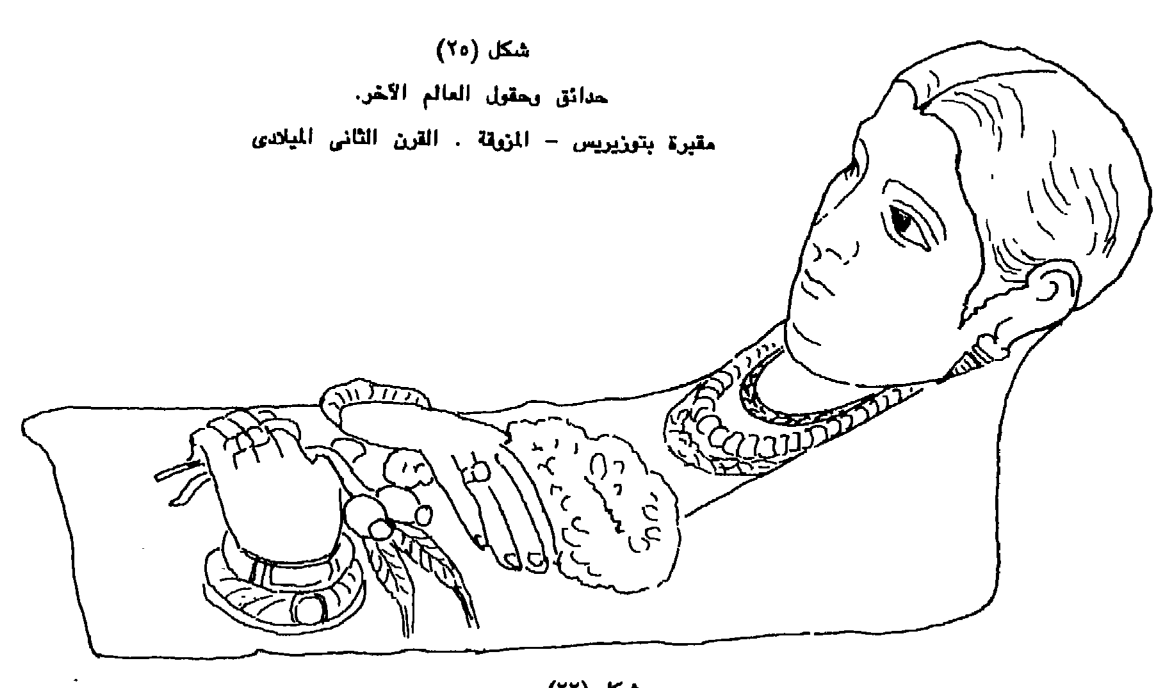
دوش – رسم تخطيطى للمقبرة رقم ٦٤



شكل (٢٥)

حدائق وحقول العالم الآخر.

مقبرة بتوزيريس - المزوقة . القرن الثانى الميلادى



شكل (٢٢)

قناع وصدرية لأمرأة فى العصر الرومانى

أنطنوه (الشيخ عباده)

متحف اللوفر

(٤) المعتقدات الجنائزية

يبدو بجلاء من زخارف المقابر الى جانب زخارف الكارتوناچ والتوابيت، ان المعتقدات الجنائزية قد ظلت ثابتة. بيد ان الأمر يحتاج الى توضيح بعض الفروق الدقيقة. إن وصول الإغريق الى مصر، على نطاق واسع، منذ مطلع القرن الثالث قبل الميلاد، قد صحبه انتشار نسبى للأفكار والأعراف الجنائزية اليونانية حول الموت. فانتشرت عادة حرق جثمان الموتى فى الاسكندرية انتشاراً نسبياً، ونعرف حالات، وان كانت نادرة جداً فى حقيقة الأمر، رُفض فيها التحنيط. ان المدونات الجنائزية باللغة اليونانية، التى تشير الى الموضوعات التقليدية، تعبر فى الغالب، عن أفكار تختلف إختلافاً بينا عن المُثل المصرية: الأسف على الحياة التى يتركها المتوفى، رؤية الموت وكأنه بمثابة ليل لا رجوع عنه، وعبارات من نوع «لا أحد مخلد فيها».

وفى الحقيقة، سنشاهد تدريجيا، ما يشبه الامتزاج الثقافى الجنائزى، للإغريق الذين اعتنقوا باطراد العادات المصرية فى هذا المضمار. ولا عجب فى ذلك، بالنظر إلى الصورة التى تقدمها الديانة المصرية والرجاء فى الـ «حياة» الآخرة بالمقارنة مع الرؤية الكئيبة، فى الغالب، للعالم الآخر التى أخذ بها الإغريق. ويظهر التجاور بين الأفكار والصور، اليونانية والمصرية، بشكل ملحوظ فى المدونة الجنائزية لسيدة تدعى «أفروديزيا»، وهى زوجة ضابط من أصحاب الرتب العليا كان يعيش فى أدفو، فى القرن الثانى قبل الميلاد: فبينما يشير النص اليونانى فى أسلوب كلاسيكى إلى «الزمان الذى يراقب كل شىء» ومغازل الپاركات*» و «هاديس» الذى تنتحب المتوفاة أمامه، كان النص الهيروغليفى اكثر تفاؤلاً، فيطالب آلهة العالم الآخر بالحفاظ على جسدها وأن يرفعوا من شأنها أمام «أوزيريس». فظلت أسطورة «أوزيريس» ذات شأن عظيم، كما تشهد على ذلك، كثرة تصوير الإله فى المتاع الجنائزى. وهو ما يعكس تصدر عبارة «أوزيريس» مجالات أخرى غير المجال الجنائزى، كما يشهد على ذلك الهيكل الذى أقيم فى دندره فوق سطح المعبد والمكرس لشعائروفاة وبعث الإله (وعلى كل حال كانت أعياد شهر كيهاك تقام فى أرجاء مصر). وجاء اكتشاف حديث فى الكرنك ليؤكد قوة الشعيرة الأوزيرية: فقد استخرجت تصاوير

---

* تقول الأسطورة اليونانية أن الإله «زيوس» لم يكتف بأن أولد أخته «ثيميس» «الهوارى»، فأولدها «الپاركات» وهن ثلاث : «كلوتو» التى تنسج خيط الحياة و «لاخيسيس» التى تحدد طوله و «أتروپوس» التى تقطعه. (د. ثروت عكاشة : معجم المصطلحات الثقافية: ص ٣٤٨) المترجم.

أوزيرية عديدة من مبنى يشبه القبو، فجاءت لتؤكد تغلغل «أوزيريس» الى داخل المجال المخصص لـ «آمون».

إن التحنيط مهما كان بسيطا هو فى حد ذاته محاكاة لـ «أوزيريس». ومن ناحية أخرى، فإن كتاب الموتى الذى ظل ينسخ طوال العصر البطلمى وحتى العصر الرومانى، يعمل على استمرار عقيدة محاكمة المتوفى و «تبريره» الذى يؤهله للدخول الى الحياة الثانية». وأسوة بمقابر العصور السابقة، فقد عثر فى المقابر التى تعود الى العصرين اليونانى والرومانى على تماثيل صغيرة لـ «أوزيريس» وغيره من الآلهة الجنائزية («أنوبيس»)، وهى التى تضمن استمرار الحياة بعد الموت.

كما أن العقائد الشمسية حاضرة حضوراً واضحاً فى القصائد الجنائزية للأزمنة المتأخرة، وهو ما تشهد عليه زخارف الكارتوناج والتوابيت، التى كثيرا ما تصور مركب الشمس والجعران المجنح..

وفى العصر الرومانى سوف تختفى تدريجيا تماثيل الـ «أوشبتى»، وهو ما قد يعنى ان الفكرة القائلة بأن المتوفى سيحتاج إلى المجيبين أو الى الخدم قد أخذت تتلاشى. وبالمقابل، فكثيرا ما يُعثر فى مقابر هذه العصور على تماثيل صغيرة لنساء عاريات (من النوع الذى يطلق عليه فى المعتاد «محظية المتوفى») أو على تماثيل رجال يظهر فيها عضو التذكير بكل وضوح وهو ما يؤكد بلاشك الاعتقاد فى استمرار الحياة الجنسية فى العالم الآخر لكل من الجنسين. إن هذا التقليد هو استمرار للتقليد الذى نلحظه منذ الدولة الوسطى، والقاضى بأن توضع فى المقابر تماثيل صغيرة لنساء عاريات، لها سمات جنسية واضحة.

كما درجت عادة لها أصول يونانية أو يونانية رومانية: وهى عادة وضع قطعة نقود الى جانب المتوفى. انها التقدمة الشعائرية التى تمنح لـ «شارون»، العبار الذى يساعد على عبور المتوفى نهر «الستيكس» ليرسو فى مملكة الأموات، وذلك حسب العقائد اليونانية، ولكن هذه الفكرة المرتبطة بالعبور لا تتناقض مع المعتقدات المصرية التى اعترفت على الدوام بوجود رحلة ملاحة أو عبور لبلوغ العالم الآخر. وينقل الفصل التاسع والتسعين فى كتاب الموتى الحوار الذى يدور بين المتوفى والملاحح الذى يقوم بنقله عبر النهر السماوى، وهو درب التبانة.

ومن ناحية أخرى، ومن الواضح كل الوضوح ان فكرة العقاب الذى يتم انزاله بأولئك الذين ارتكبوا المعاصى فى هذه الدنيا قد وجدت طريقها الى الرؤية المصرية للعالم الآخر. ان قصة «ستنى» الديموطيقية* (التى حفظتها بردية من العصر الرومانى، وإن كانت أقدم من ذلك بكثير) تروى لنا زيارة «ستنى» وابنه «سا- أوزير» الى عالم الأموات حيث اكتشفوا قاعات يوقع فيها على المذنبين ألوان من التعذيب، فى حين يؤذن للأبرار بالدخول الى نعيم السماء. وقد سبق ان ظهرت هذه الرؤية الأخلاقية للعالم الآخر، كما لاحظناه، فى بعض نصوص مقبرة «پتوزيريس».

* راجع «نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة» المجلد الثانى. الترجمة العربية: ماهر جويجاتى نقلا عن الترجمة الفرنسية بقلم كليرلالويت. الناشر: دار الفكر ١٩٩٦. (ص ٢٧٩-٢٨٤)-(المترجم).

الفصل السابع

من الوفاة إلى مراسم الجنازة

خلافاً للفصول السابقة التى أخذت بالتتابع الزمنى، فإن هدف الفصل الحالى المخصص لعملية التحنيط، كما نستطيع أن نعيد تركيب خطواتها من خلال النصوص والدراسة العلمية للمومياوات، نقول أن هدف الفصل الحالى هو الوصول إلى تركيب لمعارفنا والإستشهاد بالمراسم الشعائرية التى تسمح للمتوفى بالدخول إلى الحياة الآخرة، بعد أن تكون عملية التحنيط قد تمت وانتهت.

لايوجد بالفعل نص مصرى واحد يقدم لنا وصفاً لعمليات التحنيط. وعندنا على الأكثر نصوص خاصة بالشعيرة المتعلقة بلف الجثمان باللفائف. ويظل «هيرودوت» أفضل مصادرنا وأقربها إلى الحقيقة. إن هذا المؤرخ الذى زار مصر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قد ترك لنا وصفاً دقيقاً إلى حد ما لما كان يحدث فى عصره. إنه يُنظر إليه فى كثير من الأحيان على أنه ينسج الكلام ويتخيل الأحداث وانه غير موثوق فيه، ومع ذلك فإنه يبدو شاهداً جديراً بثقتنا فى المجال محل اهتمامنا. ورغم أن شهادته تجئ متأخرة نسبياً، فإن توافق أقواله مع المعلومات التى استقيناها من الدراسة العلمية للمومياوات تسمح لنا بالقول أن التقنيات التى يصفها هى تلك التى كانت تطبق فى الدولة الحديثة.

وكما يقول «هيرودوت» فبعد الوفاة، عندما تحمل الأسرة الجثمان إلى المحنط، يقوم هذا الأخير عندئذ بعرض نماذج لمومياوات مصنوعة من الخشب الملون، تحاكى النتائج المنتظر الحصول عليها من مختلف المعالجات المقترحة. بهذه الطريقة، كان فى وسع الزبائن وهم على دراية فعلية بواقع الأمر، أن يختاروا نوعية المعالجة التى يودون إجراءها على المتوفى. لقد كان هناك فى الواقع ثلاثة أنواع من التحنيط، يقابلها بالطبع أسعار مختلفة.

إن معالجة الصنف الأول هى أكثرها اتقانا ومازلنا اليوم ندين لها بما نشاهده من أجساد حفظت لنا حفظاً تاماً، ولها ملامح الإنسان الحى. ووفقا لرواية «هيرودوت»، فان

المحنطين يبدؤون باستخراج المخ بواسطة «قطعة» حديد مثنية» (أنها فى حقيقة الأمر، عبارة عن قضيب من البرونز طرفه على هيئة خطاف وقد عُثر منه على عدة نماذج)، وفى نفس الوقت، يصبون فى الجمجمة سائلاً يساعد على إذابة بقايا المخ. وبعد ذلك، يشقون الخصر «بحجر أثيوبى» (من السبج)، ومن هذه الفتحة يستخرجون الأمعاء التى ينظفونها بنبيذ التمر، ثم التوابل. بعد ذلك، يملؤون البطن بمختلف المواد البلسمية، لاسيما المر والقرفة، ويخيطون الفتحة. عندئذ، تبدأ عملية التجفيف بواسطة النطرون، فتترك فيه الجثة لمدة سبعين يوماً. وبعد انقضاء هذه المدة يغسل الجسد ثم يدثر بالأشرطة المصنوعة من الـ «بيسوس» (ارق انواع الكتان) ويتم تثبيتها بواسطة نوع من الصمغ.

ولن ندخل على هذا الوصف سوى القليل من التغييرات. ومن جانب آخر، فى وسعنا أن نستكمله بفضل المعلومات التى توفرها الكشوف الأثرية والنصوص المصرية أيضاً إلى حدّ ما. كانت تسبق عملية التحنيط، على مايبدو، عملية غسل الجسد بماء أضيفت إليه كمية قليلة من النطرون، وذلك فى مكان يدعى «إيبو»، وكان التحنيط ذاته يتم فى الـ «پرنفر» (البيت الجميل) أو الـ «وعبت» (المكان الطاهر). ولابد أن هذا المكان كان فى الأصل أشبه بخيمة أو بناية أعدّت على عجل على مقربة من الجبانة. وفى العصر المتأخر، استخدمت مبانٍ من الطوب اللبن يمكن أن تتسع فى آن واحد لعدد من الأجساد. كما توضح نصوص من العصر الرومانى انه كان على المحنطين أن يبقوا خارج المدينة، سواء عند ممارسة أعمالهم أو فى سكناهم. (أن عبارة «إكسوبيليت» Exopylite، الدالة عليهم والتى تعنى حرفياً «الساكن خارج الأبواب»، لخير برهان على ذلك.) ويمكن ان نتخيل ان المناظر والروائح المنفرة التى تحيط بأنشطة التحنيط قد دفعت المواطنين إلى تجنب الإحتكاك بأصحاب هذه المهنة الفريدة فى بابها....

ومن الواضح، ان المعالجة الأولى التى تجرى على الجسد، كانت تقتضى استئصال المخ، وخاصة عن طريق الفتحة الأنفية المصفوية، وهو ما وصفه «هيرودوت»، ولكن يمكن استخراجه أيضاً، وإن كان فى النادر القليل، عن طريق المنطقة القذالية. وكان تجويف الجمجمة يُملأ بمادة تصبح سائلة بعد تسخينها، ويتم إدخالها عن طريق فتحتى الأنف بواسطة مايشبه القمع الذى عُثر على بعض نماذجه. إن مكونات هذه المادة متغيرة، وتتخذ بعد أن تتجمد، مظهراً زجاجياً، يميل إلى السواد. وبعد ذلك يتم استخراج الأحشاء الداخلية. لقد تغير مكان الفتحة: كان الثقب قبل تحوتمس الثالث جانبياً ورأسيا فى المعتاد، وكان مكانه عند مستوى الخاصرة اليسرى. وفيما بعد كانت تفتح البطن فى الغالب فى مكان أدنى، وعند خط مواز لثنية الفخذ. وكما يقول هيرودوت كانت الأمعاء تستأصل أولاً.

ولكنها لم تكن الأحشاء الوحيدة التى يتم استئصالها. فتزال معها أيضاً الكبد والمعدة والرئتان. وكان القلب خلافاً لذلك لايستخرج، أو إذا حدث أن استؤصل من القفص الصدرى عن طريق السهو عند استئصال الرئتين، كان يعاد إلى مكانه من الناحية المبدئية بعد أن يتم تحنيطه لوحده. فلنتذكر إذن الأهمية التى كان يعلقها المصريون على القلب. وتوخياً للسلامة، ومع احتمال اتلاف هذا العضو الجوهرى، فإن جعراناً يدعى جعران القلب، دونت عليه تعويذة منقولة عن الفصل الثلاثين من كتاب الموتى، كان يحل محله. وفى وسعنا أن نقرأ على جعران القلب للملك «سوبك إم ساف» الثانى (الأسرة ١٧) مايلى:

«ياقلبى، ياقلب أمى، ياقلبى لمختلف سنوات عمرى، لاتشهد ضدى، لاتتحز ضدى فى «المحكمة»، لاتجعل الميزان يميل لغير صالحى أمام الوزان («تحوت»)، فأنت قوّتى التى فى بطنى، (فأنت) صانع الأشكال، الذى منح الحياة لأعضائى...

نقلا عن الترجمة الفرنسية (traduction. J.L.de Cenival)

وكقاعدة عامة، لم يكن المحنطون يتعرضون للكليتين، والطحال والمثانة ولا للأعضاء التناسلية للمرأة، التى كان يصعب الوصول إليها عن طريق البحث اليدوى الأعمى، والتى لم يتوصل المصريون على مايبدو إلى معرفة أهميتها. وبعد استئصال الأحشاء، كانت تحنط بمفردها بالنطرون، ثم تضمد بالشرائط. وبعد ذلك، كانت توضع لفات الأحشاء هذه فى أوانى كانوبية (التى توضع بدورها فى صندوق من الخشب أو الحجر). وفى بعض العصور، كانت توضع هذه «اللفات» على مقربة من المومياء، بل أحياناً داخل الجسد. وتعتبر حالة الملكة «حتپ حرس»، والدة «خوفو»، أول مثال معروف لاستخراج الأحشاء مع الحفاظ على الأعضاء: كانت الأحشاء قد وضعت فى عيون صندوق من الألبستر كان لايزال يحتويها عندما عثر عليه «ريزنر» Reisner، وكانت مغمورة فى السائل الحافظ لها، المكون من محلول من النطرون. وللأسف لاتسمح السمة الفريدة لهذا الكشف أن نبدى رأياً قاطعاً حول مدى انتشار أسلوب الحفظ هذا المعروف بالمرحلة السائلة.

وبعد استخراج الأحشاء، كان يمر الجسد بعملية غسل جديدة خارجية ثم داخلية، تليها عملية حشو مؤقتة لتجويف البطن. عندئذ يغمر الجسد فى النطرون. إن كلمة حمام التى شاع استخدامها هى كلمة فى غير محلها: وعلى كل حال، يتحدث «هيرودوت» عن تمليح («تاريخون») وتغطية («كريپتن») الجسد، الأمر الذى يثبت بوضوح أن المقصود بهذه

المرحلة ليس إحدى عمليات الحفظ المعروفة بالمرحلة السائلة. إن تجارب «لوكاس»* Lucas الذى نجح فى صناعة مومياوات فئران، قد أكدت انه من الضرورى استخدام النطرون على هيئة بلورات لضمان فاعليته. فلنذكر أن النطرون وهو مزيج طبيعى من كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) وكربونات وسلفات الصوديوم، وكان يوجد فى المنطقة القائمة عند الحافة الغربية للدلتا، فى منتصف الطريق بين الاسكندرية والقاهرة، وفى المنطقة التى مازال يطلق عليها حالياً وادى النطرون. ومن المعروف من ناحية أخرى، إنه كانت توجد مصادر إمداد أخرى، لاسيما فى منطقة دارفور، فكانت تأتى منها القوافل محملة بالنطرون عن طريق درب الأربعين. ومن جانب آخر، فان مدة «حمام النطرون» ليست بالقدر الذى يذكره «هيرودوت». ان السبعين يوماً التى يقال أنها كانت لازمة، انما تغطى بالأحرى المدة اللازمة لإعداد المومياء، وربما كان تضميدها باللفائف يستغرق معظم المدة. وهو مايؤكده على مايبدو نص سفر التكوين** وهو مايشير إلى مراسم دفن يعقوب:

*«وأمر (يوسف) خدامه الأطباء أن يُحنطوا أباه، فحنط الأطباءُ إسرائيلَ. ودام ذلك أربعين يوماً، لانه كذلك تدوم أيام التحنيط. وبكى عليه المصريون سبعين يوماً» (التكوين: ٥٠ : ٢ – ٣)****

وتقدم لنا قصة «ستنى»» الديموطيقية معلومة إضافية، فتشير إلى أن اليوم الخامس والثلاثين هو اليوم الذى يبدأ فيه تضميد المومياء باللفائف وان اليوم السبعين هو اليوم الذى توضع فيه المومياء فى التابوت.****

كان فى الإمكان بلاشك أن تتفاوت المدة التى تستغرقها كل مرحلة من المراحل بإختلاف نوع التحنيط، إن من المؤكد أن النوع الأول من التحنيط كان يتطلب مدة أطول من غيره. فبعد انتزاع الماء من الجسد وتصلبه تماماً، كان يعاد غسله آنذاك من جديد ثم دهنه بمواد زيتية وبلسمية إلى حدّما، الهدف منها إعادة قدر من الليونة إليه وإعطائه «رائحة

* ألفرد لوكاس (١٨٦٧ – ١٩٤٥). كيميائى بريطانى. جاء إلى مصر عام ١٨٩٧ وبقى فيها حتى وفاته. عند أكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» عُيّن مديراً للمعمل الكيماوى فى مصلحة الآثار. ولعب دوراً بارزاً فى المحافظة على هذه الآثار القيمة. (المترجم)

** سفر التكوين هو أول أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس. ويعقوب الملقب إسرائيل هو والد سيدنا يوسف. (المترجم)

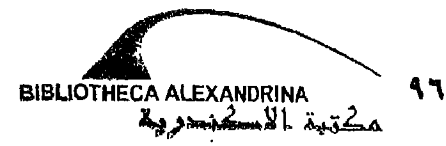
*** نقلا عن أحدث ترجمة للكتاب المقدس إلى اللغة العربية. دار المشرق – بيروت. ١٩٨٩. (المترجم)

**** راجع «نصوص مقدسة ونصوص دنيوية فى مصر القديمة. المجلد الثانى. الترجمة العربية ماهر جويجاتى نقلا عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت. الناشر دار الفكر. ١٩٩٦ (ص ١٧٢). (المترجم)

زكية. ويبدو أن غسل الجسد فى هذه اللحظة، كان ينطوى على أهمية شعائرية فريدة، انه يعيد إلى الأذهان أسطورة شروق الشمس انطلاقا من مياه النيل. وكانت الفتحة التى استخرجت من خلالها الأحشاء يعاد خياطتها وتغطى أحياناً بلوحة من الشمع أو من معدن نفيس (وهو دائما الذهب بالنسبة للفراعنة). وكانت الفتحات الطبيعية (فتحتا الأنف والفم) تسدّ فى الغالب بقطائل من الكتان أو شرائح من الراتنج. وفى العصر المتأخر، كان فى الإمكان وضع صفائح من معدن نفيس فوق اللسان، وفوق الأعضاء التناسلية الخارجية للمرأة. أما عن الفراعنة أنفسهم، فقد كانوا يجهزون بما هو أثمن من ذلك، ومن بين أشياء أخرى كانت توضع أغلفة من ذهب حول اصابع اليدين والقدمين. كما كان فى الإمكان تحسين هيئة الجسد بأن توضع فى محجرى العين أشياء مختلفة (مثل البصل) لإعطائهما حجمهما الطبيعى، ووضع مساحيق التجميل على الوجه أو تلوينه، بل يصل الأمر إلى وضع شعر مستعار فوق الرأس. وفى بعض العصور كانت تربط الأظافر بأطراف الأصابع منعا من سقوطها.

وبعد ذلك كانت تبدأ عملية لف الجسد باللفائف. ولاريب أن هذه العملية كانت ذات طابع شعائرى، ولكن علينا ألا يغيب أبداً عن بالنا، أن هذه العملية كانت تعود بعظيم الفائدة على الجسد من خلال مايوجده من عزل ولو نسبى عن الوسط المحيط. وحسبما ورد فى أسفار شعائر التحنيط التى حفظتها لنا برديتان من العصر الرومانى (وهما نسختان منقولتان عن نصوص أقدم) وكانوا يبدؤون بتغطية الجسد مباشرة بكفن، ثم يبدأ العمل بأول تضميد لأصابع اليدين والقدمين بلفائف من الكتان الناعم. وبعد ذلك، يحل الدور على الرأس، فيدثر بعناية فائقة بدءاً من الكتف الأيمن. ثم يضمدّ الصدر ومعه الأطراف العليا باللفائف التى كانت تحيط بالكفن. وتنتهى العملية بلف الأطراف السفلية باللفائف. هنا أيضا يلعب ثراء المتوفى بالطبع دوره: فكمية ونوعية الأقمشة المستخدمة فى هذه العملية كانت تختلف من حالة إلى أخرى. ومع ذلك، فإذا كانت عملية تضميد الجثة باللفائف قد بلغت مستوى عالياً من الإتقان، فى العصر الرومانى، فإن الكثير من المؤلفين يؤكدون ان المومياوات التى كانت تضمدها هذه اللفائف كانت سيئة الصنعة إلى حدّ كبير. إننا لانشاركهم الرأى، فخبرتنا المستقاة من جبانة «دوش» قد برهنت لنا على عدم وجود فارق ملحوظ بين جودة اللفائف وجودة التحنيط.

وخلال عمليات لف الجثمان باللفائف، كانت تراق الراتنج والأدهان فوق الأكفان لضمان إلتصاقها. وأثناء كل عملية من العمليات كان كاهن يتلو صلوات أو ابتهالات محددة:



«من أجلك أتى الزيت! إنه يمنح فمك الحياة، والإبصار لعينك... إنه يعطيك أذنيك لتسمع ماتحبه.... انه يعطيك أنفك لاستنشاق عطور العيد... انه يعطيك فمك بعد تزويده ببصيرته مثل فم «تحوت» الذى يبصر ماهو عدل!»

(Rituel de l'Embaumement, Ch, vii, trad. J. C. نقلا عن الترجمة الفرنسية Goyon: Parole à prononcer lors de l'enveloppement de la tête).

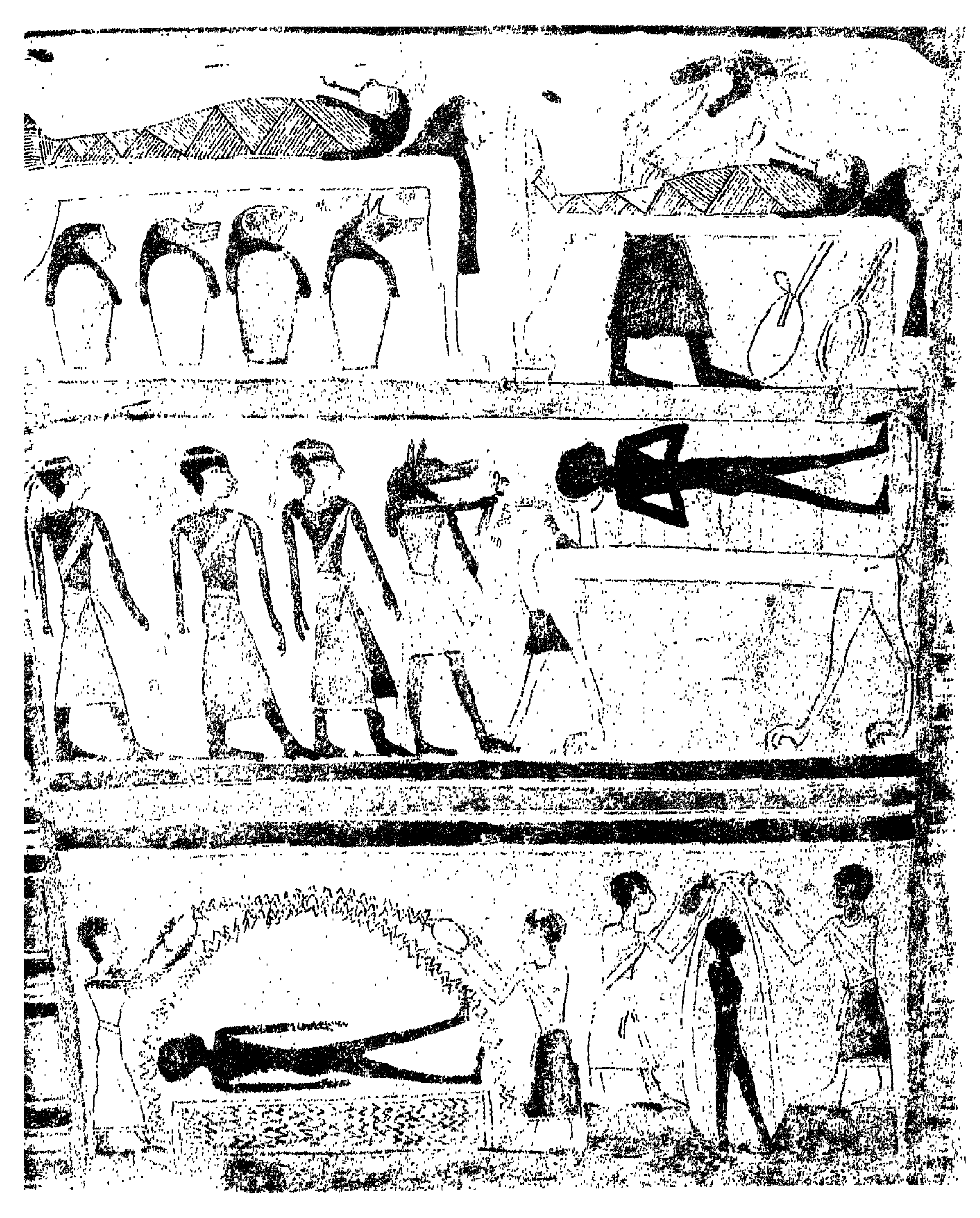
كان المصريون يعلقون أهمية قصوى على المحافظة على الرأس سالماً، وهو أمر له مايبرره... وبالفعل، تظهر دراسة المومياوات فى الجبانات ان «كسر» الرقبة، الذى يؤدى إلى انفصال الرأس عن الجسد، كان احتمالاً وارداً. وقد يحدث أحياناً أثناء عملية التحنيط، الأمر الذى تشهد عليه المومياوات التى عثر عليها وبها وسائل متنوعة، كان الهدف منها تثبيت الرأس فى مكانها فوق الجذع.

فلنسترجع إلى الأذهان الرؤوس البديلة، التى امتلأت بها مقابر الدولة القديمة. إن غيابها فى العصر الذى شهد تقدماً ملحوظاً فى جودة التحنيط لهو خير دليل على أنها كانت تعد خصيصاً لتدارك نواقص التقنية.

إن زخارف مقبرة «ثوى»، فى طيبة، والتى ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة، تقدم لنا وصفاً جيداً لمختلف عمليات إعداد المومياء. ويصور لنا مشهد مرحلة من مراحل لف الجثمان باللفائف، ويصور مشهد آخر المحنطين وهم يقومون بطلاء المومياء بمادة موجودة فيما يشبه القدر. وفى مشهد ثالث، يظهر الحرفيون وقد انكبوا على صناعة تابوت.

إن زخارف تابوت «جر - باستت - يويف - عنخ» والمحفوظ حاليا فى «هيلد شايم» والذى عثر عليه فى الحيبة، تصور معظم عمليات التحنيط تقريباً. إنه عملياً المثال الوحيد المعروف الذى يحمل مثل هذه الزخارف. ومن المتفق عليه الآن أنه يعود إلى العصر البطلمى (وإن ساد الظن طويلاً إنه يعود إلى الأسرة السادسة والعشرين). وزخارف الغطاء موزعة على ستة صفوف تقرأ إبتداء من القدمين وحتى الرأس. شكل (٢٧)

فى الصف الأدنى، يظهر المتوفى على هيئة كائن مجرد من شحمه ولحمه، أسود اللون، ويقوم شخصان بغسله فى حوض (الرسم التوضيحى الأيسر) ثم يشاهد واقفاً فى حفرة، ويُمسح بسائلين (لون أوعية الكهنة مختلفة). وهو مايعزز العملية التى سبق أن وصفناها.



شكل (٢٧) تابوت «جدباستت يويف عنخ»

وفى الصف الثانى، يرقد المتوفى فوق سرير جنائزى على هيئة أسد ويتقدم نحوه أربعة كهنة يرتدى أولهم قناع «أنوبيس»، ويمسك بيد آله على هيئة خطاف، وربما كانت ملقطاً، كما يمسك لفائف بيده الأخرى. وقد توضح هذه الجزئية أن الكاهن يتأهب للقيام بعملية لف الجثمان. فالجسد مسجى على الظهر والرأس موضوع فوق مسند رأس. ويصور الجزء العلوى من السرير شكلاً زخرفياً على هيئة خطوط متعرجة، تبدو لنا وكأنها تمثل رسماً تخطيطيا لملة مصنوعة من الألياف المجدولة (وهى صورة شائعة جداً بين الأسرّة الجنائزية التي عثر عليها فى المقابر). وهناك تفسيرات أخرى تشبهه بالنباتات التى تشير إلى أسرّة العشب الأخضر التى تمثل أوزيريس الإنبات. وحيث أن قوائم هذا السرير تظهر مزدوجة وأننا نشاهد الملة، يبدو لنا الأمر كما لو كان محاولة تكوين صورة وفقاً لقواعد المنظور.

أما الصف الثالث، فانه يوضح مرحلتى تضميد الجثمان باللفائف:

– فعلى اليمين نشاهد الكاهن الذى يرتدى قناع «أنوبيس»، وهو ينحنى على المومياء، بعد الإنتهاء تقريبا من تضميدها باللفائف وتسجيتها فوق السرير الذى على هيئة أسد، ونراه فى هذه المرة كمسقط رأسى. وتحت السرير، كيسان أبيضان مربوطان تبرز منهما عصاً: وربما كان الأمر يتعلق بمخلفات التحنيط التى نعرف انها كانت تدفن على مقربة من المقبرة. وقد عثر على مثل هذه «البقايا» على مقربة من العديد من المقابر الطيبية، ويظل مثال «توت عنخ آمون» من أشهر الأمثلة على ذلك.

– وعلى اليسار، نشاهد المومياء، بعد الفراغ من إعدادها. إنها ترقد على السرير الجنائزى، ونشاهد أسفله الأوانى الكانوبية الأربع، التى نحتت أغطيتها على صورة أبناء «حورس».

وصور فى الصف الرابع، على اليسار كاهنان، أحدهما هو «الكاهن المرتل» الذى يمسك بلوحة صغيرة تحمل بعض المدونات، والأخر يمكن التعرف عليه بجلد الفهد الذى يرتديه. أما على اليمين فيقف أيضا كاهنان يضع أحدهما على رأسه قناع أنوبيس، وتصحبه ثلاث نساء. وفى الوسط وفى المسافة الفاصلة بين المجموعتين وضعت القرابين الشعائرية.

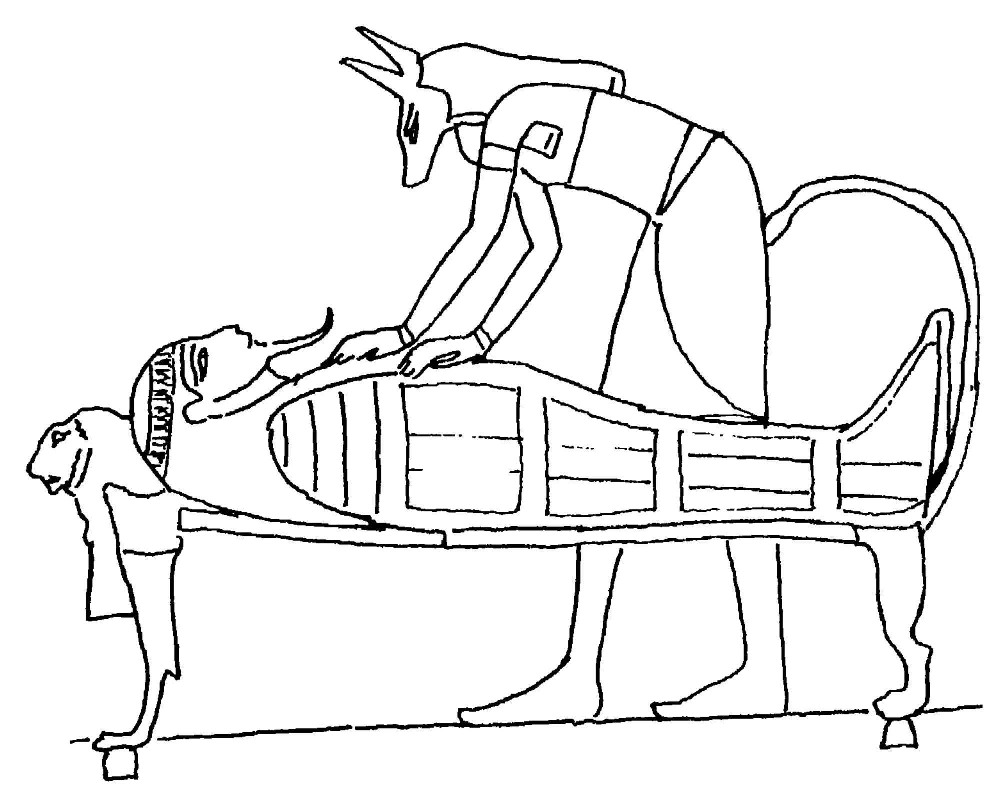
ويصور لنا الصف الخامس القارب الجنائزى، يتقدمه ثلاثة كهنة رافعين ألوية وعلى متن هذا القارب سوف يعبر المتوفى نهر النيل ليصل إلى الجبانة.

ونشاهد أخيراً فى الصف الأعلى أبناء «حورس» الأربعة وهم يحيطون بعمود «چد»، رمز بعث «أوزيريس» وقيامته، فى حين تحيط «ايزيس» و«نفتيس» المجنحتان بالمشهد.

ومن هنا ندرك مدى أهمية هذا التابوت الذى يبين بالتفصيل وبكل دقة المراحل المختلفة لعملية التحنيط ويشير إلى الكثير من جوانب مراسم الجنازة. ولنتذكر أيضاً أن متحف «هيلد شايم» نفسه هو الذى يحتفظ بقناع لأنوبيس من الطين المحروق الملون، وهو قناع نادر جداً، وكان مخصصاً على مايرجح ليرتديه أحد الكهنة، سواء أثناء مراسم الجنازة، أو خلال أحد المواكب.

مراسم الجنازة

بعد الإنتهاء من إعداد المومياء التى تبدو بوجه عام كرزمة مستطيلة، كانت توضع داخل أغلفتها المصنوعة من الكارتوناچ أو من الخشب، ثم تعاد إلى الأسرة. عندئذ كان فى الامكان البدء فى شعائر مراسم الجنازة. وكان يقوم بخدمة هذه الشعائر من الناحية المبدئية. كهنة جنائزيون، ولكن أسرة المتوفي والأبناء فى المقام الأول كانوا يضطلعون فيها بدور بارز، وكانوا على كل حال، يتحملون تكاليف مراسم الجنازة والقرابين. كانت المرحلة الأولى من هذه المراسم تتكون من الموكب الذى ينقل المتوفى إلى المقبرة. وبالنسبة للميسورين، قد يضم هذا الموكب صفوفاً من الكهنة والنائحات المحترفات وأفراد العائلة والأصدقاء والخدم. وكان يسير على رأسهم الكهنة ويحمل أحدهم مواقد لحرق البخور. إن الأبقار وأحيانا الرجال كانوا يقومون بسحب الزحافة التى وضع عليها قارب يضم «هيكلاً» يحمى المومياء. انه مجرد قارب «للإستعراض»، يشبه قوارب المواكب الإحتفالية للآلهة وليس القارب الذى كان الموكب الإحتفالى يستخدمه عند عبور نهر النيل. ويذكرنا قارب الإستعرض برحلة الحج التى من المفترض أن يقوم بها الموتى عبر نهر النيل إلى الأماكن المقدسة فى أبيدوس (العرابة المدفونة، حاليا، م.) وبوتو (تل الفراعين، حالياً، م.)، كما وردت فى الأسطورة الفرعونية. ومن جانب آخر، فان عبور المتوفى نهر النيل، قد جاء نتيجة لإقامة الجبانات فى البر لغربى فى حين كان يفترض أن يقيم الأحياء فى البر الشرقي... وتبدو هذه الصورة وكأنها قد استقرت بوضوح فى الدولة الحديثة عندما أضحت طيبة المركز الرئيسى للحياه الدينية، نظراً إلى أن طوبوغرافيا هذه المدينة تفى تماماً بهذا



شكل (٢٨)

الموكب الجنائزى . كتاب الموتى

العصر البطلمى. متحف اللوفر



شكل (٢٦)

انوفيس المحنط. الدولة الحديثة. مقبرة «سن نجم».

التقسيم. ومن نافلة القول، أنه فى عدة أماكن أخرى في مصر، كانت تقام الجبانات شأنها شأن أماكن السكنى فى نفس البر، وهو الأمر الذى يجعل عبور النيل غير ضرورى، ولكن ظلت صورة الرحلة على متن القارب ماثلة، استناداً إلى أسطورة الحج الأوزيرية. وتوضح بردية من العصر البطلمى أنه فى الإمكان أن تحل مركبة ذات عجلات محل الزحافة. بل إن نفس الصورة نشاهدها بالفعل فى مناظر منقوشة فى الهيكل الجنائزى لـ «پتوزيريس» فى تونا الجبل. كما نصادفها بين صور مقبرة «پتوباستس» فى المزوقة، التى ترجع إلى القرن الأول الميلادى. وكان يوضع الصندوق الذى يحتوى على الأوانى الكانوبية على زحافة أخرى تسير خلف الأولى. وفى آخر الموكب يسير الخدم الذين يحملون القرابين بالإضافة إلى المتاع الجنائزى الذي أعد ليوضع فى المقبرة: إنها من ناحية، بعض أشياء الحياة اليومية التى كان يستخدمها المتوفى نذكر منها الأسرة والمقاعد ومساند الرأس وصناديق متنوعة تضم الملابس ومستلزمات الزينة. ومن ناحية أخرى المتاع الجنائزى بكل معنى الكلمة، ونذكر منه صناديق الأوشبتى وتماثيل صغيرة وكتاب الموتى.. وبالطبع فان كمية المتاع الذى تضمه المقبرة يختلف إلى حد كبير بإختلاف ثراء صاحبها. شكل (٢٨)

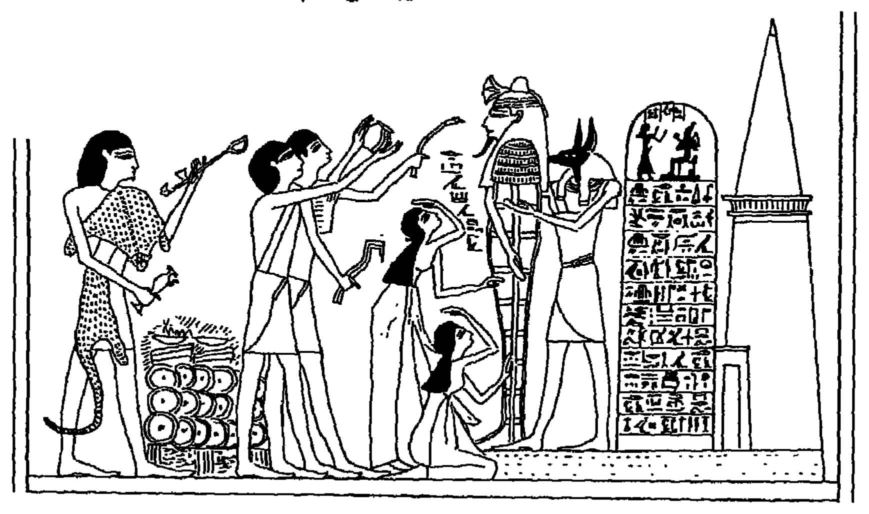
وبعد أن يعبر الموكب نهر النيل كان يتجه إلى المقبرة. وكانت المراسم الأولى تتكون من رقصة شعائرية يؤديها راقصون محترفون وتلاوة نصوص يقرؤها الكاهن المرتل. وكانت المومياء بعد أن تسجى فى تابوتها توضع واقفة أمام باب المقبرة وعندئذ تقام مراسم «فتح الفم» وهى على قدر كبير من الأهمية. وهذه المراسم، الموغلة فى القدم، كانت تقام قبل الدولة الحديثة، على تمثال عوضاً عن المتوفى وفى مكانه، واعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة أصبحت المومياء ذاتها هى التى تتمتع بهذه المراسم. ويصور هذا المشهد فى أحيان كثيرة فى الصور التوضحية لكتاب الموتى، فيقوم كاهن يرتدى على رأسه قناعاً لأنوبيس بالأبقاء على التابوت واقفاً. ويقوم كاهنان آخران، الكاهن «سم» وقد ارتدى جلد فهد والكاهن المدعو «الابن الذى يحبه» (الذى من الواضح أنه يضطلع بدور الابن بكل معنى الكلمة وهو «حورس» بن «أوزيريس») يقومان بوضع أدوات مختلفة أمام فم المومياء، تضم ما يشبه القدوم والإزميل، ويفترض أنهما يعيدان بهما إلى المتوفى الأنفاس والقدرة على الكلام وأيضاً ملكة الحواس. واعتباراً من هذه اللحظة، كان يفترض أن ينضم العنصر الروحانى للمتوفى إلى جثمانه. وبعد ذلك، يتم إنزال المومياء إلى حجرة الدفن لتنعم براحة «ملايين السنين». ومن الآن فصاعداً، سيمكث الجسد فى المقبرة، فى حين سيكون فى وسع العنصر الروحانى أو الـ «با» ان يروح ويغدو على هواه. ويصور كتاب الموتى لصاحبه «نب

شكل (٢٩) (شكل ٣٠)



شكل (٢٩)

شعيرة فتح الفم



(شكل ٣٠)

زوجة المتوفى تنتحب.

مقبرة «نب آمون» و «إيبوكى» الدولة الحديثة

قد» الـ «با» وهو يحلق فى البئر التى تفضى إلى حجرة الدفن. وبالمثل، يصور رسم من مقبرة «إرى نفر»، بدير المدينة، الجسد المحنط داخل المقبرة فى حين يرفرف الـ «با» فى الخارج. إن هذا الإعتقاد فى قدرة الـ «با» على مغادرة المقبرة، يفسر الخوف الواسع الإنتشار بين الناس من أن يروا الموتى وقد عادوا لمحاسبة الأحياء على الأضرار التى من المحتمل أن يكون هؤلاء الأحياء قد ارتكبوها فى حقهم.

ومن الناحية المبدئية كان يقع على عاتق أقارب المتوفى وعلى رأسهم الإبن البكر، أن يمدوه بالطعام الكفيل بتأمين «بقائه على قيد الحياه». فكانت توضع قرابين غذائية عند مدخل المقبرة: وهى عبارة عن أطعمة تقليدية من خبز وفطائر وخضروات وفواكه وكؤوس جعة، وطالما صورت فى المقابر. وقد يخطر على بالنا أن موظفى الجبانة والكهنة الذين أدوا الخدمة الشعائرية كانوا «يستردون» هذه القرابين.

ومن جانب آخر، يبدو أن أفراد الأسرة كانوا يحتفلون بتناول وجبة جنائزية على مقربة من المقبرة. إن بقايا وجبة من هذا القبيل ومعها بقايا التحنيط، هى التى عثر عليها «ديفيز» Davies عام ١٩٠٦، فى خبيئة تقع على مقربة من مقبرة «توت عنخ آمون» التى كانت لاتزال مجهولة فى هذا التاريخ وهكذا فقد تم العثور على أوعية كانت تحتوى على عظام خراف وطيور والعديد من جرار نبيذ وماء ومعها كؤوس للشرب بل وعثر أيضاً على عقود من الزهور يبدو أن المشتركين فى الوليمة قد ارتدوها.

وكان تغيير القرابين التى يمكن أن توصف بالقرابين «الطازجة» يتم فى مواعيد ثابتة وربما فى الذكرى السنوية لمراسم الدفن وخلال عيد الموتى كالذى كان يطلق عليه فى منطقة طيبة، «العيد الجميل للوادى». وكانت تحبس الأوقاف لصالح الفراعنة وبعض علية القوم من أجل استمرار الشعائر الجنائزية. إن شعيرة القرابين التى تؤديها العائلة، من الناخية النظرية، إنما يباشرها كهنة متخصصون. وقد أطلق عليهم فى العصر اليونانى اسم «خواخيتاى»، وتشير هذه العبارة إلى الطقس الذى يقوم على صب الماء الطهور. ويبدو فى حقيقة الأمر أن القرابين السائلة كانت تلعب دوراً بارزاً فى الشعائر الجنائزية.

كما كانت توضع فى المقبرة ذاتها قرابين غذائية أخرى، تحت التصرف المباشر للمتوفى. وفى مقبرة فى سقارة يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية، عثر على وجبة جنائزية كاملة تتكون من أرغفة خبز وأسماك وطيور ولحم بقرى وفواكه وجبن وفطائر. وظل معمولاً بهذا التقليد حتى العصور المتأخرة. وقد عثر على أمثلة عديدة لها فى مقابر جبانة نوش

التى تعود إلى العصر الرومانى وإن كانت أكثر تواضعاً بالطبع. وفى الدولة الحديثة، كانت هذه القرابين تحنط فى بعض الحالات بعناية فائقة ثم توضع فيما يشبه صناديق خشبية صنعت صناعة خشنة على هيئة محتوياتها. وقد عثر على مجموعة من هذه الأطعمة المحنطة فى مقبرة «يويا» و «ثويا»، ودعك من تلك التى كانت موجودة فى مقبرة «توت عنخ آمون»، إلي جانب غيرها من المقابر الطيبية التى ترجع إلى العصر ذاته. وإلى جانب هذه القرابين «الحقيقية»، فقد رسمت أو نقشت القرابين على سطوح جدران الحجرات الجنائزية وذلك منذ الدولة القديمة. فلنذكر أيضا صورة المتوفى النمطية الجالس فى عظمة وجلال، أمام مائدة القرابين المحملة بما لذ وطاب. وكان مقدراً لهذه الصور أن تعالج احتمال توقف القرابين الطبيعية. وهكذا لن يحرم المتوفى أبداً من الطعام، إذ من الواضح أن المصريين قد لاحظوا أن خدمة القرابين كانت تتوقف بعد فترة ما، حتى بالنسبة للفراعنة... كما فى وسعنا أن نفسر مشاهد تربية الحيوان وذبحه والحصاد، التى طالما صورت فى مصاطب الدولة القديمة، وأيضاً «النماذج» التى تجسد نفس المشاهد فى مقابر الدولة الوسطى، وفى وسعنا أن نفسر كل ذلك، من زاوية توفير الطعام الضرورى لاستمرار الحياه بعد الوفاة.

وبالطبع فاننا نلاحظ بعض التغير فى مراسم الشعائر حسب ثراء المتوفى، ولكن أيضاً حسب العصر محل دراستنا.

كانت الغاية من القرابين الغذائية هى ضمان حياه المتوفى. الأمر الذى لم يكن كافياً لتأمين استمرار الحياة بعد الوفاة، إذ كان مقدراً للمتوفى أن يقوم برحلة فى العالم الآخر، تكتنفها الأحابيل والمخاطر الناجمة عن وجود القوى الشريرة. ولتجنب فخاخ هذه الرحلة، وليتمكن من تأكيد براءته أمام «أوزيريس»، كان لابد أن توضع تحت تصرفه تعويذات سحرية وهى التى دونت على سطوح التوابيت، فى زمن الدولة الوسطى، وفى كتاب الموتى اعتباراً من الدولة الحديثة. ومنذ هذه الفترة، وضع المصريون على مقربة من المومياء، سواء فى التابوت، أو بجواره، وفى الغالب داخل صندوق صغير يعلوه تمثال صغير لـ «أوزيزيس»، وصنعوا قرطاس البردى الذي يضم هذا السفر. وسيظل هذا التقليد سارياً ومعمولاً به حتى العصر الرومانى.

إن وجود الـ «أوشبتى» التى ظهرت أول ماظهرت فى الدولة الوسطى يشكل أيضاً عنصر حماية. إنها عبارة عن تماثيل صغيرة من الحجر أو من خلطة خزفية أو من الخشب، وهى بلا مدونات أو مدون عليها اسم صاحبها، وتحمل فى الغالب نص الفصل السادس من

كتاب الموتى الذى يطلق عليه أيضا اسم المجيبين، كان عدد الـ «أوشبتى» محدوداً فى بادىء الأمر، ثم أخذ يتزايد إلى حد أنه بلغ فى بعض الحالات واحداً لكل يوم من أيام السنة. عندئذ، كانوا يقسمون كل عشرة على حدة، يشرف عليهم رؤساء عمال يسهرون على حسن سير أعمالهم. ومن المفروض أن تقوم الـ «أوشبتى» بالعمل بدلاً من المتوفى، وتعتبر المجموعة الكاملة لـ «أوشبتى» توت عنخ آمون - مثالاِ مكتملاً لهذا النوع من التماثيل الصغيرة.

كما فى الإمكان أن توضع تماثيل صغيرة («أنوبيس» وعمود «چد»...) فى المقبرة، لاسيما فى كوات صغيرة محفورة فى السطوح الأربعة للحجرة الجنائزية. وهنا أيضاً، تقدم لنا مقبرة «توت عنخ آمون» مثالاً طيباً لهذا التقليد.

وبدءاً من الدولة الوسطى، بدأنا نعثر فى المقابر على تماثيل نساء عاريات، يصحبن أحياناً طفلاً، وهى مصنوعة من الخشب أو الحجر أو من القاشانى أحياناً. إن ملامحها الجنسية الواضحة جداً، قد دفع البعض إلى تفسير مفاده أنها «محظيات» المتوفى. بيد أن وجودها فى مقابر النساء يناهض هذا التفسير. وجدير بالملاحظة، أن هذه التماثيل الصغيرة بعد أن اختفت تقريباً خلال عصر الإنتقال الثالث، سوف تعاود الظهور فى هيئة مختلفة بعض الشىء فى العصرين البطلمى والرومانى. وفى هذه الفترة أيضاً، انتشرت عادة وضع تماثيل صغيرة صبت فى قوالب، وهى من الطين المحروق، وتمثل آلهة مختلفة («إيزيس» و «حورس الابن»، الخ...) بل وصوراً دنيوية، وكان أسلوبها يونانياً أكثر منه مصرياً، فى أغلب الأحوال.

وبالطبع، يصل الأثاث الجنائزى، فى حالة الفراعنة، حجماً على قدر كبير من الأهمية نظراً للوظيفة المزدوجة - الملكية والكهنوتية - التى يشغلونها. ولكن كثيراً ما نجد فى مقابر الأفراد العاديين كميات كبيرة ومتنوعة إلى حد ما من الأثاث ترتبط فى الغالب بالحياة اليومية. فلنسترجع فى هذا الصدد محتويات مقبرة «خع» وزوجته «مريت» (فى متحف «تورينو») التى تعتبر نموذجاً طيباً إلى حد كبير. كذلك نذكر مقبرة السيدة «مچا» وهذه المقبرة موجودة هى والمقبرة السابقة فى دير المدينة. وسنظل حتى العصر الرومانى نعثر فى المقابر على أثاث على قدر من الأهمية، وهو يعبر فى الغالب عن الأنشطة اليومية والمعتقدات الدينية للمتوفى، سواء بسواء.

الفصل الثامن

مومياوات الحيوانات

«لقد منحت الجائع خبزاً، والظمآن ماءً والعريان ثياباً. لقد سهرت مع طيور أبى منجل والصقور والكلاب الإلهية، ودفنتها على حسب ما تقتضيه الشعائر ودهنتها بالزيوت ودثرتها بالأقمشة.»

نقلاً عن الترجمة الفرنسية: (Inscription funèraire citée par J. Yoyotte, Dictionnaire de La Civilisation égyptienne, p 15c).

لايعرف الفكر المصرى اختلافاً بين طبيعة كل من البشر والحيوان والآلهة: فحسبما تقوله قصص الخلق، فالإله خالق العالم قد صنع كل الأنواع من «أخلاط جسده». سوف ندرك إذن بسهوله كيف أن الآلهة كثيراً ماكانت تتخذ أشكالاً حيوانية بل أشكال كائنات مهجنة، نصفها آدمى ونصفها الآخر حيواني، بل قد تكون كائنات خرافية حيوانية فقط، مثل «عاميت»، الملتهمة التى تجمع بين التمساح وفرس النهر والأسد. ومنذ الأسر الأولى، صار للآلهة أشكال آدمية، ولكن من غير المستبعد أن أقدم العبادات كانت للحيوانات. إن أبرز أثر ملموس خلفته هذه العبادة، ربما كان فى أسماء الأقاليم التى ظلت ثابتة حتى نهاية الحضارة المصرية: الثور الأسود (هليوپوليس) والكلب الأسود (كينو پوليس) والوعل (المنيا) والأرنب (هرموپوليس) والكلب السلوقى (أسيوط) ... ومع ذلك لايوجد دليل قاطع، حتى الألف الأول قبل الميلاد، يؤكد وجود عبادة الحيوان، إذا استثنينا العجل «أپيس». وعلى عكس ذلك، يشهد العصر المتأخر انتشاراً واسعاً لهذه العبادة. لقد كرست المعابد الرئيسية التى شيدت خلال هذا العصر لآلهة ترتبط فى الغالب بهيئة حيوانية مثل معبد إدفو للصقر «حورس»، ومعبد دندرة للبقرة «حتحور» أو أيضاً معبد إسنا للكبش «خنوم». ومما لاشك فيه أنه قبل هذا العصر، كان ثور حىّ يمثل «أپيس» («حپ» بالمصرية القدمية – م.) فى منف (حيث تأكد وجوده منذ الدولة الحديثة) وثور آخر هو الإله «منيفيس» («مر ور»

بالمصرية القديمة.م.) فى هليوپوليس. ولكن الجديد فى الأمر، هو تربية الحيوانات المقدسة فى حرم المعابد، التى يقع الإختيار على واحد منها ليصبح بمثابة «الصورة الحية» للإله . وهكذا يجسد صقر حىّ الإله «حورس» فى إدفو، والكبش يجسد إله مدينة «مندس» بالإضافة بلا شك إلى الإله «خنوم» فى إلفنتين، والتمساح يجسد الإله «سوبك» فى كوم أمبو أو فى معابد الفيوم. ومع ذلك، يبدو أن صورة الإله كانت فى هذه المنطقة الأخيرة عبارة عن مومياء تمساح، فى حين يمثل فى أماكن أخرى تمساح حى كما يشير إلى ذلك وجود حوض للتماسيح فى كوم أمبو.

كان من الطبيعى بالفعل أن تحنط هذه الحيوانات التى كانت تعتبر صورة للإله. ولكن كانت حيوانات أخرى تتمتع أيضاً بمثل هذا التحنيط: كان البعض منها له صفة مقدسة، كالصقور وطيور أبى منجل والقطط والقردة التى عثر منها على مئات الآلاف من المومياوات. ويبدو أن القسم الأكبر من هذه الحيوانات كانت تُربىّ فى حرم المعابد، قبل أن تقتل وتحنط لتباع للحجاج الذين يقدمونها نذوراً للإله. ثم كانت ترص هذه المومياوات فى سراديب شاسعة (كاتاكومب) كسراديب طيور أبى منجل والنسانيس فى تونا الجبل، وسراديب القطط فى «بوبا ستيون»* سقارة أو سراديب طيور أبى منجل والصقور والنسانيس والكلاب (أو ابن آوى) فى سقارة الشمالية. ويقدم لنا «ديودور الصقلى» معلومات شيقة حول تربية الحيوانات المقدسة ومراسم دفنها:

«كان يخصص لكل نوع من أنواع الحيوانات المقدسة أرض تدر دخلاً كافياً لرعايتها وامدادها بالطعام... وإذا مات أحد هذه الحيوانات، يدثرونه فى نسيج من الكتان الناعم، ويضربون صدورهم وهم ينوحون وينقلونه إلى حيث يتم تحنيطه. وبعد أن يعالج بزاتنج شجر الأرز وبالمواد ذات الرائحة الطيبة، التى من شأنها ضمان المحافظة على الجسد حفاظاً مديداً، يدفن فى صناديق مقدسة.»

والكلاب، التى عثر لها على جبانات تعود إلى عصر ماقبل الأسرات، تعد من الحيوانات المقدسة المحنطة. وكان الكلب يعبد على نحو خاص فى «كينوپوليس» (القيس، حاليا – م.) وفى «ليكوپوليس» (أسيوط). ولايمكن التحقق دائما من الحيوان. إنه يشبه الكلب أحياناً، أو ابن آوى، بل يبدو فى بعض الأحوال وكأنه ذئب. كان إلهان، وهما «أنوبيس» و«واب واوات»، يجمعهما وجه شبه كبير، فيصوران على هيئة حيوان من فصيلة الكلاب، وكان كلاهما يسهر على حماية الموتى، وفى أبيدوس عثر فى جبانة ضخمة من

* بوباستيون Bubasteion هو الإسم اليونانى لمعبد القطة «باستت» وملحقاته. (المترجم)

العصر الروماني، على آلاف من مومياوات الكلاب وقد أعدت، على كل حال، إعداداً رديئاً جداً.

إن القردة، وهي صورة الإله «تحوت»، مثل أبى منجل، قد حنطت ودفنت فى جبانات تقع على مقربة من معبد للإله «تحوت». ومثال ذلك، جبانة تونا الجبل وجبانة سقارة الشمالية، وعلى ذلك، فإن مقبرة وادى القرود، على مقربة من وادى الملوك، فى منطقة طيبة لاتبدو أنها قد ارتبطت بوجود معبد.

إن تحنيط الحيوانات الأخرى التى تعرف بكل تأكيد سمتها المقدسة، هو أمر أقل انتشاراً، ونذكر منها على سبيل المثال الثعابين والنموس وبعض الحشرات وكثير من الطيور والغزلان والفئران والعقارب...

لقد حنطت بعض أنواع الأسماك، ولاسيما قشر البياض («لاتس» Latès) والذى أعطى اسمه لمدينة «لاتوبوليس» (إسنا). وعلى بعد كيلومترات غربى المدينة تم الكشف عن جبانة ضخمة لأسماك قشر البياض، تضم نماذج لاحصر لها من جميع الأحجام وفي حالة جيدة من الحفظ في أغلب الأحوال. وتم العثور وسط مومياوات القطط فى «بوبا ستيون» سقارة، على مومياء لسمكة صغيرة، موضوعة فى «تابوتها» المصنوع من الخشب ويبلغ طوله عشرة سنتيمترات. إن مغزى وجودها فى هذا المكان ليثير تساؤلاً يحتاج إلى تفسير... وقد عثر فى مقبرة بجبانة دوش على نموذج لضفدع محنطة، وهو مايعتبر من الأمور النادرة جداً. وكانت قد وضعت بين فخذى انسان بالغ محنط، تم خصيه. وتعود هذه العادة على مايعتقد إلى الأسطورة الأوزيرية، التى تقول إحدى رواياتها ان عضو تذكير الإله، قد التهمته سمكة القنوم بعد أن ألقى به فى النيل. والضفدع التى تصور الإلهة «حقت»، موجودة منذ الدولة القديمة، ولاسيما فى «ماميزى» العصرين البطلمى والرومانى، وتظهر فى مشاهد الولادة. وانتهى بها الأمر إلى ان صارت رمزاً لإحياء المتوفى وبعثه.

وفى سقارة الشمالية عثر على عدد كبير من مومياوات الزّبابة،* وكانت مختلطة بمومياوات صقور، وتضم فى الغالب عددا من النماذج ملفوفة فى لفة واحدة، وقد وضعت أحيانا فى توابيت صغيرة من الحجر الجيرى متوازية السطوح.

وأخيراً، فإن هناك فئة أخيرة من الحيوانات المحنطة هى فئة الحيوانات التى تلازم صاحبها: نذكر منها قرد الأميرة «ماعت. كا. رع» أو قطة الأمير تحوتمس التى عثر على تابوتها الحجرى. وفى هذه الحالات الخاصة، وهى نادرة كما هو واضح، يهدف التحنيط

* الزبابة: جنس حيوان من آكلى الحشرات. وهى قدّ الفأرة. المعجم الوسيط. (المترجم)

فى الغالب إلى ضمان الخلود لحيوان كان يحبه صاحبه حباً خاصاً. ان مثال قرد «ماعت كا رع» يحتاج إلى تفسير. وفى واقع الأمر، فقد ساد الظن لزمن طويل ان هذه المومياء الصغيرة التى ترقد بجوار جسد الأميرة داخل تابوتها كانت مومياء مولود حديث. ان التصوير بالأشعة هو الذى صحح هذا الخطأ إذ أثبت ان المومياء هى مومياء قرد افريقى ضخم....

وفى المقابل، يبدو أن بعض الأنواع النادرة لم تحنط أبداً. وربما كانت وراء ذلك أسباب دينية فيما يخص الحيوانات التى كان ينسب إليها سمات شريرة، لارتباطها بالإله «ست»، ونذكر منها الحمار وفرس النهر والخنزير. كما فى وسعنا أن نلاحظ عادة دفن الحمير والجياد فى النوبة.

١- الحالات الخاصة للثيران المقدسة

تشكل العجول «أپيس» فئة، لها خصوصيتها المتميزة، ونحن نعلم عنها الكثير. وخلافاً للحيوانات الأخرى التى ترتبط بقوة إلهية، فإن «أپيس» واحد فى تفرده. فيخضع إختياره إذن لمعايير فى منتهى الدقة. فأن يخلف الـ «أپيس» عجل من صلبه هو استثناء نادر الحدوث. فعند وفاة الـ «أپيس»، يشرع الكهنة فى البحث عن بديل له تتوفر فيه المعايير الثابتة. واستناداً إلى ماذكره «آليان» وهو كاتب من العصر الرومانى، كانت هذه المعايير لاتقل عن تسعة وعشرين معياراً، الأمر الذى يدفعنا إلى القول بأن عملية الإختيار كانت من الصرامة بمكان. كانت السمات الخاصة، والظاهرة للعيان أكثر من غيرها، تتمثل فى وجود مثلث أبيض على الجبهة، وعلامات على شكل أهلة على جانبى الحيوان. وعلى العكس، يتعين أن يكون الثور الذى سيجسم «منيفيس» أسود اللون بأكمله مع وجود خصلات شعر مميزة على الجسد والذيل. أما الثور «بوخيس» فكان لابد أن يكون من النوع القصير القرنين وله كتلة محدبة عند مستوى الغارب* وأن يكون أبيض الجسد وأسود الرأس.

وبعد أن يقع الإختيار على العجل «أپيس» الجديد، وحسب رواية الكاتب اليونانى «ديودور» فإنه يجتاز «فترة تدريب» تدوم أربعين يوماً، فى مكان يدعى «نيلوپوليس» (مازال تحديده غير مؤكد)، ثم يتم اصطحابه إلى «منف»، فى أيام اكتمال القمر بدراً. وكان له فى

* الغارب: الكاهل. أو مابين السنّام والعنق. المعجم الوسيط. (المترجم)

منف محل إقامته الخاص، الواقع على مقربة من معبد «بتاح»، وخصص له كهنة ملحقون به وكان له أيضاً، وفقاً لرواية بعض الكتاب، «حريم» من الأبقار المنتقاة، فى حين يرى كتاب آخرون انه لم يكن مسموحاً له سوى «بزوجة» واحدة. وهناك أمر مؤكد: ان السمة المقدسة للعجل «أبيس» تنسحب على أمه. وكانت هذه الأخيرة محل رعاية خاصة لحين وفاتها وحتى دفنها فى جبانة خاصة: هى «جبانة البقرات أمهات العجل «أبيس»، وجارى الكشف عنها فى سقارة الشمالية. ومن جانب آخر، كانت أم العجل «أبيس» محل عبادة وتتوحد مع «إيزيس – حتحور». شكل (٣٢)

وإذا حل أجل العجل، كان يدفن فى السرابيوم، وهى مقبرة ضخمة منحوتة فى الصخر اكتشفها ماربيت Mariette عام ١٨٥٠. وحتى الأسرة السادسة والعشرين، لايبدو ان العجل كان يحنط، ولو أن وجود أوان كانوبية، ترجع إلى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ليؤكد على انتشار عادة استخراج احشاء البطن. ويحتفظ متحف اللوفر على بعض هذه الأوانى التى تبلغ أحجاماً لايستهان بها. وفى المقابل، فإن أقدم التوابيت التى عثر عليها سالمة لم تكن تحتوى سوى على بقايا عظام مهشمة. وهكذا نشاهد تكرار حالة افتراضية سبق أن لاحظناها فى الدولة القديمة، فيما يتعلق بتحنيط البشر: فقد كان المصريون منذ ذلك الوقت المبكر يمارسون استخراج الاحشاء ويحافظون عليها، بينما هم لم يتوصلوا بعد إلى أساليب مرضية تسمح لهم بالمحافظة على الجسد بأكمله. وهكذا ففى وسعنا ان نجازف بالقول ان عادة استخراج أحشاء البطن قد سبقت فى الظهور عادة «حمام النطرون».

ومن جانب آخر، لانجد عناءً كبيراً فى تصور ان تحنيط حيوانات بمثل هذه الضخامة قد طرحت مشاكل ظلت لأمد طويل دون حل. ومنذ الأسرة السادسة والعشرين باتت العجول تحنط تحنيطاً سليماً. وتقدم احدى البرديات معلومات محددة حول الاساليب المتبعة: فيتعين غسل الجسد بالماء و«حشوه حشواً مناسباً بالأقمشة» ثم يدهن بالزيوت ويلف بالأكفان. ويبدو أن استخراج الأحشاء كان لايتم من خلال فتحة البطن بل عن طريق الشرج. ومازالت موائد التحنيط الرائعة موجودة فى منف وقد صنعت من كتلة واحدة من الألبستر. إن الجوانب المزخرفة بقوائم ورؤوس أسد، لتذكرنا بالأسرّة الجنائزية التى وجدت أحياناً فى مقابر البشر أو صورت فيها فى الغالب. كما عثر على موائد أخرى أصغر منها حجماً ويرجح أنها كانت مخصصة لتحنيط الأحشاء. ولاريب ان التحنيط كان من الصعوبة بمكان بالمقارنة مع تحنيط الآدميين لأن كمية الماء المطلوب استخراجها من جسم الحيوان

كانت بالطبع أضخم بكثير، وتأسيساً على ذلك فان مدة «حمام النطرون» كانت أطول من المدة اللازمة للبشر.

وبفضل اللوحات الحجرية التى وصلت إلينا من السرابيون، فإننا نعرف الكثير عن التتابع الزمنى للعجول «أبيس» (قد تصل مدة حياتهم إلى ستة وعشرين عاماً كما حدث لعجل توفى فى زمن الأسرة الثانية والعشرين) وعن ظروف دفنها. ولم تُجر دراسة علمية حديثة واحدة على بقايا العجول «أبيس». فلا توجد بين أيدينا سوى محاضر الحفائر التى أجراها مارييت الذى يشير إلى حالة حفظها التى يرثى لها. فلنتذكر أنه باستثناء مقبرتى العجل «أبيس» اللتين ترجعان إلى عصر رعمسيس الثانى، فقد سلبت ونهبت جميع المقابر الأخرى التى نعرفها فى الوقت الراهن، إذ كانت العجول فى واقع الأمر مزودة بكميات ضخمة من الحلى والتمائم....

وبعد إعداد المومياء، كانت تدثر بالأكفان وتلف بالأشرطة. وكان الرأس يغطى بما يشبه قناعاً مغطى بالجص المذهب، له عينان صناعيان من عجينة الزجاج وقرص من الخشب المذهب بين القرنين. عندئذ، كان من الممكن أن تبدأ مراسم الجنازة، وهى شديدة الشبه بالشعائر التى تخص البشر، نظراً لأن شعيرة «فتح الفم» كانت تقام أيضاً قبل وضع المومياء فى القبر. كما نعرف أن النائحات كن يشاركن فى مراسم الدفن. ويعلن «بسمتيك» بن «أحمس» الثانى، على سطح لوحة حجرية، أنه لبس الحداد عند وفاة العجل «أبيس»، ولم يتناول سوى الخبز والماء والخضروات لمدة السبعين يوماً التى تمتد منذ بدء التحنيط وحتى دفن العجل «أبيس». وإليكم مثالاً من النص المحفور على لوحة حجرية أخرى من السرابيوم والذى يخص عجلاً توفى فى العام الثالث والعشرين من سنوات حكم أحمس الثانى (الأسرة السادسة والعشرين)، عام ٥٤٧ ق.م. يقول النص: شكل (٣٣)

« ... لقد تمت من أجله جميع المراسم فى بيت التطهر... واعدّ له تابوت ضخم من الجرانيت... وصنع من أجله كفن من قماش «سرّى»، وارد من مدينة «سايس» المقدسة لتأمين حمايته. وحليه مصنوعة من ذهب وشتى أنوا ع الأحجار الكريمة... لقد صعد جلالة هذا الإله («أبيس»») إلى السماء فى العام الثالث والعشرين، فى اليوم السادس من الشهر السابع... وكانت مدة حياة هذا الإله ثمانى عشرة سنة وستة أشهر...»

كانت تكاليف دفن العجل «أبيس» مرتفعة جداً. وكثيراً ما تذكر المدونات الحصة التى ساهم بها الملك. وفى الأزمنة المتأخرة، كان من الممكن اجبار مختلف المعابد على المشاركة فى هذه التكاليف.

ويوجد فى سقارة العديد من جبانات العجول «أبيس». وفى المرحلة الأولى التى تمتد من «امنحوتب» الثالث إلى العام الثلاثين من حكم «رعمسيس» الثانى كانت الدفنات فردية. وفيما بعد وحتى العام الثانى والخمسين من سنوات حكم «بسمتيك» الأول (٦١٢ ق.م)، تم تجميعها فى سرداب صغير. (لايمكن الوصول إلى هذه المقابر فى الوقت الراهن). واعتباراً من ٦١٢ ق.م، أعد سرداب اخر، أكبر من السابق وعمودياً عليه، وقد ظل مستخدماً حتى نهاية العصر البطلمى، بل وفيما بعد ذلك. إن معظم العجول التى دفنت فى هذه الجبانة الأخيرة كان من نصيبها توابيت حجرية من قطعة واحدة، آية فى الجمال، يقارب وزن الواحد منها سبعين طناً، بينما كانت التوابيت من قبل أصغر حجماً وتصنع من الخشب. كانت التوابيت الحجرية توضع فى مقاصير، حفرت على جانبى ممرات كبيرة، وقد غطيت سطوحها بحجر جيرى مصقول. وبعد اتمام الدفن كانت تغلق هذه المقاصير، وتوضع عليها الأختام وتثبت عند مدخلها لوحة حجرية تنفيذاً لأوامر الملك، إحياء لذكرى وفاة العجل ودفنه. وقد يحدث أن يتقدم الأفراد بلوحات حجرية أخرى فتثبت على سطوح ممر المدخل. والمقاصير، مفتوحة تماماً فى الوقت الراهن، وقد فقدت كساءها ونهبت كل التوابيت وسلبت. اما اللوحات الحجرية فتحتفظ بها مختلف المتاحف ويصور عليها العجل «أبيس» فى أوضاع مختلفة، وهو فى الغالب على هيئة عجل سائر، أو راقد أحياناً، فوق الزحافة التى كانت تستخدم لنقله إلى الجبانة وفى أحيان أخرى كان يصور على هيئة إنسان واقف، وبرأس ثور.

اذا كانت دفنات العجل «أبيس» قد تم سلبها ونهبها على نطاق واسع، وتلفت المومياوات تلفاً شديداً، فإن الوضع مختلف بالنسبة لدفنات العجل المقدس «بوخيس» («باغ». م)، صورة الإله «مونتو» فى «هرمونتيس» (أرمنت حاليا – م) إلى الجنوب من طيبة. إن الجبانة التى تم الكشف عنها عام ١٩٢٦ وتعود إلى الأسرة الثلاثين كانت تضم ٣٥ مقبرة موزعة على جانبى السرداب كما فى السرابيوم. وقد امدتنا هذه الدفنات بمعلومات غزيرة حول تحنيط العجول: فكانت الأحشاء لاتستخرج من خلال شق فى البطن ولكن عن طريق الشرج، وقد عثر على الأدوات اللازمة وسط المعدات الجنائزية: كالمُبعد والأوانى ذات الأنابيب (المصنوعة من البرونز). كان العجل فى وضع راقد، والقوائم مثنية تحت الجسد. وكان يثبت على لوح خشبى متين بأحزمة من قماش تمرّ عبر مشابك معدنية. وكان رأس الحيوان يغطى بقناع مذهب مرصع بعينين. ويثبت بين القرنين غطاء الرأس مكون من قرص تعلوه ريشتان كبيرتان. وهذه الصورة بتفاصيلها هى التى نشاهدها على اللوحات الحجرية التى حصلنا عليها من الجبانة. وبفضل إحدى هذه اللوحات ويرجع

تاريخها إلى عام ٢٨٨ ميلادية وتصور الإمبراطور «دقلديانوس» وهو يقدم قربانا إلى «بوخيس»، فى وسعنا أن نؤكد على الاستمرارية الفريدة فى بابها لهذه الشعيرة. وعلى غرار سقارة، بشأن مقابر البقرات أمهات العجل «أبيس»، فقد تحققنا من وجود مقابر البقرات أمهات العجل «بوخيس».

وقد تأكد وجود شعيرة العجل «منيفيس» فى هليوبوليس، ولكن فيما عدا مقبرتين، فانه لم يتم الكشف عن جبانته، ويبدو أنه عرف أساليب تحنيط ولف باللفائف مماثلة لتلك التى استخدمت مع العجل«أبيس».

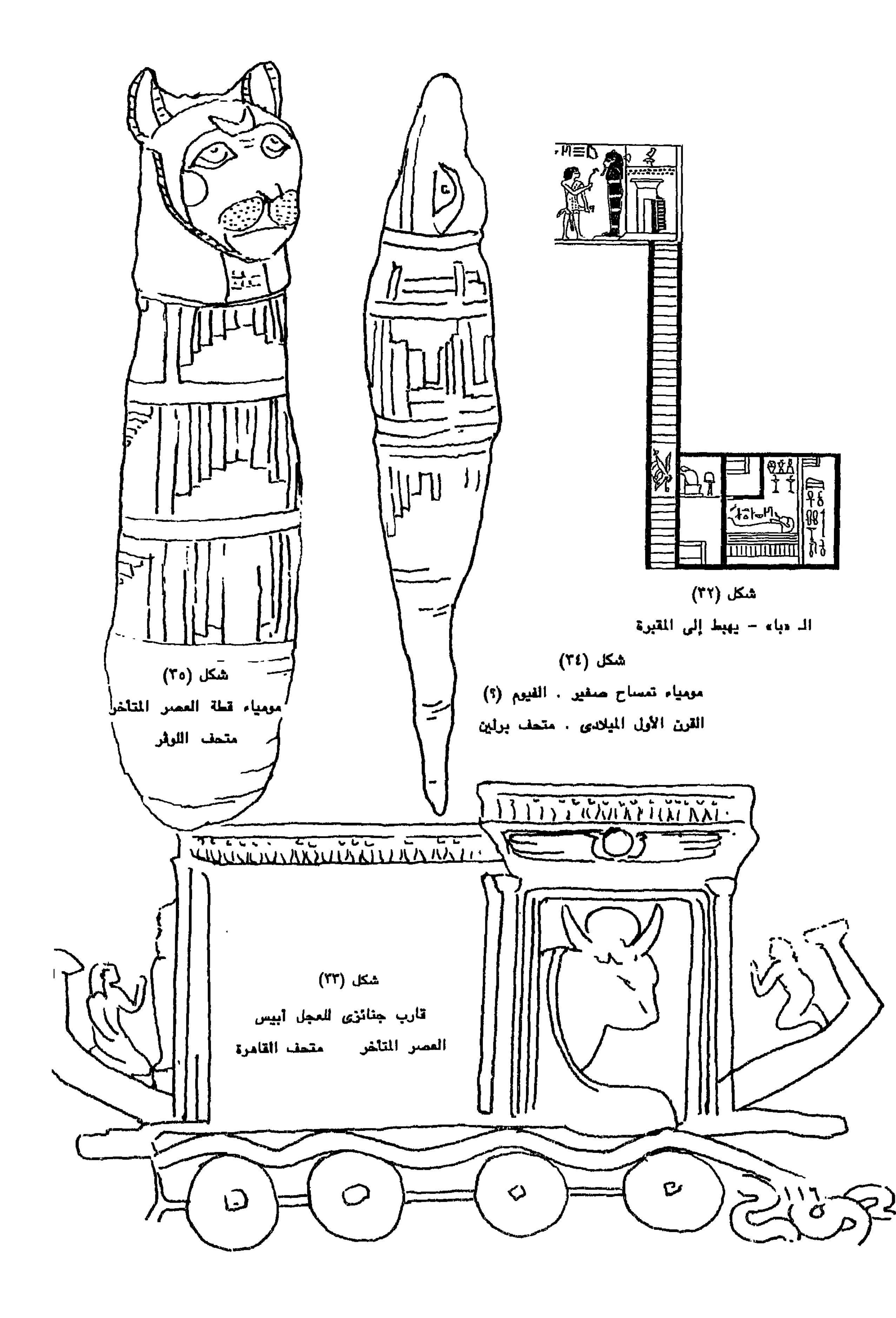
وفى المعتاد، كانت الأبقار وما إليها تستخدم كحيوانات معدة للذبح، لتقدم طعاماً سواء للأحياء من البشر أو قرباناً للآلهة (يؤول إلى الكهنة فى آخر المطاف...). ومع ذلك، فقد عثر على بقايا محنطة لثيران وأبقار لم تكن بشكل مؤكد حيوانات مقدسة، على غرار العجول التى عثر عليها فى أبى صير. ومن بين هذه الأخيرة، عثر على مومياوات حسنة المظهر وان كانت تضم فى واقع الأمر عظاما متنوعة تعود إلى عدد من الحيوانات.

٢- التماسيح المقدسة

لقد كرست للإله التمساح «سوبك» عدة أماكن للعبادة. ومن بين الحيوانات التى كانت تعيش فى مصر فى العصور التاريخية، فإن التمساح كان بلاشك أكثرها إثارة للرعب. وفى وسعنا أن نقر ان المصريين لهذا السبب قد جعلوا منه إلهاً، وكانت غايتهم من ذلك، عن وعى أو بلا وعى، ان «يخاتلوه». ومع ذلك علينا أن نوضح أن المدخل الذى يعدد رؤيتنا للإله التمساح ليس أحادى الجانب: فيبدو التمساح فى بعض الحالات قوة خيرة ترتبط بالشمس والمياه التى تحمل معها الخصب (وهى حالة الآلهة التماسيح فى الفيوم)، فى حين يبدو فى حالات أخرى أنه كائن مرعب، قد يتوحد إلى حدٍّ ما مع «ست»، عدو الآلهة ومع قوى الفوضى والخواء. وفى وسعنا أن نلاحظ أن الترانيم الشعائرية تناجيه بصفته الإله «صاحب الوجه البشوش، والحب الرقيق، والهبة الجميلة، والألوان المتألقة» وأن أحد اسمائه فى الفيوم، فى العصر اليونانى الرومانى هو «پنيفروس» Pnéféros الذى يعنى «صاحب الوجه الجميل».

ومنذ الدولة الوسطى كان له فى الدلتا والفيوم أماكن يعبد فيها. وفى الدولة الحديثة، خصص له معبد هام فى «سومنو»، قرب أرمنت. وفى العصر البطلمى وإلى جانب معبده فى مدينة «كروكوديلوپوليس»، عاصمة الفيوم التى تحمل اسمه، كان معبده الرئيسى فى كوم أمبو، وقد بدأ تشييده فى القرن الثانى قبل الميلاد واستمر حتى القرن الثالث الميلادى. ومن الراجح، أن فى كل معبد من معابد «سوبك» كان يوجد تمساح هو الصورة الحية للإله. وفى «ثيادلفيا» (بطن إهريت – حاليا – م)، تُظهر بعض اللوحات الحجرية من العصر اليونانى الرومانى، الحيوان الحى، راقداً فوق ناووس صغير، وأمامه كاهن يقدم قرباناً أو فى وضع الصلاة. وتُظهره إحدى هذه اللوحات وهو يسبح فى حوض ماء. ومن جانب آخر، فإن صورة الإله فى بعض معابد الفيوم تتكون على مايبدو من مومياء تمساح. وفى «كرانيس» (كوم أوشيم – حاليا – م.) فى وسعنا أن نشاهد، فى المعبد الشمالى، الكوات الغائرة التى كانت تستخدم مكاناً ترقد فيه المومياء الموضوعة فوق محفتها. بل لقد عثر فى ثيادلفيا على المحفة التى حملتها خلال الموكب الذى طاف بها. ويصور تصوير جدارى فى هذا المعبد طواف الموكب ذاته: التمساح مدثراً فى كفن أبيض ولايظهر منه سوى الرأس الذى يرتدى التاج الأوزيرى. ويبدو من جانب آخر ان بعض معابد «سوبك» كانت تقوم بتربية التماسيح ولايتضح لنا وظيفتها الحقيقية، ولكن طابعها المقدس واضح لايخامره أدنى شك. إن هذه التماسيح التى كانت مستأنسة، من الناحية العملية، كانت حقاً أمراً غريباً، تشد إليها الرحالة الأجانب الذين يزورون هذا المكان. ويخبرنا نص للكاتب اليونانى «سترابون» أنهم كانوا يقدمون لها القرابين والفطائر وخمر العسل... الخ ليتولى الكهنة وضعها فى فم الحيوان.! ومن جانب آخر، يدعى هيرودوت أن الكهنة كانوا «يزينون» تمساحهم المقدس بالأساور والأقراط... شكل (٣٤)

ان الكثير من جبانات التماسيح قد تم الكشف عنها على امتداد الوادى فى كوم أمبو واسنا والجبلين وطهنا والحيبة و«ليتوپوليس» (أوسيم، حالياً، م) وهو مايوضح بجلاء الأهمية التى تحيط بهذا الحيوان. وبعض مومياوات التماسيح، فى حالة جيدة جداً، ظل التمساح فيها محتفظاً بهيئته المميزة. وقد عثر على مومياوات كاملة تماماً، بل إن بعضها يحتوى على بيض، بل على عدد كبير من الصغار داخل نفس الغلاف. وفى المقابل، فإن البعض الآخر فى حالة يرثى لها، وهى أحياناً مجرد مومياوات زائفة أو أيضاً لفات لاتحتوى سوى على بعض العظام المبعثرة وسط القش ولها هيكل من أغصان النخيل. ومن حيث الشكل الظاهرى تبدو هذه المومياوات من النوع الجيد فى الغالب، وهى مغلفة بالشرائط والكارتوناچ. إن العديد من كارتوناچ مومياوات التماسيح، ولاسيما كارتوناچ



شكل (٣٢)

الـ «با» - يهبط إلى المقبرة

شكل (٣٤)

مومياء تمساح صغير . الفيوم (؟)

القرن الأول الميلادى . متحف برلين

شكل (٣٥)

مومياء قطة العصر المتأخر

متحف اللوفر

شكل (٣٣)

قارب جنائزى للعجل أبيس

العصر المتأخر   متحف القاهرة

جبانة «تبتونيس» Tebtunis (تل أم البريجات - حالياً - م.) قد دمرت لاستعادة البرديات اليونانية التى كانت قد استخدمت عند صناعتها. إن وجود إختلاف فى جودة مومياوات التماسيح ليذكرنا بنفس الإختلاف الذى نلحظه بالنسبة للقطط، ومن حقنا أن نتسائل لو أن الأسباب متشابهة: ألا تعتبر بعض مومياوات التماسيح قرابين مقدمة للإله؟ إن هذا الإفتراض الذى يحتاج إلى تأكيد، له الفضل فى أنه يفسر سبب تربية التماسيح، التى لانعرف لها مبرراً لوجودها، إلا المبرر الدينى.

٣- حالات القطط

من المعروف أن مصر هى مهد القط الأليف. ويبدو أن نوعين من القطط كانا موجودين فى الأصل: سلالة كانت أليفة من الناحية الفعلية وقريبة الشبة من قططنا الحالية واسمها felis sylvestris libyca وسلالة أخرى بقيت متوحشة، إنه قط المستنقعات واسمه felis chaus، وهو كبير الحجم. وفى معرض حديثنا عن القط الأليف، علينا أن نوضح، إنه كان على نحو ما أقل قرباً من الإنسان بالمقارنة مع الكلب على سبيل المثال. وهناك حالات عديدة لقطط، إن لم تكن قد ارتدت إلى حياة التوحش، إلا أنها باتت تعيش على الأقل حياة مستقلة. وقد يكون ذلك، هو السبب وراء كثرة انتشار تصوير الكلاب فى الفن المصرى منذ الأسرات الأولى، فى حين لم يُعرف تصوير القطط من الناحية العملية قبل الدولة الوسطى، وعم وانتشر على نحو خاص فى زمن الدولة الحديثة.

وبالطبع، يمكن مشاهدة القط كحيوان أليف جالساً تحت مقعد سيدته أو مرافقاً للإنسان فى رحلة الصيد (راجع رسومات مقبرة «نب آمون» فى طيبة) أو أيضاً، بصفته «معاونا» فى المنزل، كصياد للقوارض. ولكن كان للقط أيضاً دلالته الدينية. فقد كان فى الأساطير الشمسية، رفيقاً للإله الشمس «رع»، بل كان أيضاً أحد مظاهره. وبصفته هذا، كان يصور وهو يذبح الثعبان «أبوفيس»، القوة المعادية التى تهدد بالحيلولة دون شروق الشمس. ومن ثم فهو يصور فى الرسومات التوضيحية التى تزين الفصل السابع عشر من كتاب الموتى، وأيضاً فى مقابر عصر الرعامسة. ويظهر أيضاً على لوحات حجرية فى دير المدينة، حيث كان يعبد إن ارتباطه بـ «باستت»، الإلهة القطة، يسبغ عليه كل هذه الأهمية. أجل، لقد كانت «باستت» معروفة منذ الدولة القديمة، غير أن مدينة «بوباستيس» (تل

بسطا، حاليا – م)، فى القسم الشرقى من الدلتا، وإلهتها «باستت» لم تحتلا مكان الصدارة قبل الأسرة الثانية والعشرين (البوباستية). وفى هذا العصر، شهد المعبد المحلى للإلة «باستت» توسعات ضخمة ونشاطاً فاق بكثير حدوده المحلية. إن صور الإلهة تمثلها على هيئة امرأة برأس لبؤة، وهو مايسمح لها بأن تتحد مع الإلهة اللبؤة الأخرى، وهى الإلهة «سخمت». وانتهى الأمر بالإلهتين إلى ان اعتبرتا قوتين متعارضتين ولكنهما متكاملتان: فتمثل «سخمت» القوة والعنف بل الحرب، فى حين تمثل «باستت» الحنان والوداعة. ويبدو أحياناً من الصعوبة أن نميز رأس اللبؤة من رأس القطة، فى التصاوير. وعلى مايبدو، فقد أخذ المصريون فى عصر الأسرة الثانية والعشرين يرون شيئاً فشيئاً أن القط مظهر تتجلى فيه الإلهة «باستت». وفى هذا العصر أيضاً، ازدهرت على نطاق واسع صور، مصنوعة فى المعتاد من البرونز أو القاشانى، لقطط جالسة أو راقدة، وفى صحبتها فى الغالب قطط صغيرة. ويفترض أن انتاجها كان على نطاق واسع، لأننا عثرنا منها على نماذج كثيرة جداً. وعثر على جبانة شاسعة للقطط فى «بوباستيس». لقد وضعت المومياوات فى حفر عميقة حوائطها من الطوب أو الصلصال الصلب، أو وضعت أحيانا فى أوان من الطين المحروق.

وهناك الهة أخرى على هيئة لبؤة أو قطة، هى الإلهة «باخت» التى كان لها معبد فى «سبيوس أرتميدوس» (بلدة إسطبل عنتر، حالياً – م.) على مقربة من بنى حسن حيث تم العثور على جبانة شاسعة للقطط. وكانت المومياوات موضوعة فى الغالب فى توابيت صغيرة مصنوعة من الخشب أو البرونز وعلى شكل قطة. ومن هذه الجبانة نقلت فى القرن الماضى، أطنان من المومياوات إلى انجلترا لتستخدم سماداً للأرض... ويقال أن شحنة واحدة تزن تسعة عشر طناً، كانت تتكون على مايظن من حوالى مائة وثمانين ألف مومياء. وقد تم الكشف على غيرها من جبانات القطط، ولاسيما فى منطقة طيبة حيث تتحدث بردية ديموطيقية من القرن الثانى الميلادى عن وجود «مكان لراحة القطط».

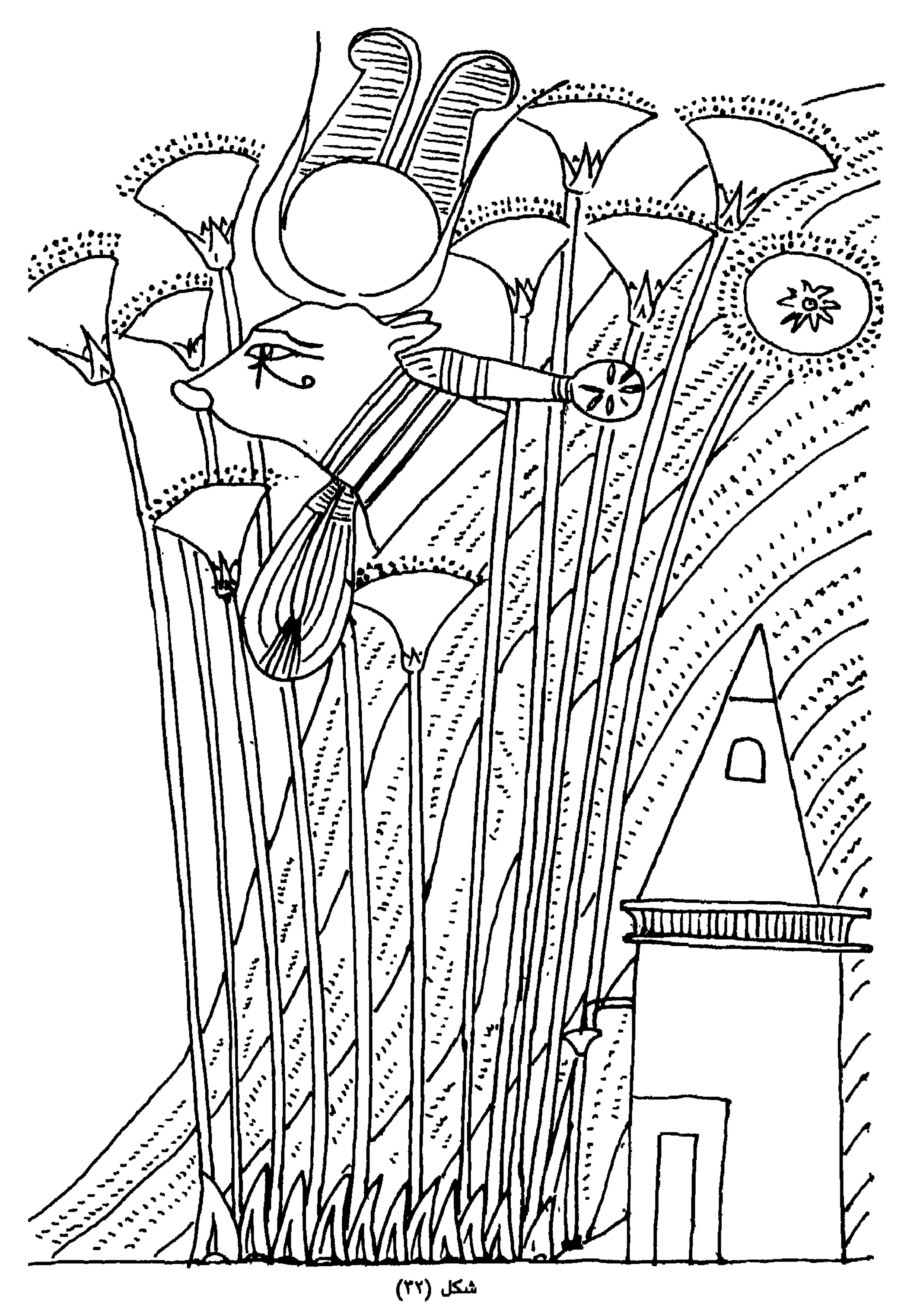
إن فحص مومياوات القطط، التى أجريت حتى الآن على عدد محدود نسبياً من القطط (٥٣ مومياءً من المتحف البريطانى) قد أمكن مواصلتها منذ وقت قريب على نطاق أوسع فى إطار استكشاف «بوباستيون» سقارة (حوالى مائتى قط). لقد أكدت هذه الدراسة الأخيرة ان وفاة هذه الحيوانات كانت فى الغالب وفاة غير طبيعية. فغالبية القطط هى من ناحية فى مقتبل العمر أو لم تبلغ سن النضج. ومن ناحية أخرى، فإنها تحمل دلائل على وجود تهتك فى المخ أو كسور فى الجمجمة، وهو مايحملنا على الظن أنها قد قتلت

عمداً. وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن المومياوات كانت تصنع بغرض بيعها للحجاج الذين كانوا يقدمونها على مايعتقد للمعبد، إعترافاً بالجميل أو تعبيراً عن الورع والتقوى. إن وجود مرابض لتربية القطط على مقربة من المعابد، أمر ثابت فى الأزمنة المتأخرة على الأقل، وربما كان يلبى هذا المطلب. وتذكر العديد من البرديات وجود مربين للقطط.

والمظهر الخارجى للمومياوات متغير: فيبدو الشكل الإجمالى، فى بعض الحالات، كلفة مستطيلة، تُبرز الرأس بوضوح بفضل لفها باللفائف فى حين أن الأطراف مثنية على امتداد الجسد، كما يبرهن على ذلك دراسة المومياوات بالتصوير بالأشعة. ان نماذج من هذا النوع معروضة فى المتحف البريطانى. وفى حالات أخرى، تلف الأطراف باللفائف بشكل مستقل، وهو مايضفى مزيداً من الحياة على مظهر المومياء. ويمكن مشاهدة مثل هذه المومياوات فى متحف اللوفر. ويمكن أن يكون أسلوب لف المومياء معقداً جداً، والرأس يشكله نسيج مغطى بالجص وملون. ومع ذلك فأن أسلوب لف اللفائف هو فى الغالب غير متقن إلى حد كبير. وغالبا مايدفن القط بدون تابوت، غير أنه قد يوضع فى تابوت من خشب ويتخذ هو نفسه هيئة قط قابع. إن طول هذه التوابيت الخشبية متغير، وهو مايسمح تارة بادخال مومياء كاملة وتارة أخرى بإدخال بعض العظام فقط. وفى النزر اليسير، قد يكون التابوت من حجر أو من خشب على هيئة صندوق. ويحتفظ متحف «تورين» بنموذج من خشب، يزدان أحد جانبيه الصغيرين بقطين مقعيين يواجهان بعضهما البعض ويحيطان بالعلامة الهيروغليفية «نفر». ويتكون نوع آخر من صندوق من البرونز يعلوه تمثال صغير لقط. وعلى غرار مومياوات البشر والحيوانات الأخرى، فإننا لانفتقر هنا أيضاً إلى المومياوات الزائفة أو الناقصة. وربما كانت قططا قدشوهت قبل عملية التحنيط أو بعدها. وإذا افترضنا ان هذه المومياوات كانت تستخدم كنذور، فإن وجود المومياوات الزائفة لايقسوه افتقار العاملين فى هذا المجال إلى الضمير الحى فحسب، بل أيضاً زيادة الطلب عليها. ان وجود عدد كبير من المومياوات الزائفة (تصل هذه النسبة فى سقارة إلى ٢٥٪) يشهد على وجود «صناعة» بالجملة على نسق واحد. شكل (٣٥)

٤- الطيور

لقد قام المصريون بتحنيط مايقرب من أربعين نوعاً من الطيور. لايعنى ذلك أنهم كانوا يعبدونها جميعاً، ففارق كبير بين هذا وذاك، وأهم الطيور المقدسة هى الصقر، صورة



شكل (٣٢)

«صخور» خارجة من الجبل الغربى كتاب الموتى : «آنى».

الدولة الحديثة. المتحف البريطانى

«حورس»، إله الأسرات الملكية وأبو منجل المكرس للإله «تحوت»، والرخمة المكرسة للإلهة «نخبت». أما عن أبى منجل، فهو أبو منجل الأبيض ذو الرأس الأسود، ibis religiosa sive aethiopica، وقد اختفى فى الوقت الراهن من مصر، ربما لكثرة ما حُنِّط منه. ومع ذلك فقد عرفت الأزمنة المتأخرة أفنية كثيرة كان يربى فيها طائر أبى منجل. وتم العثور على جبانات شاسعة جداً فى أماكن مختلفة. وأهمها هى بلاشك جبانة تونا الجبل، وهى جبانة «هرموبوليس»، وكان معبدها الرئيسى مكرساً للإله «تحوت». وداخل حرم كبير، وفى ثلاثة سراديب (كان سرداب منها خاوياً) رصّت رصاً آلاف من الجرار المصنوعة من الطين المحروق مخروطية الشكل، تحتوى كل منها على طير واحد أو أكثر. وقد سجيت طيور أخرى فى توابيت صغيرة من حجر وضعت فى كوات محفورة فى حوائط السراديب. ولم تكن أحشاء طيور أبى منجل قد استخرجت، بل تم فقط انتزاع الماء من هذه الطيور، بسبب صغر حجمها نسبياً بلا شك. وفى المقابل، كان أسلوب لف اللفائف آية فى الإتقان فى المعتاد. واحياناً كان يضاف إلى المومياء مايشبه رأسا مستعارا له منقار ويعلوه التاج المميز للإله «تحوت». وبجوار مدخل اقدم السراديب، كانت قاعة صغيرة تستخدم على الأرجح كورشة تحنيط. وقد عثر فيها على مائدة تحنيط صغيرة لها ميزاب لتصريف السوائل ومازال بها آثار مواد راتنجية وعلى جرار غائرة فى الأرض تحتوى عى نطرون وملح وتربنتين. وقد تم الكشف على جبانات هامة لأبى منجل فى «أبيدوس»، حيث عثر على جرار كبيرة تحتوى على مايقرب من مائة طير، تضمدها اللفائف أيضاً، كما عثر معها على أعداد من البيض. وكان هناك أيضاً جبانة فى سقارة الشمالية، وربما كانت مرتبطة بعبادة «إيمحوتب» (وكان إلهاً للمعرفة مثله مثل «تحوت»). وفى سقارة الشمالية أيضاً، تضم سراديب ضخمة ملايين من مومياوات الصقور وقد وضعت فى أوانى من الطين المحروق، كما توجد بعض مومياوات الرخمة موضوعة فى جرار كبيرة الحجم.

٥- الكباش

كان الكبش هو الحيوان المقدس لعدد من الآلهة: «آمون» و«خنوم» و«حرسافيس».* كما كان يعبد أيضاً فى مدينة «مندس». وكانت مصر القديمة تعرف جنسين من الكباش:

* وهو التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «حرى شف» الذى يعنى «ذاك الذى على بحيرته» وهو الإله الكبش فى «هرقليوبوليس» - اهناسيا المدينة - حاليا. (المترجم)

الأسم العلمى للأول هو «أوفيس لونجيپس پاليواجبتياكا» ovis longipes paleoaegyptiacus، وله قرنان حلزونيان أفقيان. أما الجنس الثانى الذى ظهر فى زمن متأخر، واسمه العلمى «أوفيس پلاتيورا» ovis platyoura فإن قرنيه الملتفين يشبهان قرون الكباش الأوروبية الحالية. ولم نعثر حول المعابد على أثر لتربية الكباش المقدسة وفى المقابل فقد تم العثور على جبانات لكباش فى إلفنتين وطهنا ومندس وتبتونيس والمزوقة فى الواحات الداخلة. إن كباش جبانة إلفنتين وهى من العصر الرومانى كانت مغلفة بالكارتوناج الذى كان من نوعية جيدة فى الغالب وكانت موضوعة فى توابيت من الحجر الرملى. كما عثر أيضاً على القاعة التى خصصت لأعمال تحنيط هذه الحيوانات. ومن الواضح الجلى، ان معابد «آمون» أو «خنوم» كان بها كبش حتى يفترض أنه الإله.

إن تحنيط الحيوانات، وهو جزء لايتجزأ من الديانة التقليدية، سوف يستمر حتى نهاية القرن الرابع الميلادى (كان الحديث مازال يدور عام ٣٦٢ عن البحث عن عجل «أبيس» جديد)، ثم أختفت هذه العادة واندثرت مع انتشار المسيحية وتحريم العبادات الوثنية. ولنلاحظ أن الأمر يختلف بالنسبة لتحنيط الآدميين الذى سيظل معمولاً به لفترة أطول من الزمن. وقد لوحظ أن معظم المومياوات الحيوانية تعود إلى أزمنة متأخرة، بطلمية ورومانية. ويرى الكثيرون أن انتشار عبادة الحيوانات وتحنيطها هو تعبير عن بعض الإرتداد الذى أصاب الديانة المصرية التى أخذت تفسح مجالاً أكبر «للممارسات الشكلية الخرافية». ان هذا الأمر لايهمنا من قريب أو من بعيد. ففى الأزمنة المتأخرة. لمّا اصبحت تقنيات التحنيط فى متناول جمهور أوسع، وباتت أقل تكلفة، صار من الممكن اتساع دائرتها، لتشمل البشر فحسب، الذين تزايدت أعدادهم، ولكن لتضم الحيوانات أيضا. أما فى العصور القديمة، عندما كانت أعداد مومياوات الآدميين أقل كثيراً، فإن مومياوات الحيوانات كانت بالضرورة أكثر ندرة. والحقيقة أننا درجنا، فيما يتعلق بعادات مصر القديمة، إلى الإنحياز إلى التأويلات التى تقوم على ماهو دينى وما هو رمزى على حساب البواعث العينية والضروريات الإقتصادية....

الفصل التاسع

نهاية التحنيط

إن علو نجم المسيحية باقتدار لم يترتب عليه القضاء على التحنيط قضاءً مبرماً. وبالفعل لايجوز ان نرى فى المسيحية ديانة أصبحت قوية دفعة واحدة، فى وسعها أن تحل محل الديانات التقليدية. إننا لانعرف فى الواقع شيئا عن بدايات انتشار المسيحية فى مصر، الذى يرجع إلى القديس مرقس الرسول، حسب رواية التقليد المتواتر، ولكن دون برهان تاريخى. وكان علينا أن ننتظر نهاية القرن الثانى الميلادى لنقيم البرهان على وجود مسيحية مستقرة فى الإسكندرية مع ظهور مدرسة ذائعة الصيت للتعليم المسيحى. وعلى امتداد القرون الثلاثة الأولى، يبدو أن المسيحية قد أخذت تتطور فى مصر عبر دروب تختلف عن تلك التى سلكتها المسيحية الأسيوية وهى دروب سيتم إدانتها فى عهود لاحقة لمخالفتها لصحيح الدين. والبرهان على ذلك نجده فى نصوص نجع حمادى*: ان هذه النصوص المكتوبة باللغة القبطية، من الراجح انها تشكل ماكتبته جماعة مسيحية من مصر العليا. غير ان العديد من هذه النصوص له طابع غنوصى يعكس تيارات فكرية كانت تعيش على هامش المسيحية، وتتعارض معها إلى حد كبير فى بعض النقاط، ومتأثرة تأثيراً ملحوظاً بالعقائد المصرية، بل الإيرانية أيضاً. ومن بين هذه النصوص، كانت هناك اناجيل تتحدث عن المسيح وحوارييه (أناجيل توما وفيليب ومريم المجدلية) ولم تحتفظ بها الأسفار القانونية للعهد الجديد. إن الطابع المخالف لصحيح العقيدة لهذه الجماعات المسيحية ليفسر شعار الصمت الذى اسدل عليها فصرنا لانعرف شيئاً تقريباً عن بدايات المسيحية المصرية. ومع ذلك ففى القرن الثالث والقرن الرابع على وجه التحديد، بدأت الهياكل الكهنوتية تأخذ مكانها بالتدريج، ونلاحظ على وجه الخصوص ظهور حركة ستشهد فى مصر وخارجها انطلاقة ذات شأن، ألا وهى حركة الرهبنة. وكان اضطهاد دقلديانوس عند منعطف القرن الرابع، هو آخر «تجربة» كبرى يمر بها مسيحيو مصر.

---

* تضم هذه النصوص ٥٢ نصاً عثر عليها عام ١٩٤٥. (المترجم)

وفيما بعد وبعد أن اصبح للمسيحية وجود شرعى، أخذت تنتشر أكثر فأكثر فى المدن والريف. وفى نفس الوقت، نلاحظ تباعداً عن الديانة التقليدية التى عانت الكثير كما هو واضح من الصعوبات الاقتصادية التى مر بها القرن الثالث. ومع ذلك فان هذا التباعد يختلف باختلاف المناطق. وكان علينا أن ننتظر نهاية القرن الرابع (٣٩١ - ٣٩٢) عندما أمرت المراسيم الإمبراطورية بغلق المعابد «الوثنية» لتضع حداً، ولو من الناحية النظرية، لممارسة العبادات التقليدية.

أن الفوارق الدينية التى تميز المسيحيون عن بقية الشعب، لم يترتب عليها أبداً تغييرات فى حياتهم اليومية. إنهم يعيشون فى نفس القرى، ويدفنون فى نفس جبانات بنى وطنهم من «الوثنيين». وفى حقيقة الأمر، وخلال القرون الثلاثة الأولى على الأقل، وبل وفيما بعد ذلك، يبدو أن المقابر المسيحية كانت مختلطة بالمقابر الأخرى. كما فى وسعنا أن نتحقق من ذلك فى جبانة هوارة وجبانة كرارة قرب الحيبة، حيث كانت توجد بعض المقابر الوثنية وسط الجبانة المسيحية، وكذلك فى البجوات (فى الواحات الخارجة) حيث وجدت مقابر وثنية من القرن الرابع الميلادى على مقربة من المقابر المسيحية التى كانت أكثر عدداً.

ولم يكتف المسيحيون باستخدام أماكن دفن مشتركة، فأخذوا هم أيضاً يحنطون موتاهم. وللأسف لانملك بين أيدينا دراسة منهجية أجريت على المومياوات التى تحققنا من أنها مسيحية.

إن دراسة «كاستل» G. Castel التى انصبت على دفنات رهبان دير القديس مرقص، فى منطقة طيبة، قد أثبتت ان الأجساد كانت مغطاة بكتل من الملح ومواد «دهنية» لم يتم التحقق منها بشكل قاطع. وكانت لاتحمل آثار استخراج الأحشاء، الأمر الذى لايجعلنا نقطع مسبقاً برأى حول نوع المعالجة التى أجريت لها: وترتدى الأجساد مايخصها من ثياب الرهبان البالية، تدثرها عشرة أكفان متتالية يغطيها سروال من الجلد، وقد تم تثبيت كل ذلك بواسطة مجموعة من الشرائط.

ان الدراسة التى قامت بها السيدة «برومنسكا» Prominska على ثلاثة رهبان من نفس هذا الدير قد برهنت على أن الإهتمام بالمحافظة على الأجساد كان لايزال قائماً. ويشمل نمط التحنيط المستخدم أساساً استخدام كتل من النطرون دون أى أثر لاستخراج الأحشاء الباطنة. ويلاحظ تهتك صدر إحدى المومياوات وهو ما يسمح بمشاهدة الرئتين والحجاب الحاجز والمرئ. وبشكل عام، فإن هذه المومياوات الثلاث فى حالة جيدة من الحفظ. ان شعر الرأس وشعر البشرة واللحية إلى جانب الأظافر موجودة وكثيفة. والبشرة

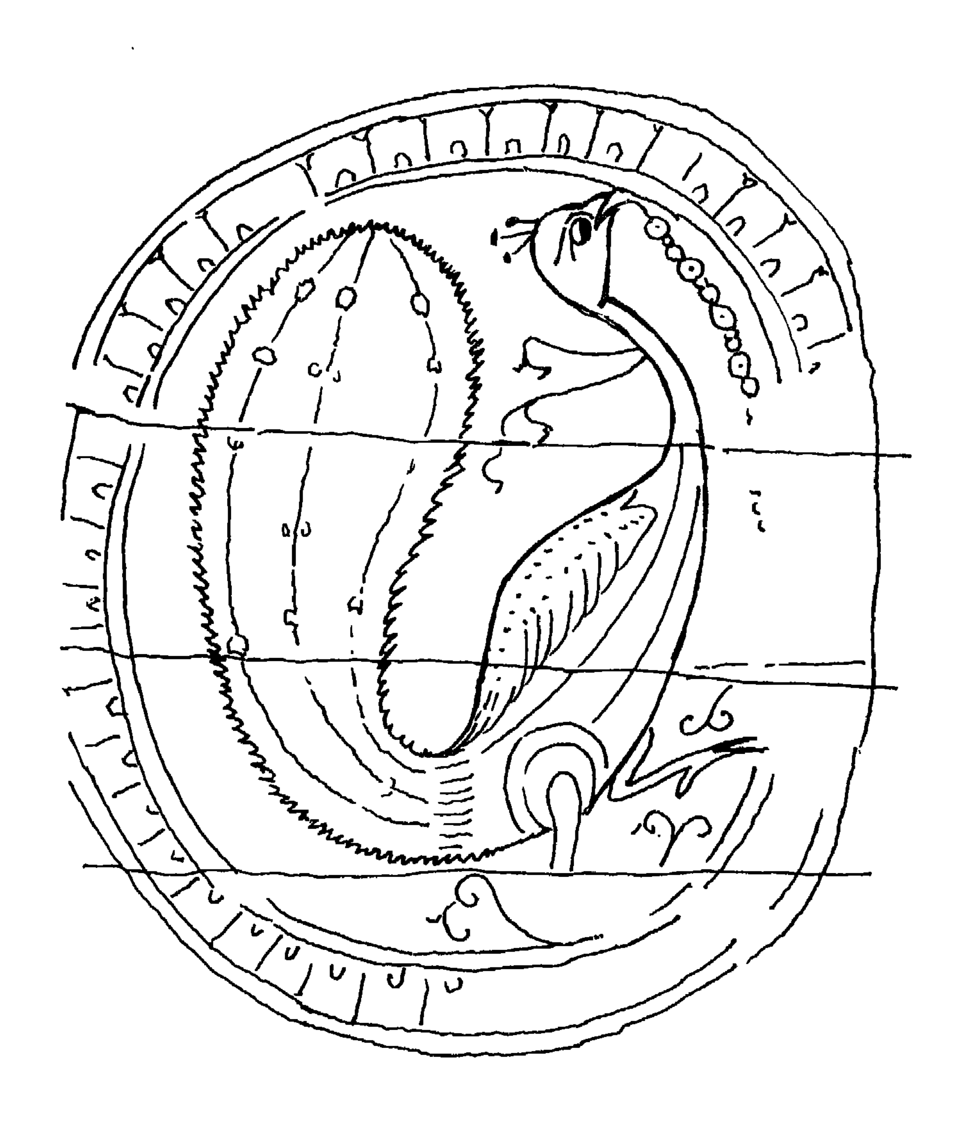
لها مظهر جاف، ولكن يغطيها فى بعض الأماكن مايشبه المادة الدهنية التى أفرزها الجثمان على مايبدو. إنها ظاهرة يعرفها جيداً الأطباء العاملون فى مجال الطب الشرعى. وعلى كل حال، لم تعرف أبداً المومياوات المصرية الكلاسيكية مثل هذه «الإفرازات» لمواد دهنية. وتسمح لنا هذه الملاحظات من التحقق من أن النطرون لم يستخدم بنفس طريقة استخدامه فى حالات التحنيط التقليدية. وكان لهذه الجثث رائحة «مميزة». وقد استطعنا أن نلاحظ وجود رائحة كريهة جداً صادرة عن مومياوات تعود إلى أزمنة متأخرة جداً وقريبة الشبه جداً بمومياوات الرهبان التى فحصتها السيدة «پرومنسكا». ويبدو أن أحدهم قد تم لفه باللفائف بسرعة كبيرة، ربما بينما كان لايزال حياً... وكانت هذه المومياء تحمل آثار ضرب على المنطقة القذالية وعلى الوجه مع وجود آثار دماء.

وفى الدفنات التى عثر عليها على مقربة من دير إبيفانوس، فى طيبة، عثر على جثث مدثرة بطبقات من القماش وقد وضعت بين طياتها ثمرات من نبات العرعر وكتل من الملح.

وفى الجبانة المسيحية بمدينة الحيبة، كانت تحتفظ الأجساد بطبقات سميكة من الملح بين طيات الأكفان. وقد تم تحنيط بعضها، ثم سجيت فى توابيت من خشب أو من الطين المحروق. وكانت غيرها تدثر بكل بساطة بالأكفان ثم توضع فوق قاعدة من خشب. شكل (٣٦)

وتوضح مختلف هذه الأمثلة بجلاء أن ممارسة التحنيط قد ظلت معمولاً بها فى مصر المسيحية، بما فى ذلك أوساط الرهبان. وحوالى عام ٦٠٠ ميلادية، سنرى كيف ان الأسقف إبراهيم، أسقف هرمونتيس (أرمنت حاليا - م.) سوف يصدر تعليماته حتى يضمن أن يحنط...

وفى دوش أخرجت إلى النور بعض الأجسام من مقبرة، تابعة لجبانة أخرى غير الجبانة الرئيسية (والتى كانت محل أبحاث أولية عام ١٩٩٠) وكانت هيئة هذه الأجسام تشبه المومياوات التى وضعها الباحثان السابقان. إن حالة حفظ هذه الأجسام جيدة جداً فى الظاهر، وان كانت تفوح من هذه المومياوات رائحة عفن شديدة، الأمر الذى لاينطبق بشكل عام على المومياوات «الكلاسيكية». واللون يميل إلى اللون الرمادى، القريب الشبه من لون الرّق، وهو يختلف كل الإختلاف عن لون المومياوات «السوداء» والمومياوات ذات اللون الفاتح وهو الأصفر الفاتح، التى عثر عليها فى الجبانة المجاورة. والأجسام غير ملفوفة باللفائف بمعنى الكلمة، بل إنها دثرت بالأحرى بكفن واحد كبير بما يكفى ليحتوى الجسم بالكامل. وقد تم تثبيت هذا الكفن فى مكانه بواسطة أشرطة صغيرة.



شكل (٣٦)

تابوت مزخرف لطاووس. (رمز البعث) الجبانة المسيحية فى كرارة

القرن ٤/٧م   متحف هيدلبرج

إن الفك الأسفل لمومياوين (واحدة لرجل وأخرى لصبية) كان مثبتاً فى مكانه بواسطة عصابة حقيقية للذقن مربوطة عند قمة الرأس، وهو مالم يلاحظ أبداً من قبل على العديد من المومياوات التى أخرجت من مقابر دوش. (وهى الممارسة التى سجلتها أيضا السيدة «پرومنسكا»). وشأنها شأن المومياوات المسجية التى درسها «كاستل» و«پرومنسكا»، فإن مومياوات دوش كانت مكسوة تماماً بكتل من الملح، تشكل غطاءً حقيقياً. كما لم يظهر عليها فتحة لاستخراج الأحشاء. وأثبتت دراسة هذه المومياوات بواسطة الأشعة ان مستوى التحنيط لم يكن متدنياً. بل نجد فى الغالب بعض السمات المعتادة، أى تضاغط الأسطوانات الفقارية وبعض غضاريف الترابط. ولاريب أن هذه المومياوات وهى مومياوات مسيحية بالنظر إلى أسلوب دفنها وطراز المقبرة (حيث عثر فيها على قطعة نقود تعود إلى السنوات ٣٧٥ - ٣٨٨م) يبدو أنها قد زامنت المومياوات «المصنوعة» وفقاً لتقنيات تقليدية تماماً وعثر عليها فى سياق غير مسيحى.

ومع ذلك فقد تطورت «حلى» المومياوات: فبدلاً من لف الجسم باللفائف، فإنه يدثر فى أغلب الأحوال بمجرد كفن واحد، كما لوحظ ذلك فى دفنات الجبانة المسيحية فى البجوات بالواحات الخارجة. ولكن يحدث أن يرتدى المتوفى الثياب التى كان يرتديها فى حياته اليومية. فقد احتفظ رهبان دير القديس مرقس بثيابهم كرهبان، وتغطيهم الأكفان. وعلى عكس ذلك، لايوجد أى أثر للأكفان فى العديد من مقابر «أنطنوه» الشيخ عبادة حاليا - م.)، التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث على الأكثر. وهكذا فأن مومياوين عثر عليهما فى أنطنوه ويحتفظ بهما فى الوقت الراهن متحف جرينوبل Grenoble ترتديان ثوباً من الصوف بزخارف منسوجة وعلى رأسيهما إكليل من اوراق الشجر. ويمكن قول نفس الشئ بالنسبة لمومياء امرأة تدعى «الطرازة» يقدر انها من النصف الأول من القرن الرابع ويحتفظ بها حالياً متحف «بروكسل». ولو أن نوعية التحنيط ليست من الطراز الممتاز، كما يمكن الحكم عليه من مظهر الوجه، الذى لانرى سواه، فالثياب هى فى المقابل من نوعية جيدة جداً، ومزخرفة زخرفة فاخرة. كانت المرأة ترتدى جلبابين على الأقل أحدهما فوق الأخر ولهما زخارف منسوجة ووشاحين مزدانين بأشرطة ودلايات زاهية الألوان تمثل عصافير وأسماكاً وزهوراً وعناقيد عنب، وكان على رأسها قبعة يعلوها مايشبه إكليلا كثيفاً مصنوعا من باقات من الصوف المتعدد الألوان. وكانت الرأس والقدمان تستند على وسادات زخرفت أيضاً بدلايات منسوجة. وفى أنطنوه أيضاً عثر على مجموعة من الأكفان الملونة، ترجع إلى نفس العصر (القرن الرابع)، وتمثل نساء يرتدين ملابس فاخرة: جلاليب أرجوانية اللون لها دلايات، وأوشحة مشغولة، وكميات كبيرة من الحلى، وهو مايقودنا إلى

الاعتقاد ان دفن الموتى كان يتم فى الغالب وهم يرتدون أفضل ماعندهم من ملابس وليس فى أكفان بسيطة. ويمسك بعض هؤلاء النسوة بالصليب ذى العروة الذى أصبح رمزاً مسيحياً، ولكن هذا ليس سببا لتأكيد أنهن مسيحيات.

وكما نرى لم يتخل المسيحيون عن التحنيط الذى لم تحرمه على كل حال النصوص الدينية القانونية. فقد تتفق عقيدة البعث فى آخر الأزمنة كل الاتفاق مع الإهتمام بالمحافظة على الجسد الذى كان وراء الباعث إلى التحنيط. أضف إلى ذلك، ان أية محاولة لمناهضة تقليد قديم كل القدم وراسخ الجذور محكوم عليها بالفشل بلا أدنى شك. وتظهر بوضوح ذكريات التقنيات القديمة الخاصة بالتحنيط التقليدى فى نص قبطى عن سيرة حياة الراهب باخوم (مؤسس الرهبنة):

«إذا أوشك الإنسان الآثم على مفارقة الحياة، يقف بجواره ملاكان لايعرفان الرحمة. ويدخلان فى فمه أداة مثنية، تشبه الشص ويستخرجان روحه البائسة من جسده. ومن الملاحظ، أن هذه الروح سوداء ومظلمة».

نقلا عن الترجمة الفرنسية (L. Th. Lefort, Vies coptes de Pachome p. 144 - 145)

وهذا النص هو بالطبع ذكرى مشوهة لتقنية استخراج المخ.

لقد عثر فى «أوكسيرنكوس» (البهنسا حالياً – م.) على شريط دوِّن عليه مدونة مسيحية، الهدف منها كما هو واضح ان تحمى جثمان المتوفى. كما انها تشهد فى نفس الوقت على رسوخ عقيدة البعث:

«قال يسوع: لايدفن شئ إلا لينبثق من جديد».

(H. Ch. Puech, En quête de la gnose, II, p. 59 - 62)

ويمكن مقارنة هذه المدونة بتلك الواردة على الأكفان وتصور إهداءات لمختلف الآلهة «الوثنية».

وسواء فى الأوساط المسيحية أو فى الأوساط الوثنية، كان الناس عندما يتحدثون عن الدفن يقولون «الذهاب إلى الجبل». ويخبرنا نص يخص راهبات أول دير للراهبات انشئ فى مصر وهو دير «تابينّيس» Tabennese:

«إن المتوفاة كانت توضع فوق مركبة، ثم تنقل إلى الجبل، وتسير الأخوات خلف المركبة، وفى مقدمتهن تسير «أمهن»...».

(Palla dius, Histoire Lausia que, xxxiii, 1 - 2)

إن العادة التى كانت شائعة جداً، فى العصر اليونانى الرومانى، وهى عادة الإحتفاظ فى المنزل لفترة ما بجسد المتوفى المحنط، قبل دفنه، ظل معمولاً بها فى الأوساط المسيحية. ويمكن تفسير ذلك بعدم وجود مقبرة جاهزة تحت تصرف الأسرة، عند حدوث الوفاة. بل وكان فى الإمكان، حسبما يقول «ديودور» أن يرهن جسد المتوفى وفاءً لدين وضماناً له. إن هذه العادات الغريبة تؤكدها «خزائن المومياوات» التى عثر عليها، فى ابى الصير بالذات، وأيضاً البطاقة المرفقة بالمدعو «سنبيسيس» والتى تخبرنا ان ٢٦١ يوماً قد انقضت بين تاريخ الوفاة وتاريخ الدفن. فى حين أن سيرة القديس أنطون التى كتبها الأسقف اثناسيوس فى النصف الثانى من القرن الرابع تخبرنا بما يلى:

«يحب المصريون أن يدثروا أجساد موتاهم الورعين ولاسيما الشهداء الأبرار منهم - أن يدثروها فى الأكفان ويحيطوها بها. وبدلاً من دفنها، يسجونها على الأسرة ويحتفظون بها فى منازلهم، اعتقاداً منهم انهم على هذا النحو يكرمون الموتى...»

(Athanase, vie d'Antoine, 90)

ويعترض القديس أنطون على هذه الأعراف التى يرى أنها «غير مشروعة وغير مقدسة» ويطالب تلاميذه بألا يتركوا كائنا من كائن، أن يُحمل جسده فى مصر، بل أن يدفن فى مكانه.

ونرى أن السلطات المسيحية قد حاولت رغم ضغط التقاليد أن تقضى على بعض العادات الوثنية، وإن تعذر عليها ان تحرمها تحريما قاطعاً. وربما كان ظهور الإسلام هو الذى وضع حداً نهائياً لممارسة التحنيط بأن فرض أن يوارى المتوفى التراب، والإكتفاء بأن يلف الجثمان فقط بكفن.

إن المرء لايجد فارقاً كبيراً بين المقابر المسيحية والمقابر «الوثنية»، وذلك فى المرحلة الأولى على الأقل، عندما كان المسيحيون والوثنيون يتقاسمون نفس الجبانة كما حدث فى هوارة والحيبة. ومع ذلك نلاحظ وجود تطور، لاسيما فى البجوات. فالمقابر الجماعية، وهى الأقدم على مايبدو، تتكون من مبانى حقيقية من الطوب اللبن، لها واجهة على هيئة بوابة

معبد تكتنفها الأعمدة أو مكونة من عدد من الأروقة المقنطرة على هيئة عقد كامل، وتضم هيكلاً تعلوه قبة وبئراً محفورة فى الأرض تفضى إلى حجرة الدفن. وفى وقت لاحق تظهر عند الأطراف مقابر فردية تتجمع العديد منها حول «الكنيسة الكبرى». انها مجرد حفر مكسوة بالطوب، قليلة العمق، وكانت مغطاة إما ببناء علوى مستطيل منخفض إلى حد ما، أو بأكوام من الركام مغطاة بطبقة طلاء. إن عادة دفن الموتى فى مقابر فردية حول الكنائس ستستمر على مدى قرون عديدة فى الأوساط المسيحية، فى مصر وغيرها من البلدان.

وتشهد الأوساط المسيحية على وجود عادة القربان الجنائزى. فقد عثر فى مقابر الحيبة على نقود وآلات وأوانى من الخزف وحلى وآلات موسيقية. كما عثر فى «أنطنوه» على أوانى من الخزف والقاشانى أو من الألبستر، ومنتجات زجاجية ومسارج وتماثيل صغيرة من الطين المحروق. وقد تبرهن هذه الأشياء إما على وجود عقيدة استمرار الحياة أو أن المتوفى قد يحتاج إليها عندما، يبعث حياً.. وعلى كل حال، كانت توضع المسارج فى المقابر، كما جرت العادة فى العصر الفرعونى، وكما فى السابق، كان يحتفل بالذكرى السنوية بالمراسم الجنائزية. وتوضح بعض المقابر تعايش المعتقدات الوثنية والمسيحية جنباً إلى جنب. وهكذا ففى مقبرة من بلانة، فى النوبة، عثر على صليب من ذهب، وجعران وأشرطة من رصاص مطوية وشريط آخر، من ذهب، دونت عليه تعويذة سحرية باليونانية مع إبتهالات إلى «إيزيس».

ومع ذلك، وإذا كان المسيحيون و«الوثنيون» قد استطاعوا ان يتعايشوا معاً فى سلام لفترة طويلة، فى نفس القرى وفى نفس الجبانات، فقد جاء اليوم الذى هجرت فيه العادات الجنائزية التقليدية، ومن ثم فقد أهملت المقابر: ولاشك أنه لم يكن هناك من يجرؤ على تقديم القرابين المعتادة للأموات. وهكذا، نلاحظ أن «الرجال القديسين» المسيحيين، قد أقاموا خلوتهم، فى المقابر التى وقع عليها اختيارهم لوجودها عند حافة الصحراء، ولما توفره لهم من عزلة يسعون إليها. وهكذا فعندما قرر أنطون أن يهجر العالم، فقد انسحب إلى داخل مقبرة «وأوصدت عليه بابها». أما «باخوم»، مؤسس الرهبنة، فقد اعتاد فى شبابه أن «يذهب إلى المقابر المليئة بالموتى ويمضى فيها الليل من المساء وحتى الصباح، مصلياً فى حضرة الله». وإذا كان النساك، أثناء إقامتهم فى إحدى المقابر، يجدون فيها بلا ريب «الموت الإجتماعى» الذى يسعون إليه، فيصبح فى وسعهم أن «يهجروا حياتهم»، إلا أنهم كانوا على مايبدو لايكنون أى احترام للموتى الذين جاءوا يقلقون راحتهم. صحيح، إنه

وفقاً لحوار غريب دار بين القديس مقار الراهب ورجل وثنى ميت، عثر على جمجمته ملقاةً فى الصحراء، فإن أولئك الذين «لم يعرفوا الله» محكوم عليهم ان يمكثوا بعد وفاتهم، وسط ألوان من العذاب، فى مكان أسفل الأرض، وأبشعها ألا يروا بعضهم بعضاً وجهاً لوجه، حيث أن هؤلاء الموتى المساكين «ملتصقون ظهراً لظهر»... ومع ذلك، إذا صلينا من أجلهم، بين الفينة والفينة، «ففى وسع كل واحد منهم ان يرى وجه الأخر لفترة وجيزة». تلك هى الآخرة الغريبة والمرعبة، التى خصصها المسيحيون منذ الآن لأولئك الذين ظلوا لقرون عديدة ينظرون إلى الموت على اعتباره معبراً وفاتحة لحياة النعيم.

فهرست الكتاب

الصفحة

مـن إصـدارات دار الفكـر

مصريـات

١ – أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة ٢٢٤ صفحة ط ١ ١٩٨٨
د . سيد القمنى

٢ – الناس والحياة فى مصر القديمة
١٧٦ صفحة ط ١ ١٩٨٩
دومنيك ڤالبيل
ترجمة : ماهر جويجاتى
مراجعة: د. زكية طبوزاده

٣ – موسوعة الفراعنة
الأسماء والأماكن والموضوعات
٢٩٥ صفحة ط١ ١٩٩١
باسكال ڤيرنوس
چان يويوت
ترجمة : محمود ماهر

٤ – تاريخ مصر القديمة
٥١٢ صفحة ط٢ ١٩٩٣
نيقولا جريمال
ترجمة : ماهر جويجاتى
مراجعة: د. زكيه طبوزاده

٥ – شامبليون فى مصر
الرسائل والمذكرات ٤٥٦ صفحة ط١ ١٩٩٢
جان فرانسوا شامبيليون
ترجمة: عماد عدلى

٦ ـ الأدب المصرى القديم
١٤٦ صفحة ط١ ١٩٩٢
كلير لالويت
ترجمة: ماهر جويجاتى
مراجعة: د. طاهر عبد الحكيم

٧ – مصر القديمة
١٨٦ صفحة ط١ ١٩٩٣
چان ڤيركوتير
ترجمة: ماهر جويجاتى

٨ – كيف بنى الهرم
٨٥ صفحة ط١ ١٩٩٣
داڤيد ماكولاى
ترجمة: د. طاهر عبد الحكيم

٩ – علم المصريات
١٦٧ صفحة ط١ ١٩٩٤
دومينيك ڤالبيل
ترجمة : لويس بقطر

١٠ – الدولة والمؤسسات فى مصر
من الفراعنة الأوائل الى الأباطرة الرومان
چونيڤييڤ هوسون
مراجعة: د. زكية طبوزاده

١١ – مقبرة عبريا
(كشف فى سقارة) ٢٢٤ صفحة ط ١٩٩٦
الان زيڤى
ترجمة: عماد عدلى

١٢ – نصوص مقدسة ونصوص دنيوية جـ١/جـ٢ ط ١٩٩٦
كلير لالويت
ترجمة : ماهر جويجاتى
مراجعة : د. طاهر عبد الحكيم

١٣ – ماعت
(مصر الفرعونية وفكرة العدالة الإجتماعية)
١٩١ صفحة ط ١٩٩٦
يان أسمان
ترجمة : د . زكيه طبوزاده
و د. عليه شريف

رقم الإيداع ١٣٨٢٧/٩٦
الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 5091 - 26 - 8